سِلسِلَةُ زَادِ الدَّاعِيَةِ المُسلِمِ [عَقِيدَة] [٢]

إِعَانَةُ الدَّاعِيَةِ المُفِيدِ
عَلَى شَرحِ مَسَائِلِ التَّوحِيدِ

مُؤَلَّفٌ وُضِعَ زَادًا مُبَارَكًا لِلدَّاعِيَةِ السُّنِّيِّ فِي سَعْيِهِ لِنَشرِ دَعْوَةِ الرُّسُلِ

جَمَعَهُ

أَبُو عَبدِ اللهِ

غَفَرَ اللهُ لَهُ

الطَّبعَةُ الأُولَى

١٤٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي كُلِّ زَمَانٍ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ يَدْعُونَ مَنْ ضَلَّ إِلَىٰ الْهُدَىٰ، وَيَصْبِرُونَ مِنْهُمْ عَلَىٰ الْأَذَىٰ، يُحْيُونَ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ الْمَوْتَىٰ، وَيبَصِّرون بِنُورِ اللهِ أَهْلَ الْعَمَىٰ، فَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ لِإِبْلِيسَ قَدْ أَحْيَوْهُ، وَكَمْ مِنْ ضَالٍّ تَائِهٍ قَدْ هَدَوْهُ، فَمَا أَحْسَنَ أَثَرَهُمْ عَلَىٰ النَّاسِ، وَمَا أَقْبَحَ أَثَرَ النَّاسِ عَلَيْهِمْ، يَنْفُونَ عَنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ، الَّذِينَ عَقَدُوا أَلْوِيَةَ الْبِدْعَةِ، وَأَطْلَقُوا عِنَانَ الْفِتْنَةِ، فَهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي الْكِتَابِ، يَقُولُونَ عَلَىٰ اللهِ وَفِي اللهِ وَفِي كِتَابِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَيَتَكَلَّمُونَ بِالْمُتَشَابِهِ مِنَ الْكَلَامِ، وَيَخْدَعُونَ جُهَّالَ النَّاسِ بِمَا يُشَبِّهُونَ عَلَيْهِمْ، فَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الْمُضِلِّينَ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَعِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُصْطَفَىٰ وَنَبِيُّهُ الْمُجْتَبَىٰ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ:

إِلَىٰ الدُّعَاةِ وَطَلَبَةِ العِلْمِ وَكُلِّ مُسْلِمٍ سُنِّيٍّ فِي هَذَا الزَّمَانِ:

يَقُولُ الحَقُّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر: ١-٣].

وَيَقُولُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [سورة الذاريات: ٥٥].

وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَنْبَغِي التَّوَاصِي بِهِ فِيمَا بَيْنَ طَلَبَةِ العِلْمِ هُوَ تِلْكَ المَسْؤُولِيَّةُ التِي تَحَمَّلْنَاهَا عَلَىٰ كَوَاهِلِنَا وَنَصَبْنَا أَنْفُسَنَا لَهَا، أَلَا وَهِيَ مَسْؤُولِيَّةُ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ الذِي شَرَّفَنَا اللهُ بِحَمْلِهِ وَسَيَسْأَلُنَا عَنْ أَدَائِهِ.

وَمِنْ هُنَا أَحْبَبْتُ أَنْ أُذَكِّرَ نَفْسِي وَإِخْوَانِي بِعِظَمِ هَذِهِ المَسْؤُولِيَّةِ وَوَاجِبِنَا اتِّجَاهَ هَذَا العِلْمِ الذِي نَنْتَسِبُ إِلَيْهِ.

وَإِنَّ عَلَىٰ طَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَتَذَكَّرَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ بِأَنْ هَدَاهُ لِلْإِسْلَامِ أَوَّلاً، وَلِلسُّنَّةِ ثَانِيًا، وَأَنْ جَعَلَهُ مِنْ حَمَلَةِ العِلْمِ وَالدُّعَاةِ إِلَيْهِ ثَالِثًا، فَتِلْكَ نِعْمَةٌ مَنَّ اللهُ بِهَا عَلَىٰ نَبِيِّهِ -ﷺ- مِنْ قَبْلِنَا.

فَقَدْ قَالَ -ﷻ-: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [سورة النساء:١١٣].

وَقَالَ -ﷻ-: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سورة المجادلة:١١].

فَهَذِهِ الرِّفْعَةُ التِي وَعَدَ اللهُ بِهَا أَهْلَ الإِيمَانِ وَالعِلْمِ، مِنْهَا مَا هُوَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي الآخِرَةِ، فَطَالِبُ العِلْمِ لَهُ بَيْنَ النَّاسِ مَنْزِلَةٌ وَمَكَانَةٌ وَاحْتِرَامٌ وَتَقْدِيرٌ، وَهُوَ أَمْرٌ مَلْمُوسٌ مُشَاهَدٌ.

فَالعِلْمُ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَا لَا يَرْفَعُهُ المُلْكُ وَلَا المَالُ وَلَا غَيْرُهُمَا، فَالعِلْمُ يَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفًا، وَيَرْفَعُ العَبْدَ المَمْلُوكَ حَتَّىٰ يُجْلِسَهُ مَجَالِسَ المُلُوكِ؛

كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الحَارِثِ أَتَىٰ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ -رضي الله عنه- بِعُسْفَانَ، وَقَدِ اسْتَعْمَلَهُ عَلَىٰ أَهْلِ مَكَّةَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ -رضي الله عنه-: مَنِ اسْتَخْلَفْتَ عَلَىٰ أَهْلِ الوَادِي؟ قَالَ: اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْهِمُ ابْنَ أَبْزَىٰ، فَقَالَ: مَنِ ابْنُ أَبْزَىٰ؟

فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ مَوَالِينَا، فَقَالَ عُمَرُ: اسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًىٰ.

فَقَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عَالِمٌ بِالفَرَائِضِ، فَقَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ -ﷺ- قَدْ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**».

وَقَالَ أَبُو العَالِيَةِ: «كُنْتُ آتِي ابْنَ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- وَهُوَ عَلَىٰ سَرِيرِهِ وَحَوْلَهُ قُرَيْشٌ، فَيَأْخُذُ بِيَدِي فَيُجْلِسُنِي مَعَهُ عَلَىٰ السَّرِيرِ، فَتَغَامَزُ بِي قُرَيْشٌ، فَفَطِنَ لَهُمُ ابْنُ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: كَذَا هَذَا العِلْمُ يَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفًا وَيُجْلِسُ المَمْلُوكَ عَلَىٰ الأَسِرَّةِ».

وَاعْلَمْ بِأَنَّ أَهْلَ العِلْمِ هُمْ أَهْلُ الخَشْيَةِ كَمَا شَهِدَ اللهُ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة فاطر:٢٨].

وَقَالَ -ﷻ-: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [سورة آل عمران:١٨].

وَقَالَ -ﷻ-: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [سورة طه:١١٤]، «وَكَفَىٰ بِهَذَا شَرَفًا لِلْعِلْمِ أَنْ أَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ

يَسْأَلَهُ المَزِيدَ مِنْهُ».

وَأَهْلُ العِلْمِ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ كَمَا قَالَ -ﷺ-: «**العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**».

فَاللهُ -ﷻ- جَعَلَ العُلَمَاءَ وُكَلَاءَ وَأُمَنَاءَ عَلَىٰ دِينِهِ وَوَحْيِهِ وَارْتَضَاهُمْ لِحِفْظِهِ وَالقِيَامِ بِهِ وَالذَّبِّ عَنْهُ، وَنَاهِيكَ بِهَا مَنْزِلَةً شَرِيفَةً وَمَنْقَبَةً عَظِيمَةً.

ثُمَّ إِنَّ طَلَبَ العِلْمِ هُوَ مَصْدَرُ الخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، قَالَ -ﷺ-: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**».

وَقَالَ -ﷺ-: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ بِهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَىٰ الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّىٰ الحِيتَانُ فِي جَوْفِ المَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَىٰ العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَىٰ سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَماً وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافٍ**».

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ -رحمه الله-: «أَرْفَعُ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً مَنْ كَانَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ وَهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالعُلَمَاءُ».

لِذَلِكَ فَاعْلَمْ يَا أَخِي أَنَّ هَذَا العِلْمَ أَوْلَىٰ مَا يَتَنَافَسُ فِيهِ المُتَسَابِقُونَ، وَأَحْرَىٰ مَا يَتَسَابَقُ فِي حَلْبَتِهِ المُتَسَابِقُونَ: العِلْمُ الشَّرْعِيُّ، فَهُوَ الكَفِيلُ الضَّامِنُ بِالسَّعَادَةِ البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، وَالدَّلِيلُ الآمِنُ إِلَىٰ خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَأَدَلُّ شَيْءٍ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ أَنَّ اللهَ -ﷻ- قَدِ اخْتَصَّ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ أَحَبَّ، فَهَدَاهُمْ لِلْإِيمَانِ، ثُمَّ اخْتَصَّ مِنْ سَائِرِ المُؤْمِنِينَ مَنْ أَحَبَّ؛ فَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ فَعَلَّمَهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ، وَفَقَّهَهُمْ فِي الدِّينِ، وَعَلَّمَهُمُ التَّأْوِيلَ وَفَضَّلَهُمْ عَلَىٰ سَائِرِ المُؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَأَوَانٍ؛ رَفَعَهُمْ بِالعِلْمِ، وَزَيَّنَهُمْ بِالحِلْمِ، بِهِمْ يُعْرَفُ الحَلَالُ مِنَ الحَرَامِ، وَالحَقُّ مِنَ البَاطِلِ، وَالضَّارُّ مِنَ النَّافِعِ، وَالحَسَنُ مِنَ القَبِيحِ.

إِنَّهُ العِلْمُ النَّافِعُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ اللَّذَانِ لَا سَعَادَةَ لِلْعَبْدِ إِلَّا بِهِمَا، وَلَا نَجَاةَ لَهُ إِلَّا بِسَبَبِهِمَا، فَمَنْ رُزِقَهُمَا فَقَدْ فَازَ وَغَنِمَ، وَمَنْ حُرِمَهَا فَقَدْ خَسِرَ وَغَرِمَ، وَهُمَا مَوْرِدُ انْقِسَامِ العِبَادِ إِلَىٰ مَرْحُومٍ وَمَحْرُومٍ، وَبِهِمَا يَتَمَيَّزُ البَرُّ مِنَ الفَاجِرِ، وَالتَّقِيُّ مِنَ الغَوِيِّ، وَالمُؤْمِنُ مِنَ المُنَافِقِ، وَالظَّالِمُ مِنَ

المَظْلُوم، وَهَاكَ حَقًّا: «**خَصْلَتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي مُنَافِقٍ: حُسْنُ سَمْتٍ، وَلَا فِقْهٌ فِي الدِّينِ**».

نَاهِيكَ؛ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مَا قَامَتَا إِلَّا بِالعِلْمِ، بَلْ مَا بُعِثَتِ الرُّسُلُ، وَمَا أُنْزِلَتِ الكُتُبُ، وَمَا فُضِّلَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ غَيْرِهِ إِلَّا بِهِ.

فَشَمِّرْ يَا طَالِبَ العِلْمِ، سَائِلاً اللهَ تَعَالَىٰ: الإِرَادَةَ الصَّادِقَةَ، وَالعِلْمَ النَّافِعَ، وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالعِلْمِ وَالإِيمَانِ، فَإِنَّهُ لَا يُسْتَطَاعُ العِلْمُ بِرَاحَةِ الجَسَدِ، وَلَا يُطْلَبُ بِالتَّمَنِّي وَالتَّحَلِّي.

وَمِنْ مُسْتَجَادِ مَا قِيلَ فِي فَضْلِ أَهْلِ العِلْمِ، **مَا خَطَّتْهُ يَدُ الآجُرِّيِّ** -رحمه الله-؛ **فِي كِتَابِهِ «أَخْلَاقِ العُلَمَاءِ»، إِذْ يَقُولُ عَنْهُمْ:** «فَضْلُهُمْ عَظِيمٌ، وَخَطَرُهُمْ جَزِيلٌ، وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَقُرَّةُ عَيْنِ الأَوْلِيَاءِ، الحِيتَانُ فِي البِحَارِ لَهُمْ تَسْتَغْفِرُ، وَالمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا لَهُمْ تَخْضَعُ، وَالعُلَمَاءُ فِي القِيَامَةِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ تَشْفَعُ، مَجَالِسُهُمْ تُفِيدُ الحِكْمَةَ، وَبِأَعْمَالِهِمْ يَنْزَجِرُ أَهْلُ الغَفْلَةِ.

هُمْ أَفْضَلُ مِنَ العِبَادِ، وَأَعْلَىٰ دَرَجَةً مِنَ الزُّهَّادِ، حَيَاتُهُمْ غَنِيمَةٌ، وَمَوْتُهُمْ مُصِيبَةٌ، يُذَكِّرُونَ الغَافِلَ، وَيُعَلِّمُونَ الجَاهِلَ، لَا يُتَوَقَّعُ لَهُمْ بَائِقَةٌ، وَلَا يُخَافُ مِنْهُمْ غَائِلَةٌ، بِحُسْنِ تَأْدِيبِهِمْ يَتَنَازَعُ المُطِيعُونَ، وَبِجَمِيلِ مَوْعِظَتِهِمْ يَرْجِعُ المُقَصِّرُونَ...! فَهُمْ سِرَاجُ العِبَادِ، وَمَنَارُ البِلَادِ، وَقِوَامُ الأُمَّةِ، وَيَنَابِيعُ الحِكْمَةِ، هُمْ غَيْظُ الشَّيْطَانِ، بِهِمْ تَحْيَا قُلُوبُ أَهْلِ الحَقِّ، وَتَمُوتُ قُلُوبُ أَهْلِ الزَّيْغِ، مَثَلُهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَثَلِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، يُهْتَدَىٰ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ، إِذَا انْطَمَسَتِ النُّجُومُ تَحَيَّرُوا، وَإِذَا أَسْفَرَ عَنْهَا الظَّلَامُ أَبْصَرُوا» انْتَهَىٰ.

فَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَكَ يَا طَالِبَ العِلْمِ مَخْرَجًا، فَكُنْ رَابِعَ أَرْبَعَةٍ: عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا، أَوْ مُسْتَمِعًا، أَوْ مُحِبًّا.

وَأُعِيذُكَ بِاللهِ أَنْ تَكُونَ الخَامِسَ فَتَهْلَكَ: وَهُوَ مُعَادَاةُ أَهْلِ العِلْمِ، أَوْ بُغْضُهُمْ! كَمَا قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: اطْلُبُوا العِلْمَ، فَانْ عَجَزْتُمْ فَاحِبُّوا أَهْلَهُ، فَانْ لَمْ تُحِبُّوهُمْ فَلَا تُبْغِضُوهُمْ!

وَيُرْوَىٰ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَالَ لِكُمَيْلِ بْنِ زِيَادٍ النَّخَعِيِّ: يَا كُمَيْلُ إِنَّ هَذِهِ القُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا لِلْخَيْرِ، وَالنَّاسُ ثَلَاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَىٰ سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ العِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَىٰ رُكْنٍ وَثِيقٍ.

ثُمَّ قَالَ: أُفٍّ لِحَامِلِ حَقٍّ لَا بَصِيرَةَ لَهُ يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ بِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ لَا يَدْرِي

أَيْنَ الحَقُّ؟ إِنْ قَالَ أَخْطَأَ، وَإِنْ أَخْطَأَ لَمْ يَدْرِ، مَشْغُوفٌ بِمَا لَا يَدْرِي حَقِيقَتَهُ، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنْ فُتِنَ بِهِ. وَإِنَّ مِنَ الخَيْرِ كُلِّهِ مَنْ عَرَّفَهُ اللهُ دِينَهُ وَكَفَىٰ بِالمَرْءِ جَهْلاً أَنْ لَا يَعْرِفَ دِينَهُ.

فَأَرْجُو أَنْ نَكُونَ سَبَبًا فِي رَبْطِ هَذَا الجِيلِ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ وَتُرَاثِ السَّلَفِ طَلَبًا وَقِرَاءَةً وَفِقْهًا وَتَخَلُّقًا، وَتَشْجِيعُهُمْ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ الفِقْهُ فِي الدِّينِ جُزْءاً مِنْ يَوْمِهِمْ، وَأَنْ يَكُونَ كِتَابُ اللهِ وَبَيَانُهُ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِهِ وَهَدْيِ الصَّحَابَةِ هُوَ مَا يَعْتَصِمُونَ بِهِ وَيَتَفَقَّهُونَ عَلَيْهِ وَيَهْتَدُونَ بِهِ وَيَمْشُونَ بِهِ فِي النَّاسِ، وَهُوَ العَيْنُ التِي يُبْصِرُونَ بِهَا، وَهُوَ المِيزَانُ الذِي يَزِنُونَ بِهِ كُلَّ مَقَالَةٍ، وَيَدْعُونَ المُسْلِمِينَ إِلَيْهِ وَيَغْرِسُونَهُ فِي نُفُوسِ أَبْنَائِهِمْ.

فَتَأْسِيسُ أَبْنَاءِ الجِيلِ عَلَىٰ مُحْكَمَاتِ الإِسْلَامِ وَرَبْطُهُمْ بِمَصْدَرِ الهُدَىٰ هُوَ أَعْظَمُ مَا نُقَدِّمُهُ لَهُمْ، وَهُوَ خَيْرُ الزَّادِ.

فَبِذَلِكَ يَثْبُتُونَ عَلَىٰ السُّنَّةِ وَيَنْفِرُونَ مِنَ البِدَعِ وَالمُحْدَثَاتِ وَيَعْتَزُّونَ بِالسُّنَّةِ وَيَنْصُرُونَهَا وَيَنْشُرُونَهَا،

وَهُوَ اليَقِينُ الذِي يُذْهِبُ الشَّكَّ، وَالمُحْكَمَاتُ التِي تَكْشِفُ الشُّبُهَاتِ، وَالتَّقْوَىٰ التِي تَدْفَعُ الشَّهَوَاتِ.

وَأَرْجُو أَنْ نُؤَدِّيَ وَاجِبَ الدَّلَالَةِ وَالبَيَانِ وَالتَّقْرِيبِ كَمَا أَدَّاهُ مَنْ قَبْلَنَا إِلَيْنَا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَلَا تَغْفَلْ عَمَّا أَشَارَ لَهُ الإِمَامُ الأَوْزَاعِيُّ:

فَإِنَّهُ قَالَ -رحمه الله-: مَا مِنْ مُسْلِمٍ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ ثُغْرَةٍ مِنْ ثُغَرِ الإِسْلَامِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَلَّا يُؤْتَىٰ الإِسْلَامُ مِنْ ثُغْرَتِهِ؛ فَلْيَفْعَلْ. [(١)]

❁❁❁

(١) «السُّنَّةِ لِلْمَرْوَزِيِّ (٢٩)».

كلمة افتتاحية مقتبسة في أهمية العقيدة:

العَالَمُ اليَوْمَ يَعُجُّ بِعَقَائِدَ شَتَّىٰ، بَلْ هُوَ كَبَحْرٍ هَائِجٍ مِنَ العَقَائِدِ وَالفَلْسَفَاتِ؛ آلَافٌ مِنَ الأَدْيَانِ وَالمِلَلِ، وَتَحْتَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِئَاتٌ مِنَ الفِرَقِ وَالمَذَاهِبِ، زَبَدٌ طَاغٍ وَظَلَامٌ كَثِيفٌ، لَكِنْ يَسْطَعُ مِنْ بَيْنِ كُلِّ هَذَا نُورٌ مُبِينٌ، عَقِيدَةٌ وَاحِدَةٌ، وَاحِدَةٌ فَحَسْبُ، هِيَ النَّاصِعَةُ المُتَلَأْلِئَةُ؛ تُنَادِي فِي النَّاسِ أَجْمَعِينَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ، هَلُمُّوا إِلَىٰ الحَقِّ الوَاضِحِ، إِلَىٰ سَبِيلِ الهِدَايَةِ، وَاحْذَرُوا السَّرَابَ الكَاذِبَ، رِدُوا المَنْهَلَ الصَّافِي وَدَعُوا الكَدَرَ، إِنَّهَا عَقِيدَةُ الإِسْلَامِ الصَّافِيَةُ مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، إِنَّهَا عَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ السَّنِيَّةُ النَّقِيَّةُ، إِنَّهَا مَا جَاءَ بِهِ المُبَشِّرُ النَّذِيرُ، السِّرَاجُ المُنِيرُ؛ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، إِنَّهَا العَقِيدَةُ العَظِيمَةُ فِي مَضْمُونِهَا وَالعَظِيمَةُ فِي آثَارِهَا، فَلَا عَقِيدَةَ مُؤَيَّدَةً بِالبَرَاهِينِ القَاطِعَةِ سِوَاهَا، وَلَا عَقِيدَةَ تَوَافَقَ فِيهَا الوَحْيُ وَالعَقْلُ عَدَاهَا، وَلَا عَقِيدَةً وَاضِحَةً مُقْنِعَةً تُسْعِدُ مُعْتَنِقَهَا حَالاً وَمَآلاً غَيْرَهَا، إِنَّهَا رُوحُ الرُّوحِ وَغِنَاءُ القَلْبِ وَسَعَادَةُ النَّفْسِ، هِيَ الغِذَاءُ وَالدَّوَاءُ وَالشِّفَاءُ، إِنَّهَا مِفْتَاحُ بَابِ النَّجَاحِ فِي العَاجِلِ وَالفَلَاحِ فِي الآجِلِ.

مَدَارُ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ وَخُلَاصَتُهَا: أَنْ يُوَحَّدَ اللهُ فَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ؛ لَا فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَلَا فِي عِبَادَتِهِ، وَلَا فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

خُلَاصَتُهَا: أَنْ يُسْلِمَ العَبْدُ لِرَبِّ العَالَمِينَ، وَأَنْ يَكُونَ سُبْحَانَهُ مُنْتَهَىٰ قَصْدِهِ وَغَايَةَ مُرَادِهِ، أَنْ يَكُونَ أَكْبَرَ عِنْدَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ فِي الحُبِّ وَالرَّجَاءِ، وَالخَوْفِ وَالتَّوَكُّلِ، أَنْ يَسْلَمَ القَلْبُ وَالبَدَنُ مِنْ ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ وَدَنَسِهِ كَبِيرِهِ وَصَغِيرِهِ، أَنْ يُؤْمِنَ بِالغَيْبِ وَيُسَلِّمَ لِلْأَمْرِ، وَيَنْصَاعَ وَلَا يُعَارِضَ، أَنْ يُصَدِّقَ بِالاتِّبَاعِ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ، وَأَنْ يَضَعَ تَحْتَ القَدَمِ كُلَّ قَوْلٍ وَرَائِهِ، وَمَذْهَبٍ وَنِظَامٍ يُخَالِفُ شَرْعَهُ، وَأَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّهُ الرَّسُولُ الحَقُّ لِجَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ مُنْذُ بَعْثَتِهِ وَإِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَأَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جَاءَ بِهِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

العَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِالمَلَائِكَةِ الكِرَامِ، وَالكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ، وَالرُّسُلِ العِظَامِ، أَنْ تُؤْمِنَ بِالمَعَادِ وَالحِسَابِ وَالجَزَاءِ؛ بِالبَرْزَخِ، وَعَرَصَاتِ القِيَامَةِ، وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ، أَنْ تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ؛ بِعِلْمِ اللهِ، وَبِكِتَابَتِهِ، وَبِمَشِيئَتِهِ وَخَلْقِهِ، وَأَنَّ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الأَعْيَانِ وَالأَفْعَالِ، وَأَنَّهُ يَهْدِي سُبْحَانَهُ مَنْ يَشَاءُ نِعْمَةً مِنْهُ وَفَضْلاً، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ حِكْمَةً مِنْهُ

وَعَدْلاً، وَأَنَّ لَهُ الحِكْمَةَ البَالِغَةَ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ وَيَخْلُقُ وَيَفْعَلُ سُبْحَانَهُ.

العَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ: أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّ اللهَ عَالٍ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ بِذَاتِهِ، عَلَىٰ العَرْشِ اسْتَوَىٰ، وَعَلَىٰ المُلْكِ احْتَوَىٰ، وَأَنْ تُؤْمِنَ بِجَمِيعِ صِفَاتِهِ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِهِ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الشورى: ١١]؛ يُحِبُّ وَيُبْغِضُ، يَرْضَىٰ وَيَسْخَطُ، وَأَنَّ لَهُ وَجْهًا مَوْصُوفًا بِالجَلَالِ وَالإِكْرَامِ، وَيَدَيْنِ مَبْسُوطَتَيْنِ بِالعَطَاءِ.

العَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ: أَنْ تُوَحِّدَ المَعْبُودَ سُبْحَانَهُ، وَتُوَحِّدَ المَتْبُوعَ فِي الاتِّبَاعِ؛ فَلَا بِدَعَ وَلَا خُرَافَاتِ، وَلَا فِرَقَ وَلَا أَحْزَابَ، وَلَا طَرِيقَةَ خَلْفِيَّةً، وَلَا خِرْقَةَ مُحْدَثَةً، وَلَا بَيْعَةً بِدْعِيَّةً.

العَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ: أَنْ تُحِبَّ الصَّحْبَ وَالآلَ، وَتُوَالِيَهُمْ بِلَا غُلُوٍّ وَلَا جَفَاءٍ، أَلَّا تَكُونَ عَذَابًا عَلَىٰ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ، فَلَا تَسُلَّ سَيْفَكَ عَلَىٰ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ، بَلْ تَلْزَمَ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ.

العَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ: أَنْ تُعَظِّمَ الوَحْيَ وَتَنْقَادَ لَهُ، أَنْ تَسْتَجِيبَ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ، وَأَنْ تُحَكِّمَ الشَّرِيعَةَ فِي الصَّغِيرِ وَالكَبِيرِ، وَتُسْلِمَ تَسْلِيمًا، أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّ العَقْلَ تَابِعٌ وَالوَحْيَ مَتْبُوعٌ، وَأَنَّ الشَّرْعَ حَاكِمٌ وَالعُرْفَ مَحْكُومٌ.

العَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ: هِيَ عَقِيدَةُ السَّلَفِ الصَّالِحِ، هِيَ عَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، هَذِهِ هِيَ العَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ؛ الخَيْرُ وَالهُدَىٰ وَالنُّورُ.

هَذِهِ العَقِيدَةُ أَهَمُّ المُهِمَّاتِ، وَأَوَّلُ الأَوَّلِيَّاتِ، وَأَوْجَبُ الوَاجِبَاتِ، إِنَّهَا الحِكْمَةُ مِنَ الوُجُودِ، وَأَعْظَمُ مَأْمُورٍ، إِنَّهَا أَصْلُ الدِّينِ وَأَسَاسُهُ، وَلُبُّهُ، وَأَعْظَمُهُ، إِنَّ العَقِيدَةَ وَلُبَّهَا التَّوْحِيدَ أَوَّلُ مَا دَعَا إِلَيْهِ الأَنْبِيَاءُ -عليهم السلام- وَأَكْثَرُ مَا بَيَّنُوهُ، بَلْ لَيْسَ فِي دَعْوَتِهِمْ وَلَا فِيمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ أَعْظَمُ مِنْهَا، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة النحل: ٣٦]، وَإِصْلَاحُ الاعْتِقَادِ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ إِصْلَاحِ العَمَلِ؛ العَقِيدَةُ أَسَاسُ سَلَامِ القَلْبِ وَزَكَاءِ النَّفْسِ وَانْشِرَاحِ الصَّدْرِ، بِهَا يَصِحُّ العَمَلُ وَيَثْبُتُ الأَجْرُ وَيَتَضَاعَفُ الثَّوَابُ، وَكُلُّ دَلِيلٍ دَلَّ عَلَىٰ فَضْلِ الإِيمَانِ فَالعَقِيدَةُ أَوَّلُ مَا يَنْدَرِجُ تَحْتَهُ، إِنْ وَفَّقَ اللهُ العَبْدَ إِلَيْهَا سَلِمَ مِنْ مُضِلَّاتِ الفِتَنِ وَلَمْ يَتَخَبَّطْ فِي ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ وَالبِدَعِ، وَتَحَقَّقَتْ لَهُ النَّجَاةُ فِي المَعَادِ وَالأَمْنُ يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ.

أَيُّهَا الفُضَلَاءُ: إِنَّ الإِحَاطَةَ بِآثَارِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ وَثَمَرَاتِهَا اليَانِعَةِ عَلَىٰ الفَرْدِ وَالمُجْتَمَعِ شَيْءٌ مُتَعَذِّرٌ، إِذْ كُلُّ خَيْرٍ دِينِيٍّ أَوْ دُنْيَوِيٍّ أَوْ أُخْرَوِيٍّ فَهُوَ مِنْ آثَارِ صَلَاحِ العَقِيدَةِ وَاسْتِقَامَتِهَا،

وَحَسْبِي فِي مَقَامِي هَذَا أَنْ أَقْطِفَ مِنَ البُسْتَانِ زَهَرَاتٍ، وَأَنْ أُصِيبَ مِنَ البَحْرِ قَطَرَاتٍ.

أَهَمُّ آثَارِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ عَلَىٰ العَبْدِ: أَنْ يَعْرِفَ رَبَّهُ؛ وَمَنْ هُوَ رَبُّهُ؟

إِنَّهُ العَظِيمُ الذِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِكَ أَكْبَرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَحَبَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَخْوَفَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَرْجَىٰ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِنَّهُ المُتَفَرِّدُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، المُتَوَحِّدُ فِي إِلَهِيَّتِهِ، شَهِدَتْ بِوَحْدَانِيَّتِهِ المَخْلُوقَاتُ، وَخَشَعَتْ لِعَظَمَتِهِ الكَائِنَاتُ، وَافْتَقَرَتْ إِلَيْهِ جَمِيعُ البَرِيَّاتِ، إِنَّهُ الذِي إِذَا عَرَفْتَهُ عَرَفْتَ كُلَّ شَيْءٍ، وَإِذَا جَهِلْتَهُ جَهِلْتَ كُلَّ شَيْءٍ، إِنَّهُ الذِي إِذَا عَرَفْتَهُ وَعَبَدْتَهُ فُزْتَ بِالسَّعَادَةِ التَّامَّةِ وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ، فَهِمْتَ الغَايَةَ مِنْ وُجُودِكَ وَصَارَ لِحَيَاتِكَ قِيمَةٌ، فَاللهُ مَا خَلَقَكَ لِشَيْءٍ قَطُّ إِلَّا لِتَعْرِفَهُ، ثُمَّ أَنْ تَقُومَ بِمُقْتَضَىٰ هَذِهِ المَعْرِفَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، هَذِهِ هِيَ القَضِيَّةُ الأَهَمُّ وَالأَكْبَرُ فِي حَيَاتِكَ، وَكُلَّمَا رَسَخْتَ فِي العَقِيدَةِ كُلَّمَا كُنْتَ بِهَا أَقْوَىٰ، مِنْ آثَارِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ: أَنْ يَكُونَ قَلْبُكَ سَلِيمًا، وَالقَلْبُ السَّلِيمُ هُوَ الذِي سَلِمَ مِنْ كُلِّ مَا يُبْعِدُهُ عَنِ اللهِ، فَأَسْلَمَ لِلَّهِ وَسَلِمَ وَسَلَّمَ، انْجَذَبَتْ رُوحُهُ إِلَىٰ إِلَهِهِ مَحَبَّةً وَخَوْفًا، وَدُعَاءً وَإِخْلَاصًا، وَإِجْلَالاً وَتَعْظِيمًا، فَلَا يَرْجُو سِوَاهُ وَلَا يَخْشَىٰ إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا يُنِيبُ إِلَّا إِلَيْهِ وَلَا يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، إِذْ لَيْسَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ لِغَيْرِهِ، وَلَا إِرَادَةَ لِمَا حَرَّمَ وَلَا كَرَاهَةَ لِمَا أَمَرَ، فَيَكُونُ مُتَحَقِّقًا بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة النجم: ٤٢]؛ هَذَا هُوَ الذِي يَنْجُو يَوْمَ القِيَامَةِ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة الشعراء: ٨٨-٨٩].

مِنْ آثَارِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ: بُلُوغُ دَرَجَةِ البَصِيرَةِ، وَمَنْ بَلَغَهَا فَهَنِيئًا لَهُ، فَمَا أُوتِيَ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْ بَصِيرَةٍ فِي دِينِهِ وَلَوْ قَصَّرَ فِي العَمَلِ، وَتَفَاوُتُ النَّاسِ فِي الفَضْلِ إِنَّمَا هُوَ بِحَسَبِ تَفَاوُتِهِمْ فِيهَا.

صَاحِبُ البَصِيرَةِ الأُمُورُ عِنْدَهُ وَاضِحَةٌ مَكْشُوفَةٌ، عِنْدَهُ فُرْقَانٌ يُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ، وَهُدًىٰ يَتَبَصَّرُ بِهِ مِنَ العَمَىٰ وَالجَهَالَةِ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [سورة الحديد: ٢٨].

صَاحِبُ الاعْتِقَادِ الصَّحِيحِ يَعْرِفُ وَاقِعَهُ وَمَا حَوْلَهُ، وَيُدْرِكُ مَا يَضُرُّهُ وَمَا يَنْفَعُهُ، الحَقُّ وَاضِحٌ لَهُ بِإِشْرَاقِهِ وَنُورِهِ، وَالبَاطِلُ مُظْلِمٌ كَاللَّيْلِ البَهِيمِ.

صَاحِبُ الاعْتِقَادِ الصَّحِيحِ: تَصَوُّرَاتُهُ تَصَوُّرَاتٌ صَحِيحَةٌ لِلْمَبْدَأِ وَالمَعَادِ، لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِلْآخِرَةِ، لِلدِّينِ، لِلْكَوْنِ، لِلنَّاسِ، لِلْعَدُوِّ، لِلصَّدِيقِ، وَلَا غَرْوَ فَقَدْ حَصَلَ الجَوَابُ الكَافِي الشَّافِعِي

لِكُلِّ سُؤَالٍ مُحَيِّرٍ، وَأَشْبَعَ عَقْلَهُ وَرُوحَهُ بِالحَقِّ المَحْضِ، فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ، وَعَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وَعَلَىٰ هُدًىٰ مِنْ رَبِّهِ.

فَشَتَّانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَيْرَانَ تَائِهٍ مُضْطَرِبٍ، أَوْ مَنْ إِيمَانُهُ مَرْبِيٌّ وَإِلْفٌ، وَدِينُهُ دِينُ عَادَةٍ وَمَنْشَأٍ مَا خَالَطَتْ بَشَاشَةُ الإِيمَانِ قَلْبَهُ، فَهُوَ تَحْتَ خَطَرِ الشُّبُهَاتِ وَالعَوَارِضِ الكَثِيرَةِ، فَلَوِ ابْتُلِيَ بِمَنْ يُشَكِّكُهُ لَشَكَّ، وَلَوْ زُيِّنَ لَهُ الانْتِقَالُ عَنْ دِينِهِ لَانْتَقَلَ، فَمَنْ كَانَ إِيمَانُهُ عَلَىٰ هَذِهِ الشَّاكِلَةِ فَإِنَّهُ عَلَىٰ خَطَرٍ عَظِيمٍ.

ذُو الاعْتِقَادِ الصَّحِيحِ الرَّاسِخِ هُوَ الذِي يَثْبُتُ بِتَثْبِيتِ اللهِ، إِذَا هَبَّتْ عَوَاصِفُ فِتَنِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ فَقَدِ اسْتَقَرَّتْ قَدَمُهُ فِي الدِّينِ الحَقِّ وَخَالَطَ الإِيمَانُ لَحْمَهُ وَدَمَهُ، فَقَدْ شَهِدَ بِقَلْبِهِ وَعَقْلِهِ حُسْنَ هَذَا الدِّينِ وَجَلَالَهُ وَكَمَالَهُ، فَلَوْ خُيِّرَ بَيْنَ أَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ وَبَيْنَ أَنْ يَخْتَارَ دِينًا غَيْرَهُ لَاخْتَارَ أَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ، وَلَا يَخْتَارَ دِينًا غَيْرَهُ.

لَقَدْ جَرَّبَ النَّاسُ عَقَائِدَ شَتَّىٰ مُسْتَمَدَّةً مِنْ فَلْسَفَاتٍ غَرْبِيَّةٍ أَوْ شَرْقِيَّةٍ قَدِيمَةٍ أَوْ حَدِيثَةٍ، فَمَا شَفَتْ لَهُمْ عَلِيلًا، وَلَا أَرْوَتْ لَهُمْ غَلِيلًا، وَلَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ فَتِيلًا، إِنَّهَا لَمْ تَمْلَأْ لِمَنْ يَمَّمَ شَطْرَهَا فَرَاغَ قَلْبِهِ، وَلَا أَزَالَتْ وَجَعَ صَدْرِهِ، وَلَا أَوْصَلَتْهُ إِلَىٰ بَرِّ الأَمَانِ، وَأَنَّىٰ يَصِلُ وَهُوَ يَلْهَثُ خَلْفَ سَرَابٍ وَيَسِيرُ فِي تِيهٍ إِلَىٰ مَجْهُولٍ، ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [سورة الأنعام: ٧١].

مِنْ آثَارِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ: تَحْقِيقُ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ الحَيِّ الذِي لَا يَمُوتُ، وَصِدْقُ اللَّجَأِ إِلَيْهِ وَالتَّفْوِيضِ لَهُ فَيَنَالُ بِهِ العَبْدُ الرَّاحَةَ وَالطُّمَأْنِينَةَ، صَاحِبُ الاعْتِقَادِ الصَّحِيحِ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ؛ لَا جِنًّا وَلَا سَحَرَةً وَلَا مُشَعْوِذِينَ وَلَا مَجَاذِيبَ، لَا يَحْمِلُ هَمًّا لِرِزْقٍ، وَلَا يَهَابُ جَبَرُوتَ ظَالِمٍ، ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٧٥].

صَاحِبُ المُعْتَقَدِ الصَّحِيحِ يُوقِنُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَأَنَّ النَّاسَ مَهْمَا كَانُوا لَا يَنْفَعُونَ وَلَا يَضُرُّونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي، بِخِلَافِ مَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ وَأَنَاطَ تَوَكُّلَهُ بِمَنْ لَا يَمْلِكُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ، فَإِنَّهُ لَا لِعُبُودِيَّةِ رَبِّهِ حَقَّقَ وَلَا لِمَا طَمَحَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ وَصَلَ، فَهُوَ فِي عَذَابٍ مُعَجَّلٍ، وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ الخَوْفِ وَالحَزَنِ وَضِيقِ الصَّدْرِ، وَمَا

أَحْرَاهُ بِالخِذْلَانِ، وَمَا أَجْدَرَهُ بِنَصِيبٍ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة مريم: ٨١-٨٢].

مِنْ آثَارِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ: نَيْلُ العَبْدِ الحُرِّيَّةَ الحَقِيقِيَّةَ، فَإِنَّهُ بِهَا يُخْلِصُ عُبُودِيَّتَهُ لِرَبِّهِ فَيَتَحَرَّرُ مِنَ العُبُودِيَّةِ الزَّائِفَةِ؛ عُبُودِيَّةِ الهَوَىٰ وَالشَّيْطَانِ، وَمِنْ رِقِّ الخُرَافَةِ؛ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِقَبْرٍ أَوْ حَجَرٍ، أَوْ خَيْطٍ أَوْ تَمِيمَةٍ، أَوْ بُرْجٍ أَوْ كَوْكَبٍ، أَوْ سِوَارٍ أَوْ طَاقَةٍ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدِّرْهَمِ، وَالقَطِيفَةِ، وَالخَمِيصَةِ**».

إِنَّمَا صَاحِبُ المُعْتَقَدِ الصَّحِيحِ عَبْدٌ لِلَّهِ لَا عَبْدٌ لِغَيْرِهِ، عَزِيزٌ بِرَبِّهِ، تَقُودُهُ مَحَبَّتُهُ وَتَعْظِيمُهُ، وَيَسُوقُهُ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

مِنْ آثَارِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ: أَنَّ المُسْتَمْسِكَ بِهَا قَرِيبٌ مِنَ الخَيْرِ بَعِيدٌ مِنَ الشَّرِّ، مُقْبِلٌ عَلَىٰ الحَسَنَاتِ مُدْبِرٌ عَنِ السَّيِّئَاتِ، قَدِ ارْتَقَىٰ إِلَىٰ المَحَلِّ اللَّائِقِ بِهِ، وَهَذَا ثَمَرَةُ تَوْحِيدِهِ وَإِخْلَاصِهِ، وَجَزَاءٌ لَهُ مُعَجَّلٌ، فَإِنَّ الوَازِعَ الأَخْلَاقِيَّ المُسْتَقِيمَ إِنَّمَا يَنْبَعُ مِنْ عَقِيدَةٍ إِيمَانِيَّةٍ، ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة يوسف: ٢٤]، إِنْ زَلَّتْ بِالمُوَحِّدِ الصَّادِقِ القَدَمُ بَادَرَ إِلَىٰ التَّوْبَةِ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [سورة الأعراف: ٢٠١].

عَقِيدَةُ السَّلَفِ الصَّالِحِ لَيست فَلْسَفَةً جَامِدَةً غَامِضَةً، تُقَسِّي القَلْبَ وَتُرْهِقُهُ، إِنَّمَا هِيَ تَوْحِيدٌ وَاتِّبَاعٌ، مُرَاقَبَةٌ لِلَّهِ وَحَذَرٌ مِنْ هَوَىٰ النَّفْسِ، ثَمَرَتُهَا رِقَّةُ القَلْبِ وَانْشِرَاحُهُ، ثَمَرَتُهَا أَعْمَالٌ حَسَنَةٌ وَأَخْلَاقٌ زَاكِيَةٌ، ثَمَرَتُهَا تَزَيُّنُ البَدَنِ وَاللِّسَانِ بِمَحَاسِنِ الآدَابِ وَلَطِيفِ القَوْلِ وَحُسْنِ التَّعَامُلِ؛ بَذْلٌ وَإِيثَارٌ، كَرَمٌ وَشَجَاعَةٌ، صِدْقٌ وَوَفَاءٌ، وَمَتَىٰ انْحَرَفَتِ العَقِيدَةُ عَنِ الجَادَّةِ فُقِدَ الأَثَرُ العَمَلِيُّ الحَسَنُ فِي السُّلُوكِ، وَصَدَقَ حِينَ قَالَ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»، وَدُونَكُمْ مُجْتَمَعَ العَقِيدَةِ المِثَالِيَّ، مُجْتَمَعَ المَدِينَةِ الفَاضِلَةِ، مُجْتَمَعَ الصَّحَابَةِ، كَيْفَ أَثْمَرَ صَلَاحُ عقيدتم مُجْتَمَعًا رَاقِيًا، لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلَهُ.

مِنْ آثَارِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ: أَنَّ صَاحِبَهَا يَكْتَسِبُ مِنْهَا القُوَّةَ عَلَىٰ الخَيْرِ، وَالجِدَّ وَالحَزْمَ، إِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ وَعَرَفَ نَفْسَهُ وَعَرَفَ غَايَةَ وُجُودِهِ وَمَا إِلَيْهِ مَآلُهُ، فَإِنَّ هَذَا سَيُثْمِرُ لَهُ جِدًّا فِي العَمَلِ،

وَاغْتِنَامًا لِلْوَقْتِ وَتَرْكًا لِلتَّكَاسُلِ، وَحِرْصًا عَلَىٰ مَا يَنْفَعُ، بِخِلَافِ حَالِ البَائِسِ التَّائِهِ الذِي غَفَلَ قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا، ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الملك: ٢٢]، فَلَا شَخْصِيَّةَ سَوِيَّةَ بِلَا عَقِيدَةٍ نَقِيَّةٍ، إِنَّ العَقِيدَةَ هِيَ البُوصَلَةُ الدَّقِيقَةُ لِضَبْطِ مَسَارِ الحَيَاةِ، بَلْ إِنَّهَا هِيَ مَنْهَجُ الحَيَاةِ.

هَذَا عَنْ بَعْضِ آثَارِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ عَلَىٰ الأَفْرَادِ، فَمَاذَا عَنِ المُجْتَمَعَاتِ؟

لَعَلَّ مِنْ نَافِلَةِ القَوْلِ التَّذْكِيرُ بِأَنَّهُ إِذَا صَلَحَ حَالُ الأَفْرَادِ صَلُحَ حَالُ المُجْتَمَعَاتِ، وَبِالعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ تَنْعَمُ حَيَاةُ المُجْتَمَعَاتِ فِي جَمِيعِ المَجَالَاتِ، إِنَّ العَقَائِدَ تَحُلُّ بِالمُجْتَمَعَاتِ مَحَلَّ القَلْبِ مِنَ الجَسَدِ، فَإِنَّ أَفْرَادَهَا إِنِ اعْتَقَدُوا عَقِيدَةً رَسَخَتْ فِي أَفْئِدَتِهِمْ، فَسَيُقَدِّمُونَ أَرْوَاحَهُمْ رَخِيصَةً فِي سَبِيلِ نُصْرَتِهَا وَإِعْلَاءِ شَأْنِهَا، العَقِيدَةُ هِيَ المُوَجِّهُ الذِي يُحَرِّكُ الإِنْسَانَ وَيُدِيرُ دَفَّةَ تَوَجُّهَاتِهِ، وَيَتَحَكَّمُ فِي سُلُوكِهِ، وَيُحَدِّدُ هُوِيَّتَهُ، الإِنْسَانُ كَمَا قِيلَ: يُسَاقُ مِنْ بَاطِنِهِ لَا مِنْ ظَاهِرِهِ، وَلِذَا؛ فَمَنْ أَرَادَ إِضْعَافَ مجتمع فَلَيْسَ عَلَيْهِ إلان أَنْ يُبَمِّمَ صَوْبَ عَقِيدَتِهِ فَيُحَرِّفَهَا، أَوْ يُهَوِّنَ مِنْ أَمْرِهَا وَيُضْعِفَ سُلْطَانَهَا؛ وَحِينَهَا سَيَسْهُلُ عَلَيْهِ التَّلَاعُبُ بِهِ وَتَسْيِيرُهُ وَتَشْكِيلُهُ؛ لِأَنَّهُ صَارَ مُجْتَمَعًا خَاوِيًا، عَقِيدَةٌ بَاهِتَةٌ تَعْنِي مُجْتَمَعًا هَزِيلًا، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَشَدَّ عَلَىٰ أُمَّةٍ مِنْ تَشْوِيهِ عَقِيدَتِهَا، فَهَذِهِ الأُمَّةُ قُوَّتُهَا فِي عَقِيدَتِهَا، فِي صَفَائِهَا وَفِي تَعْظِيمِهَا، وَفِي صِدْقِ التَّمَسُّكِ بِهَا.

مِنْ آثَارِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ عَلَىٰ المُجْتَمَعَاتِ قُوَّتُهَا وَنَهْضَتُهَا وَاسْتِقْلَالُهَا، فَإِنَّهَا لَا تَسْتَقِلُّ الأُمَمُ عَنِ التَّبَعِيَّةِ لِغَيْرِهَا أَوِ الذَّوَبَانِ فِيهَا إِلَّا بِإِعْتِصَامِهَا بِعَقِيدَتِهَا، فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ عَقِيدَةً صَحِيحَةً مُسْتَمَدَّةً مِنْ وَحْيٍ مَعْصُومٍ!!

وَلِذَا لَمَّا قَامَتْ دَوْلَةُ الإِسْلَامِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ وَعَهْدِ أَصْحَابِهِ عَلَىٰ أَسَاسٍ مِنَ الاعْتِقَادِ مَتِينٍ؛ تَحَرَّرَ العَرَبُ مِنَ التَّبَعِيَّةِ لِفَارِسَ وَالرُّومِ، وَصَارَ ذَا عِزَّةٍ وَكَرَامَةٍ، أَفْرَادُهُ عِبَادٌ صَالِحُونَ لَا يَخْشَوْنَ إِلَّا اللهَ، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٧٣].

مِنْ آثَارِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ عَلَىٰ المُجْتَمَعِ: تَحَقُّقُ الأَمْنِ، فَالأَمْنُ فِي الإِيمَانِ هُمَا أَمْرَانِ مُتَلَازِمَانِ؛ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الأنعام: ٨٢].

إِنَّهُ لَا ضَمَانَ لِحُصُولِ السَّلَامِ وَالرَّخَاءِ إِلَّا تَحْتَ ظِلَالِ العَقِيدَةِ الصَّالِحَةِ وَالشَّرِيعَةِ الصَّالِحَةِ،

وَإِذَا فُقِدَ هَذَا فُقِدَ هَذَا، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۖ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة غافر: ٢٢].

مِنْ آثَارِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ عَلَىٰ المُجْتَمَعِ: تَمَاسُكُهُ وَتَرَابُطُهُ وَتَوَحُّدُهُ وَاجْتِمَاعُ قُلُوبِ أَهْلِهِ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا رَسَخَتْ تِلْكَ العَقِيدَةُ فِي قُلُوبِهِمْ أَيْقَنُوا أَنَّهُمْ عَبِيدٌ لِلَّهِ، وَأَنَّ رِزْقَهُمْ بِيَدِهِ، وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِهِ، وَأَنَّ النَّفْعَ وَالضُّرَّ بِيَدِهِ، وَأَنَّهُ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ القُوَّةَ لَهُ، وَالعَوْنَ مِنْهُ، وَالحَوْلَ بِهِ، فَحِينَهَا لَنْ يَسُودَ بَيْنَهُمْ حِقْدٌ وَلَا كَرَاهِيَةٌ، وَلَا حَسَدٌ وَلَا عُنْصُرِيَّةٌ، إِنَّهُ لَا أَسَاسَ يُوَحِّدُ مُجْتَمَعًا كَعَقِيدَةٍ صَافِيَةٍ، وَلَاءُ أَهْلِهِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة المائدة: ٥٥]، وَبَرَاءَةُ أَهْلِهِ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ، ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾ [سورة المجادلة: ٢٢].

مِنْ آثَارِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ عَلَىٰ المُجْتَمَعِ حُصُولُ التَّمْكِينِ وَالقُوَّةِ لَهُ وَالمَهَابَةِ مِنْ قِبَلِ أَعْدَائِهِ؛ فَقُوَّةُ الأُمَمِ مِنِ اعْتِقَادِهَا، وَالضِّدُّ بِالضِّدِّ، فَلَا يُرْجَىٰ خَيْرٌ مِنْ قَوْمٍ مَا دَامُوا مُتَلَطِّخِينَ بِالعَقَائِدِ الضَّالَّةِ، هَاتِ مُجْتَمَعًا يَدِينُ أَهْلُهُ بِاعْتِقَادٍ صَالِحٍ لَا يَشُوبُهُ تَمْوِيهٌ وَلَا أَوْهَامٌ وَلَا خُرَافَاتٌ، وَخُذْ أُمَّةً قَوِيَّةً صَلْبَةً لَا تُقْهَرُ، إِنَّ أَهْلَ التَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ مَنْصُورُونَ لَا مَحَالَةَ، وَعْدَ مَنْ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة الصافات: ١٧١-١٧٣] ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٥-١٠٦].

إِنَّ المُتَبَصِّرَ فِي الأُمُورِ لَيُدْرِكُ أَنَّ ظُهُورَ المُنْكَرَاتِ العَقَدِيَّةِ فِي مُجْتَمَعٍ مَا مُؤْذِنٌ بِاضْمِحْلَالِهِ وَتَسَلُّطِ أَعْدَائِهِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَغَارُ، وَغَيْرَتُهُ أَنْ تُنْتَهَكَ مَحَارِمُهُ، وَفِي التَّارِيخِ عِبْرَةٌ لِمَنْ يَعْتَبِرُ.

مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ، بَعْدَ كُلِّ مَا مَضَىٰ يَبْرُزُ سُؤَالٌ أَمَامَنَا، وَهُوَ: مَا الوَاجِبُ عَلَيْنَا لِكَيْ نَجْتَنِيَ ثَمَرَاتِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، وَنُحَافِظَ عَلَىٰ هَذَا الخَيْرِ الذِي سَاقَهُ اللهُ إِلَيْنَا؟

لَقَدْ عَلِمْتَ -يَا رَعَاكَ اللهُ- أَنَّ مَا نَتَحَدَّثُ عَنْهُ شَيْءٌ عَظِيمٌ، أَنَّ العَقِيدَةَ الصَّحِيحَةَ، عَقِيدَةَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، عَقِيدَةَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، هِيَ الحِصْنُ الحَصِينُ بِتَوْفِيقِ اللهِ مِنَ السُّقُوطِ فِي حُفْرَةِ الضَّلَالِ كُفْرًا كَانَ أَوْ بِدْعَةً، غُلُوًّا كَانَ أَمِ انْحِلَالًا، فَفِيهَا الإِقْنَاعُ بِالحَقِّ، فِيهَا الإِجَابَةُ الشَّافِيَةُ عَنِ

الشُّبُهَاتِ، فِيهَا السُّهُولَةُ وَالوُضُوحُ، فِيهَا التَّوَسُّطُ بَيْنَ الإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ، فِيهَا الاعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللهِ، فِيهَا الأَخْذُ بِأَدِلَّةِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالآثَارِ كَافَّةً، فَمَنْ رَسَخَ اعْتِقَادُهُ بِهَا فَقَدْ أَخَذَ بِسَبَبٍ وَثِيقٍ مِنَ النَّجَاةِ.

وَجَوَابٌ عَلَىٰ السُّؤَالِ السَّابِقِ أَقُولُ: إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ أَنْفُسَنَا بِأَرْبَعِ وَصَايَا فِي أَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: «أَنْ نَعِي، وَنَحْذَرَ، وَنُرَبِّيَ، وَنَلْجَأَ».

أَمَّا الوَصِيَّةُ الأُولَىٰ: فَأَنْ نَعِي؛ أَنْ نَعِيَ أَمْرَيْنِ:

أَوَّلاً: أَنْ نَعِيَ فَضْلَ العَقِيدَةِ وَمَكَانَتَهَا، وَعَظِيمَ ثَمَرَتِهَا، وَهَذَا مَا مَضَىٰ الحَدِيثُ عَنْهُ.

ثَانِيًا: ثُمَّ أَنْ نَعِيَ الوَاقِعَ الذِي نَعِيشُهُ فِي هَذَا العَصْرِ.

يَا إِخْوَتَاهُ! لَقَدْ كَثُرَتْ فِي عَصْرِنَا المُكَدِّرَاتُ لِصَفَاءِ الاعْتِقَادِ وَتَكَالَبَتِ الأَعْدَاءُ، وَالوَسَائِلُ عَدِيدَةٌ وَالأَسَالِيبُ مُتَنَوِّعَةٌ، وَالتَّحَدِّي الأَكْبَرُ أَمَامَنَا أَنْ نُحَافِظَ عَلَىٰ هَذِهِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ فِي أَنْفُسِنَا وَأَهْلِينَا وَمُجْتَمَعَاتِنَا أَمَامَ كُلِّ هَذَا، أَنْ نَثْبُتَ عَلَيْهَا إِلَىٰ النَّفَسِ الأَخِيرِ فِي حَيَاتِنَا، فَإِنَّنَا إِنْ فَعَلْنَا وَاللهِ أَفْلَحْنَا، وَإِلَّا فَالضَّيَاعُ وَالهَلَاكُ.

إِنَّ أَعْدَاءَ اللهِ يَبُثُّونَ الشُّكُوكَ لَيْلَ نَهَارٍ، وَيَقْعُدُونَ لِلْمُسْلِمِينَ بِكُلِّ صِرَاطٍ لِيَصُدُّوهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، يُشَكِّكُونَهُمْ فِي عَقَائِدِهِمُ التِي هِيَ أَغْلَىٰ مَا يَمْلِكُونَ؛ قَبْلَ عُقُودٍ قَرِيبَةٍ لَمْ يَكُنْ بِنَا كَبِيرُ حَاجَةٍ إِلَىٰ أَنْ نَطْرَحَ هَذَا المَوْضُوعَ كَمَا نَطْرَحُهُ اليَوْمَ، لَكِنَّ الوَضْعَ الآنَ اخْتَلَفَ؛ العَالَمُ لَمْ يَعُدْ كَقَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ، إِنَّهُ أَشْبَهُ بِغُرْفَةٍ صَغِيرَةٍ، فَمَا يُطْرَحُ فِي أَقْصَىٰ الشَّرْقِ أَوِ الغَرْبِ تَطَّلِعُ عَلَيْهِ فِي اللَّحْظَةِ نَفْسِهَا وَتَتَفَاعَلُ مَعَهُ وَأَنْتَ مُتَّكِئٌ عَلَىٰ أَرِيكَتِكَ، وَهَذَا الوَضْعُ قَدِ اسْتَغَلَّهُ أَهْلُ الضَّلَالِ أَعْظَمَ اسْتِغْلَالٍ؛ فَجَيَّشُوا جُيُوشَهُمْ وَرَيَّشُوا سِهَامَهُمْ، إِنَّهُ-يَا عَبْدَ اللهِ-غَزْوٌ عَقَدِيٌّ مُرَكَّزٌ يَسْتَهْدِفُ الإِسْلَامَ وَالسُّنَّةَ وَأَهْلَهُمَا فِي كُلِّ مَكَانٍ لِزَحْزَحَتِهِمْ عَنْ عَقِيدِهِمْ وَرَدِّهِمْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ كُفَّارًا مُشْرِكِينَ أَوْ مُبْتَدِعَةً ضَالِّينَ.

يَا إِخْوَتَاهُ! إِنَّهَا مُشْكِلَةٌ كُبْرَىٰ تَسْتَحِقُّ أَنْ تُبْذَلَ كُلُّ الجُهُودِ لِعِلَاجِهَا وَالتَّصَدِّي لِتَبِعَاتِهَا، ثَمَّةَ سَيْلٌ جَارِفٌ مِنَ التَّيَّارَاتِ العَقَدِيَّةِ وَالفِكْرِيَّةِ يَغْزُونَا فِي عُقْرِ دَارِنَا، إِنَّهُ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالفَايْرُوسِ القَاتِلِ وَاسِعِ الانْتِشَارِ، إِنَّهُ يَخْتَلِفُ عَنْ أَيِّ مُهَدِّدٍ عَقَدِيٍّ سَبَقَهُ كَمًّا وَكَيْفًا، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُحَصَّنًا فَمَا أَقْرَبَ عَطَبَهُ، إِنَّهُ اسْتِهْدَافٌ مَدْرُوسٌ، تُسْتَخْدَمُ فِيهِ وَسَائِلُ مُتَنَوِّعَةٌ؛ مَسْمُوعَةٌ، وَمَقْرُوءَةٌ، وَمَرْئِيَّةٌ، قَنَوَاتٌ

فَضَائِيَّةٌ، مَوَاقِعُ شَبَكِيَّةٌ، وَسَائِلُ تَوَاصُلٍ، هُنَاكَ كُتُبٌ وَرِوَايَاتٌ وَمَجَلَّاتٌ، أَفْلَامٌ وَثَائِقِيَّةٌ، وَأَفْلَامٌ تَمْثِيلِيَّةٌ، بَلْ حَتَّىٰ بَعْضُ الأَلْعَابِ الإِلِكْتُرُونِيَّةِ لَمْ تَسْلَمْ مِنْ بَثِّ الشُّكُوكِ العَقَدِيَّةِ، هَذَا وَاقِعٌ جَدِيدٌ.

الأَمْرُ فِي السَّابِقِ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؛ فِي السَّابِقِ كَانَتِ القَوَالِبُ التِي تُقَدَّمُ الأَفْكَارُ مِنْ خِلَالِهَا مَحْدُودَةً، تَكَادُ تَدُورُ عَلَىٰ كِتَابٍ، وَرُبَّمَا عَلَىٰ إِذَاعَةٍ تَصِلُ مُشَوَّشَةً، وَالغَالِبُ أَنَّ مَنْ يَبْحَثُ عَنْ هَذِهِ الأَفْكَارِ هُوَ الذِي يَسْعَىٰ لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا، فَالتَّأْثِيرُ إِذًا كَانَ مَحْدُودًا، بِخِلَافِ الأَمْرِ اليَوْمَ؛ الوَسَائِلُ اليَوْمَ هِيَ التِي تُطَارِدُ النَّاسَ، حَتَّىٰ مَنْ هُمْ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا، مَعَ مُلَاحَظَةِ أَنَّنَا نَتَحَدَّثُ عَنْ وَسَائِلَ تَمَيَّزَتْ بِالتَّنَوُّعِ وَالكَثْرَةِ، وَالجُودَةِ وَالجَاذِبِيَةِ، وَهَذَا مَا يَتَضَاعَفُ مَعَهُ التَّأْثِيرُ.

ثُمَّ الطَّرْحُ اليَوْمَ يُخَاطِبُ جَمِيعَ الشَّرَائِحِ، فَهُوَ يُحْسِنُ مُخَاطَبَةَ الكِبَارِ وَالصِّغَارِ، الذُّكُورِ وَالإِنَاثِ، وَيَتَحَدَّثُ بِجَمِيعِ اللُّغَاتِ، وَلِذَا فَمَسَاحَةُ التَّأْثِيرِ أَيْضًا عَظِيمَةٌ، نَاهِيكَ عَنْ أَنَّ حَرَكَةَ التَّرْجَمَةِ لِمُخْرَجَاتِ التَّيَّارَاتِ الضَّالَّةِ اليَوْمَ قَوِيَّةٌ، كُلُّ مَا سَبَقَ يُقَابِلُهُ مَعَ الأَسَفِ ضَعْفٌ فِي بَرَامِجِ التَّحْصِينِ وَالعِلَاجِ، كَمًّا وَكَيْفًا.

زِدْ عَلَىٰ هَذَا: أَنَّ أَمَامَ هَذَا الوَاقِعِ المُؤْسِفِ هُنَاكَ ضَعْفٌ فِي إِدْرَاكِ حَجْمِ المُشْكِلَةِ الوَاقِعَةِ فِي سَاحَةِ المُسْلِمِينَ العَقَدِيَّةِ، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَشْعُرُ بِخُطُورَةِ الوَاقِعِ لِانْشِغَالِهِ بِدُنْيَاهُ، وَعَلَيْهِ؛ فَأَمْرَاضُ الشُّبُهَاتِ القَاتِلَةِ قَدْ تَنْهَشُ بِمَنْ حَوْلَهُ وَهُوَ فِي غَفْلَةٍ، بَلْ قَدْ تَتَعَدَّىٰ إِلَيْهِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، وَرُبَّمَا يَسْتَيْقِظُ عَلَىٰ وَاقِعٍ مُؤْسِفٍ يَتَعَلَّقُ بِهِ أَوْ بِأُسْرَتِهِ وَلَكِنْ بَعْدَ فَوَاتِ الأَوَانِ، وَلِذَا؛ كُلَّمَا كَانَ الإِنْسَانُ قَرِيبًا مِنْ مُحِيطِهِ عِنْدَهُ وَعْيٌ وَدِقَّةُ مُلَاحَظَةٍ، وَعِنْدَهُ بَصِيرَةٌ، كُلَّمَا كَانَ أَقْرَبَ إِلَىٰ أَنْ تَتَكَسَّرَ عِنْدَ وَعْيِهِ جُهُودُ الأَعْدَاءِ بِتَوْفِيقِ اللهِ.

الوَصِيَّةُ الثَّانِيَةُ: أَنْ نَحْذَرَ؛ أَنْ نَحْذَرَ مِنْ كُلِّ مَا يَثْلِبُ عَقِيدَتَنَا أَوْ يُكَدِّرُ صَفْوَهَا، عَقِيدَتُكَ-يَا أَيُّهَا المُسْلِمُ-أَغْلَىٰ مَا تَمْلِكُ، فَحَذَارِ مِنَ المُغَامَرَةِ، لَوْ كُنْتَ تَمْلِكُ دُرَّةً ثَمِينَةً فَلَنْ تَدَعَهَا مُلْقَاةً عَلَىٰ قَارِعَةِ الطَّرِيقَةِ، دِينُكَ وَعَقِيدَتُكَ وَاللهِ أَغْلَىٰ مِنْ كُلِّ دُرَّةٍ، إِذًا عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ حَذِرًا تَمَامَ الحَذَرِ مِنْ أَنْ تُجَازِفَ بِهَا، إِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا تُطَالِعَ إِلَّا الحَقَّ المَحْضَ فَافْعَلْ، إِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا تَقْرَأَ إِلَّا الصَّوَابَ فَافْعَلْ، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَاجْعَلْ قَلْبَكَ زُجَاجِيًّا، يَطَّلِعُ عَلَىٰ البَاطِلِ وَيَعْرِفُهُ لَكِنَّهُ لَا يَتَسَرَّبُ إِلَيْهِ، وَحَذَارِ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَلْبُكَ إِسْنِفِنْجِيًّا.

احْذَرْ مِنْ مُضْعِفَاتِ اليَقِينِ وَقَوَادِحِهِ، سُدَّ كُلَّ سَبِيلٍ يُوصِلُ إِلَىٰ هَذَا، لَا تُرِعْ سَمْعَكَ إِلَىٰ

شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَمَقَاطِعِهِمْ وَمَوَاقِعِهِمْ وَكُتُبِهِمْ وَحِسَابَاتِهِمْ، فَمَهْمَا غَامَرْتَ فَلَا تُغَامِرْ بِدِينِكَ، فَالسَّلَامَةُ لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ، لَا تَحُمْ حَوْلَ الحِمَىٰ، وَاطْلُبِ السَّلَامَةَ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [سورة المدثر: ٥]، وَالنَّبِيُّ يَقُولُ: «وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ»، وَهَذَا الذِي تَحْوِيهِ هَذِهِ الشُّبَهُ مِمَّا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ، فَإِنَّ شُبُهَاتِ الضَّالِّينَ مَا هِيَ إِلَّا صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، أَوْ قَوْلٌ عَلَىٰ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَبْسٌ لِلْحَقِّ بِالبَاطِلِ، فَهِيَ مِمَّا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ قَطْعًا، إِذاً وَاجِبٌ هِجْرَانُهَا، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾ [سورة الأنعام: ٦٨]؛ أَعْرِضْ عَنْهُمْ هَذَا فِعْلُ أَمْرٍ، وَالأَمْرُ يَقْتَضِي الوُجُوبَ، إِذًا: وَاجِبٌ عَلَىٰ المُسْلِمِ أَنْ يُعْرِضَ عَنِ الشُّبُهَاتِ وَعَنْ أَهْلِهَا، بَلْ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنْ حِمَاهَا وَلَا يَقْرَبَ مَوَاطِنَهَا.

أَيْضًا: لَا تَدْخُلْ مَوَاقِعَ الضَّالِّينَ لَا تُتَابِعْ حِسَابَاتِ المَشْبُوهِينَ، لَا تَقْرَأْ كُتُبَ المُنْحَرِفِينَ، لَا تُشَاهِدْ مَقَاطِعَ المَخْذُولِينَ، لَا تُطَالِعْ قَنَوَاتِ المُفْسِدِينَ، إِذَا كُنْتَ تَفِرُّ مِنَ المَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ، فَكَيْفَ بِمَجْذُومِ القَلْبِ وَالعَقْلِ وَالدِّينِ، وَاعْلَمْ-يَا رَعَاكَ اللهُ-أَنَّ شَرَارَةَ الشُّبْهَةِ إِذَا دَخَلَتِ القَلْبَ رُبَّمَا أَحْرَقَتْهُ، لَا تَغُرَّنَّكَ دَعَوَاتُ التَّحَرُّرِ وَالانْفِتَاحِ، أَوْ شَهْوَةُ حُبِّ الاسْتِطْلَاعِ، وَنَبِيُّنَا يَقُولُ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ: «فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ».

العَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ لِتَعْلَمَ-يَا أَيُّهَا المُوَفَّقُ-أَنَّهُ كُلَّمَا عَظُمَ الضَّلَالُ وَكَثُرَ، فَالخَوْفُ مِنْهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ، وَالحَذَرُ مِنْهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَكْبَرَ، فَإِنَّ الجُرْثُومَةَ التِي تُصِيبُ الإِيمَانَ أَشَدُّ فَتْكًا وَخَطَراً مِنَ التِي تُصِيبُ الأَبْدَانَ، وَالإِجْرَاءَاتُ الاحْتِرَازِيَّةُ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ تُجَاهَهَا أَشَدَّ، تَأَمَّلْ مَعِي قَوْلَ الخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿ءَامِنَا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾ [سورة إبراهيم: ٣٥]، إِبْرَاهِيمُ إِمَامُ الحُنَفَاءِ وَأَبُو الأَنْبِيَاءِ -عليه السلام-، وَمَعَ ذَلِكَ يَخَافُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنَ الشِّرْكِ! فَمَاذَا يَقُولُ مَنْ سِوَاهُ؟

وَصَدَقَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ حِينَ قَالَ: مَنْ يَأْمَنُ البَلَاءَ بَعْدَ خَلِيلِ اللهِ إِبْرَاهِيمَ!

إِذاً: الخَوْفُ مِنَ الكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَالضَّلَالِ مِنَ المَقَامَاتِ الرَّفِيعَةِ لِأَهْلِ الإِيمَانِ، كُلَّمَا كَانَ الإِنْسَانُ أَعْظَمَ إِيمَانًا كَانَ أَعْظَمَ خَوْفًا مِنَ الوُقُوعِ فِي ضِدِّهِ، كُلَّمَا قَوِيَ الإِيمَانُ عَظُمَ الخَوْفُ عَلَيْهِ وَعَظُمَ الخَوْفُ مِنْ زَوَالِهِ، وَعَظُمَ البُعْدُ عَنْ أَسْبَابِ زَوَالِهِ، وَتَأَمَّلِ التَّعْلِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٦].

إِذًا: مِنْ بَوَاعِثِ الخَوْفِ مِنَ الضَّلَالِ كَثْرَةُ الوَاقِعِينَ فِي حُفْرَتِهِ، كُلَّمَا كَانَ الدَّاءُ مُنْتَشِرًا كَانَ أَخْطَرَ؛ لِأَنَّ احْتِمَالَ الإِصَابَةِ بِهِ أَكْبَرُ وَاللهُ -ﷻ- أَخْبَرَ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ يَدْعُونَهُ بِقَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ [سورة آل عمران: ٨]، وَالسَّلَفُ الصَّالِحُ أَهْلُ التَّوْحِيدِ أَهْلُ الإِيمَانِ وَاليَقِينِ لِعِظَمِ إِيمَانِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ شَيْءٍ خَوْفًا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَأَشَدَّ حَذَرًا مِنَ المُضِلِّينَ.

إِذًا: اعْلَمُوا -أَيُّهَا الكِرَامُ- أَنَّهُ إِذَا كَانَ الوُقُوعُ فِي الضَّلَالِ قَدِيمًا مَخُوفًا، فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُخَافَ مِنْهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ أَكْثَرَ، وَالسَّبَبُ مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَصَدَقَ حِينَ قَالَ: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا؛ يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**».

إِنَّ الخَوْفَ الصَّادِقَ مِنَ الكُفْرِ يَسْتَدْعِي أَنْ تَعْلَمَهُ وَتَعْلَمَ مَدَاخِلَهُ، فَإِنَّ المَجْهُولَ لَا يُخَافُ، وَكُلُّ مَنْ كَانَ بِالشَّرِّ أَعْرَفَ كَانَ مِنْهُ أَخْوَفَ، مَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْلُغَ الدَّرَجَةَ التِي بَلَغَهَا الصَّالِحُونَ مِنَ الخَوْفِ مِنَ الضَّلَالِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ أُصُولَهُ وَفُرُوعَهُ، وَدَقَائِقَهُ وَذَرَائِعَهُ، وَإِثْمَهُ وَعِقَابَهُ، فَيَنْبَعِثُ فِي قَلْبِهِ خَوْفٌ صَادِقٌ مِنْهُ؛ وَلِذَا كَانَ أَكْمَلَ النَّاسِ فِي هَذَا المَقَامِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ -ﷺ-؛ حَيْثُ كَانُوا أَعْلَمَ بِالحَقِّ وَأَعْلَمَ بِالبَاطِلِ، وَكَانُوا أَقْوَمَ بِالحَقِّ وَأَبْعَدَ عَنِ البَاطِلِ، وَالتَّوْحِيدُ لَا تَقُومُ سَاقُهُ إِلَّا عَلَىٰ هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ: العِلْمُ بِالحَقِّ وَالتِزَامُهُ، وَالعِلْمُ بِضِدِّهِ وَاجْتِنَابُهُ، وَمَنْ قَصَّرَ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا دَخَلَ عَلَيْهِ الخَلَلُ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَمَا أَحْسَنَ مَا يُرْوَىٰ عَنْ عُمَرَ قَالَ: «إِنَّمَا تُنْقَضُ عُرَىٰ الإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً لِمَنْ نَشَأَ فِي الإِسْلَامِ وَلَمْ يَعْرِفِ الجَاهِلِيَّةَ».

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ -مِنْ طَرِيقِ ابْنِ وَهْبٍ- فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣]، قَالَ: سَبِيلُهُ الإِسْلَامُ، وَصِرَاطُهُ الإِسْلَامُ، نَهَاهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوا السُّبُلَ سِوَاهُ، ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣]: عَنِ الإِسْلَامِ.[(١)]

فَالمُوَفَّقُونَ السُّعَدَاءُ هُمُ الذِينَ يَعْلَمُونَ الحَقَّ بِتَفَاصِيلِهِ وَيُوَفَّقُونَ إِلَىٰ الْتِزَامِهِ، وَهُمْ أَيْضًا الذِينَ

---

(١) (أخرجه ابن جرير ٩/ ٦٧١، وابن أبي حاتم ٥/ ١٤٢٢ من طريق أصبغ بن الفرج).

يَعْلَمُونَ البَاطِلَ بِتَفَاصِيلِهِ وَيُوَفَّقُونَ إِلَىٰ اجْتِنَابِهِ، أَمَّا الذِي هُوَ سَادِغٌ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ، لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَإِيمَانٍ وَكُفْرٍ، وَنُورٍ وَظُلْمَةٍ، فَمَا أَسْرَعَ أَنْ يَقَعَ فِي هُوَّةِ الهَلَاكِ.

يَا أَيُّهَا المُوَفَّقُ؛ مَتَىٰ كُنْتَ صَادِقًا فِي الخَوْفِ مِنَ الضَّلَالِ فَحَصِّنْ نَفْسَكَ بِتَعَلُّمِ الاعْتِقَادِ الصَّحِيحِ، إِنَّ هَذَا لَمِنْ أَوْلَىٰ الأَوْلَوِيَّاتِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، تَحْصِينُ النَّفْسِ بِتَعَلُّمِ الاعْتِقَادِ الصَّحِيحِ؛ لَا مَخْرَجَ بَعْدَ تَوْفِيقِ اللهِ إِلَّا بِهَذَا، لَا مَخْرَجَ بَعْدَ تَوْفِيقِ اللهِ إِلَّا بِالتَّحْصِينِ وَالتَّأْصِيلِ، إِلَّا بِالرُّسُوخِ العَقَدِيِّ الصَّحِيحِ، إِنَّ هَذَا شَيْءٌ أَضْحَىٰ اليَوْمَ ضَرُورَةً قُصْوَىٰ لَا يُقْبَلُ التَّرَاخِي فِيهِ.

الوَصِيَّةُ الثَّالِثَةُ: أَنْ نُرَبِّيَ أَبْنَاءَنَا وَأَهْلِينَا عَلَىٰ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، إِنَّ اسْتِشْعَارَ الأَمَانَةِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ هَاهُنَا هُوَ البِدَايَةُ وَالأَسَاسُ، وَلْنَتَذَكَّرْ أَنَّ سُؤَالاً يَنْتَظِرُنَا: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»، وَقَدْ قَالَ لَهُ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**».

إِنَّ مِنْ أَهَمِّ المُهِمَّاتِ اليَوْمَ السَّعْيُ فِي تَحْصِينِ أُسَرِنَا عَقَدِيًّا، وَذَاكَ بِأَخْذِ اللِّقَاحَاتِ اللَّازِمَةِ ضِدَّ وَبَاءِ الشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكِ؛ لِيَكُونُوا عَلَىٰ بَيِّنَةٍ وَقُوَّةٍ فِي عَقِيدَتِهِمْ، وَعَافِيَةٍ مِنْ سِهَامِ أَهْلِ الضَّلَالِ، نَحْنُ -يَا إِخْوَتَاهُ- نَعِيشُ فِي الزَّمَنِ الصَّعْبِ، وَالخَطَرُ عَلَىٰ الكِبَارِ كَبِيرٌ، فَكَيْفَ عَلَىٰ الصِّغَارِ!

ضَعْ -يَا أَيُّهَا المُوَفَّقُ- مَوْضُوعَ البِنَاءِ العَقَدِيِّ لِأُسْرَتِكَ نَصْبَ عَيْنَيْكَ، أَلْهِبْ فِيهِمْ جَذْوَةَ الحَمَاسِ لِتَوْحِيدِهِمْ، ذَكِّرْهُمْ صَبَاحَ مَسَاءٍ أَنَّ عَقِيدَتَهُمْ رَأْسُ مَالِهِمْ وَأُسُّ سَعَادَتِهِمْ وَأَهَمُّ شَيْءٍ فِي حَيَاتِهِمْ، عَلِّمْهُمْ، حَذِّرْهُمْ، تَفَقَّدْهُمْ، كُنْ إِيجَابِيًّا، أَرْشِدْهُمْ إِلَىٰ العَالِمِ وَالكِتَابِ أَرْشِدْهُمْ إِلَىٰ المَوْقِعِ وَالحِسَابِ، إِلَىٰ مَا يَقْوَىٰ بِمُتَابَعَتِهِ إِيمَانُهُمْ، وَيَأْمَنُونَ وَهُمْ فِي كَنَفِهِ مِنْ سَيْلِ الشُّبَهِ الجَارِفِ.

تَعَاهَدْهُمْ بِغَرْسِ مَفَاهِيمِ العَقِيدَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَلْيَكُنْ قُدْوَتُكَ رُسُلَ اللهِ وَالصَّالِحُونَ مِنْ عِبَادِهِ، فَهَذَا نُوحٌ يَقُولُ لِابْنِهِ: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة هود: ٤٢]، وَهَذِهِ وَصِيَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَيَعْقُوبَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة البقرة: ١٣٢]؛

لُقْمَانُ يُوصِي ابْنَهُ قَائِلًا: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة لقمان: ١٣]، وَهَذَا نَبِيُّنَا -ﷺ-: يُوصِي ابْنَ عَمِّهِ ابْنَ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَائِلاً: «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ**

لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ».

الوَصِيَّةُ الرَّابِعَةُ وَالأَخِيرَةُ: أَنْ نَلْجَأَ إِلَىٰ اللهِ بِصِدْقٍ وَإِخْبَاتٍ أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَىٰ التَّوْحِيدِ وَعَلَىٰ الاعْتِقَادِ الحَقِّ، فَالأَمْرُ كُلُّهُ بِيَدِهِ وَالخَيْرُ كُلُّهُ مِنْهُ، فَالْجَأْ إِلَىٰ اللهِ بِصِدْقٍ وَاضْطِرَارٍ وَأَبْشِرْ بِالخَيْرِ، فَإِنَّهُ لَنْ يَخْذُلَكَ وَهُوَ الكَرِيمُ سُبْحَانَهُ، وَقُلْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾ [سورة الرعد: ٢٧]، ابْتَغِ الحَقَّ وَالهِدَايَةَ حَيْثُ ابْتَغَاهُمَا الخَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩﴾ [سورة الصافات: ٩٩]، أَخْلِصْ لِلَّهِ وَالْتَجِئْ، وَتَضَرَّعْ وَانْطَرِحْ، إِنْ صَدَقْتَ اللهَ صَدَقَكَ اللهُ وَثَبَّتَكَ وَعَافَاكَ.[1]

❁❁❁

(١) «مُقْتَبَسَةٌ مِنْ مُحَاضَرَةِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ وَأَهَمِّيَّتِهَا».

فَصْلٌ فِي: محاور عمل الداعية

لَقَدِ اصْطَفَىٰ رَبُّنَا -ﷻ- مِنْ خَلْقِهِ أَنْبِيَاءَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَدَاعِينَ إِلَىٰ اللهِ -ﷻ- كَمَا أَمَرَهُمْ، يُعَلِّمُونَ الجَاهِلَ، وَيُرْشِدُونَ الضَّالَّ، حَتَّىٰ تَوَفَّاهُمُ اللهُ -ﷻ-، فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَرَثَتُهُمْ مِنَ العُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ يُتَابِعُونَ المَسِيرَ وَالمُهِمَّةَ، وَيَنْفُونَ عَنِ الدِّينِ مَا أَدْخَلَهُ المُبْتَدِعُونَ، وَيُحْيُونَ مَا انْدَرَسَ مِنْ مَعَالِمِهِ وَسُنَنِهِ وَأَحْكَامِهِ، فَكَانَتْ مُهِمَّتُهُمُ امْتِدَاداً لِدَعْوَةِ الرُّسُلِ صلوات الله عليهم، وَسَيَنَالُهُمْ مِنَ البَلَاءِ مَا نَالَ الأَنْبِيَاءَ، وَمِنَ الأَجْرِ مَا أَعَدَّهُ لَهُمْ -ﷻ- مِنَ الأَجْرِ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا هُوَ تَعْوِيضاً لَهُمْ عَلَىٰ مَا لَاقُوهُ، وَرِضًىٰ عَلَيْهِمْ بِمَا صَنَعُوهُ، وَيَكْفِينَا مَا قَالَهُ رَبُّنَا -ﷻ-: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة فصلت: ٣٣].

١- **قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ** -رحمه الله-: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة فصلت: ٣٣]، قَالَ: هُوَ المُؤْمِنُ عَمِلَ صَالِحًا، وَدَعَا إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ.

فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ-أَخِي الدَّاعِيَةِ-وَجَبَ عَلَيْكَ تَبْلِيغُ رِسَالَتِهِمُ العُظْمَىٰ، وَالسَّيْرُ عَلَىٰ طَرِيقَتِهِمُ المُثْلَىٰ، وَالاقْتِدَاءُ بِهِمْ فِي كُلِّ مَا قَامُوا بِهِ مِنْ دَعْوَةٍ وَمُحَاجَجَةٍ لِأَقْوَامِهِمْ مِنْ أَجْلِ اقْتِلَاعِ أَوْهَامِهِمُ المُتَجَذِّرَةِ فِيهِمْ، وَتَحْطِيمِ الأَصْنَامِ الجَاثِمَةِ فِي عُقُولِهِمْ، وَتَغْيِيرِ القَنَاعَاتِ المُسْتَقِرَّةِ لَدَيْهِمْ، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ ذَلِكَ! وَنَحْنُ نَرَىٰ خُلُوَّ السَّاحَةِ مِنْ دُعَاةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالأَثَرِ، وَكَثْرَةَ الدَّاعِينَ إِلَىٰ البَاطِلِ بِشَتَّىٰ الطُّرُقِ وَالأَسَالِيبِ يُدَافِعُونَ عَنْ بَاطِلِهِمْ، وَيَنْشُرُونَ بِدَعَهُمْ فِي غِيَابٍ لِأَهْلِ الحَقِّ وَتَغْيِيبٍ لَهُمْ.

وَهَا نَحْنُ أُولَاءِ نَضَعُ بَيْنَ يَدَيْكَ-أَخِي الدَّاعِيَةِ-مَنَارَاتٍ تُنِيرُ لَكَ الطَّرِيقَ لِتُؤَدِّيَ رِسَالَتَكَ العَظِيمَةَ عَلَىٰ وَجْهِهَا الأَكْمَلِ وَبِصُورَتِهَا الأَجْمَلِ.

المَنَارَةُ الأُولَىٰ: الجَانِبُ العِلْمِيُّ:

لَا بُدَّ لِطَالِبِ العِلْمِ وَالدَّاعِيَةِ إِلَىٰ اللهِ مِنْ زَادٍ عِلْمِيٍّ يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ، وَإِلَّا إِلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ سَيَدْعُو

النَّاسَ، وَنَحْنُ هُنَا لَا نُكَلِّفُ الدَّاعِيَةَ فَوْقَ طَاقَتِهِ، وَلَا نُطَالِبُهُ أَنْ يُحَقِّقَ مُسْتَوًى مُتَقَدِّماً مِنَ العِلْمِ حَتَّى يَدْعُوَ إِلَى اللهِ -ﷻ-، بَلْ نُرِيدُ مِنْهُ أَنْ يُحَقِّقَ المُسْتَوَى المُمْكِنَ الذِي يَلْزَمُهُ لِأَدَاءِ مُهِمَّتِهِ بِطَرِيقَةٍ عِلْمِيَّةٍ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»، فَنَحْنُ مُكَلَّفُونَ بِالدَّعْوَةِ بِمَا عَلِمْنَا وَلَوْ كَانَتْ آيَةً وَاحِدَةً.

فَالدَّاعِيَةُ الحَقُّ يَبْدَأُ مِنْ تَبْلِيغِ آيَةٍ وَعَاهَا فَأَدَّاهَا، إِلَى آيَاتٍ أُخْرَى يَتَعَلَّمُهَا فَيُعَلِّمُهَا لِلنَّاسِ، وَيَبْدَأُ فِي بَابٍ ثُمَّ مَا يَلْبَثُ أَنْ يُلْحِقَ بِهِ أَبْوَاباً أُخْرَى فِي مَسِيرَةٍ يَوْمِيَّةٍ لِطَلَبِ العِلْمِ وَتَعَلُّمِهِ وَتَعْلِيمِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الدَّاعِيَةَ مَحَطُّ أَسْئِلَةِ النَّاسِ وَاسْتِفْسَارَاتِهِمْ عَلَى مَدَارِ اليَوْمِ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ.

وَعَلَى الدَّاعِيَةِ اسْتِحْضَارُ تِلْكَ الهِمَّةِ العَالِيَةِ وَالعَزِيمَةِ الصَّلْبَةِ التِي تَمَتَّعَ بِهَا سَلَفُنَا الصَّالِحُ فِي طَلَبِ العِلْمِ، فِي كُلِّ ظُرُوفِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَكَانَ شِعَارُهُمْ: مَعَ المِحْبَرَةِ إِلَى المَقْبَرَةِ.

وَهُنَا لَا بُدَّ لَنَا أَنْ نُقَدِّمَ إِلَى أَخِينَا الدَّاعِيَةِ بَعْضَ النَّصَائِحِ التِي تَزِيدُ مِنْ رَصِيدِهِ العِلْمِيِّ.

- العِنَايَةُ الكَبِيرَةُ بِكِتَابِ اللهِ -ﷻ- حِفْظًا، وَتَدَبُّراً وَتَفْسِيراً وَعَمَلاً.
- مُطَالَعَةُ كُتُبِ السُّنَّةِ وَدَوَاوِينِهَا المُعْتَمَدَةِ بِشَكْلٍ دَائِمٍ.
- العِنَايَةُ الكَبِيرَةُ بِسِيرَةِ النَّبِيِّ -ﷺ- لِمَا لَهَا مِنْ تَرْسِيخٍ لِفَهْمِ المَرَاحِلِ التِي مَرَّتْ بِهَا الدَّعْوَةُ، وَمَا الأَحْدَاثُ المُهِمَّةُ التِي تَعَرَّضَتْ لَهَا الدَّعْوَةُ الأُولَى فِي تَارِيخِهَا، وَكَيْفَ تَعَامَلَ النَّبِيُّ -ﷺ- مَعَ كُلِّ مَرْحَلَةٍ، وَكُلُّ ذَلِكَ يُعْطِي لِلدَّاعِيَةِ دُرُوساً وَعِبَراً وَأُفُقاً دَعَوِيّاً وَاضِحاً لِمَا يَنْتَظِرُهُ مِنْ خَيْرٍ وَأَجْرٍ وَصُعُوبَاتٍ وَتَمْكِينٍ.
- الالْتِزَامُ بِقَوْلِ لَا أَدْرِي لِمَا لَمْ يَسْبِقْ لَكَ تَعَلُّمُهُ، وَلِيَكُونَ ذَلِكَ حَافِزاً لَكَ عَلَى البَحْثِ وَالتَّعَلُّمِ وَالقِرَاءَةِ.
- تَخْصِيصُ وَقْتٍ يَوْمِيٍّ لِطَلَبِ العِلْمِ.
- تَخْصِيصُ وَقْتٍ يَوْمِيٍّ لِاسْتِمَاعِ الدُّرُوسِ وَالمُحَاضَرَاتِ.
- الاطِّلَاعُ عَلَى سِيرَةِ السَّلَفِ لِلِاسْتِفَادَةِ مِنْ مَسِيرَتِهِمُ العِلْمِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِيَّةِ.
- عَدَمُ التَّرَدُّدِ عَنِ السُّؤَالِ لِمَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْكَ فِقْهاً.
- الاطِّلَاعُ الدَّائِمُ فِي كُتُبِ الدَّعْوَةِ وَأَسَالِيبِهَا وَالقِرَاءَةُ المُتَأَنِّيَةُ فِي دَعْوَةِ النَّبِيِّ الكَرِيمِ -ﷺ-
- مَعْرِفَةُ أَئِمَّةِ الإِسْلَامِ وَتَأْثِيرُهُمُ الكَبِيرُ فِي حِفْظِ السُّنَّةِ فِي المُنْعَطَفَاتِ الخَطِيرَةِ التِي شَهِدَتْهَا

الأُمَّةُ عَبْرَ تَارِيخِهَا.

المَنَارَةُ الثَّانِيَةُ: المِحْوَرُ الأَدَائِيُّ:

مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يَمْتَلِكَ الدَّاعِيَةُ مُقَوِّمَاتٍ تُمَكِّنُهُ مِنْ أَدَاءِ مَادَّتِهِ العِلْمِيَّةِ بِالطَّرِيقَةِ الصَّحِيحَةِ وَالمُؤَثِّرَةِ فِي سَامِعِهِ، فَكَمْ مِنْ مَوْضُوعٍ مُهِمٍّ يَحْتَاجُهُ النَّاسُ ذَهَبَ تَأْثِيرُهُ بِسَبَبِ أَنَّ مَنْ يُقَدِّمُهُ لَا يَتَمَتَّعُ بِتِلْكَ الإِمْكَانَاتِ التَّوَاصُلِيَّةِ وَالتَّأْثِيرِيَّةِ.

فَبَعْدَ المِحْوَرِ العِلْمِيِّ وَجَبَ عَلَىٰ الدَّاعِيَةِ أَوِ الخَطِيبِ أَنْ يَتَعَلَّمَ فُنُونَ التَّأْثِيرِ وَالخِطَابَةِ وَالتَّوَاصُلِ، وَكَذَلِكَ التَّوْظِيفُ لِطَبَقَاتِ الصَّوْتِ فِي مَكَانِهَا، وَأَنْ يَعْتَمِدَ الأَسَالِيبَ المُنَاسِبَةَ لِلْمَوْقِفِ مِنْ حَيْثُ التَّكْرَارِ عِنْدَمَا يَحْتَاجُ الكَلَامُ إِلَىٰ التَّأْكِيدِ عَلَيْهِ، أَوْ طَرْحِ السُّؤَالِ عِنْدَمَا يُرِيدُ شَدَّ انْتِبَاهِ المُخَاطَبِ، وَكَذَا اسْتِخْدَامُ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَهَكَذَا يُمْكِنُ لِلدَّاعِيَةِ أَنْ يَعْمَلَ جَاهِداً عَلَىٰ إِيصَالِ رِسَالَتِهِ وَمَادَّتِهِ الدَّعْوِيَّةِ العِلْمِيَّةِ بِالشَّكْلِ المُنَاسِبِ.

وَهُنَا نَضَعُ بَيْنَ يَدَيْ أَخِينَا الدَّاعِيَةِ بَعْضَ المَنَارَاتِ لَعَلَّهَا تُنِيرُ لَهُ طَرِيقَهُ:

○ يَحْتَاجُ الدَّاعِيَةُ إِلَىٰ دُرْبَةٍ وَمِرَانٍ دَائِمَيْنِ مِنْ خِلَالِ جُهْدٍ يَبْذُلُهُ الدَّاعِيَةُ قُبَيْلَ دُرُوسِهِ أَوْ خُطَبِهِ، مَعَ نَفْسِهِ، أَوْ أَمَامَ أَهْلِهِ أَوْ إِخْوَانِهِ، وَيَقُومُ بِتَسْجِيلِ تِلْكَ المُحَاوَلَاتِ وَمُرَاجَعَتِهَا لِلنَّظَرِ فِي مَوَاطِنِ قُوَّتِهَا أَوْ ضَعْفِهَا لِتَدَارُكِ نِقَاطِ الضَّعْفِ.

○ التَّنَوُّعُ فِي الأَسَالِيبِ وَعَدَمُ التَّحَجُّرِ عَلَىٰ أُسْلُوبٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ تَبَعاً لِلْمُخَاطَبِ، فَقَدْ يَسْتَخْدِمُ أُسْلُوبَ السُّؤَالِ لِشَدِّ الانْتِبَاهِ، وَقَدْ يَسْتَخْدِمُ طَرِيقَةَ عَرْضِ العَنَاصِرِ وَالعَنَاوِينِ ثُمَّ يَأْتِي إِلَىٰ كُلِّ عُنْوَانٍ وَيُفَصِّلُ فِيهِ، وَقَدْ يَسْتَخْدِمُ أُسْلُوبَ الإِلْقَاءِ مُسْتَفِيداً مِنْ إِمْكَانَاتِ اللُّغَةِ وَأَسَالِيبِهَا، وَقَدْ يَسْتَخْدِمُ أُسْلُوبَ المُحَاضَرَةِ وَهَكَذَا.

○ عَلَيْكَ التَّوَقُّفُ قَلِيلاً قَبْلَ الأَفْكَارِ المُهِمَّةِ وَبَعْدَهَا حَتَّىٰ تَلْفِتَ عِنَايَةَ السَّامِعِ لِأَهَمِّيَّتِهَا.

○ تَوْزِيعُ النَّظَرَاتِ عَلَىٰ كَافَّةِ المَسَاحَةِ التِي أَمَامَكَ مَعَ عَدَمِ النَّظَرِ فِي وَجْهِ أَحَدِ السَّامِعِينَ دُونَ غَيْرِهِ بِشَكْلٍ مُبَاشِرٍ.

○ مِنْ خِلَالِ تِلْكَ النَّظَرَاتِ السَّابِقَةِ يَتَصَفَّحُ الدَّاعِيَةُ وُجُوهَ السَّامِعِينَ لِيَسْتَقْرِئَ مَدَىٰ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْهِ وَتَرْكِيزِهِمْ مَعَهُ، أَوْ إِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ وَضَجَرِهِمْ مِنْ حَدِيثِهِ.

○ اسْتِعْمَالُ اليَدَيْنِ بِهُدُوءٍ لِزِيَادَةِ شَدِّ الانْتِبَاهِ، وَمُحَاوَلَةِ جَعْلِ الأَفْكَارِ أَكْثَرَ تَأْثِيراً وَتَوْضِيحاً.

المَنَارَةُ الثَّالِثَةُ: المِحْوَرُ التَّحْضِيرِيُّ:

لَا يَشُكُّ مَنْ عِنْدَهُ أَقَلُّ اهْتِمَامٍ فِي جَانِبِ التَّحَدُّثِ أَمَامَ النَّاسِ فِي أَهَمِّيَّةِ إِعْدَادِ الدُّرُوسِ وَالخُطَبِ وَتَحْضِيرِهَا أَفْضَلَ التَّحْضِيرِ، فِي أَنَّ الارْتِجَالَ مَظِنَّةُ الخَطَأِ وَالتَّقْصِيرِ فِي إِيصَالِ المَقْصَدِ، وَكَذَلِكَ الحَالُ عَدَمُ إِعْطَاءِ العَنَاصِرِ وَالشَّوَاهِدِ حَقَّهَا.

وَنَضَعُ بَيْنَ يَدَيِ الدَّاعِيَةِ بَعْضَ المَنَارَاتِ التِي تُسَاعِدُهُ فِي التَّحْضِيرِ:

- اخْتِيَارُ مَوْضُوعِ اللِّقَاءِ، وَذَلِكَ بِنَاءً عَلَىٰ حَاجَةِ الوَاقِعِ أَوِ المُخَاطَبِ.
- القِرَاءَةُ فِي مَوْضُوعِ اللِّقَاءِ.
- تَقْسِيمُ المَحَاوِرِ.
- جَمْعُ المَادَّةِ العِلْمِيَّةِ.
- تَوْزِيعُ المَادَّةِ العِلْمِيَّةِ عَلَىٰ المَحَاوِرِ.
- الحِرْصُ عَلَىٰ تَرَابُطِ المَادَّةِ العِلْمِيَّةِ سَوَاءً كَانَتْ خُطْبَةً، أَمْ مُحَاضَرَةً، أَمْ لِقَاءً عَادِيًّا، وَالبُعْدُ عَنِ التَّشَتُّتِ وَالاخْتِصَارُ قَدْرَ الإِمْكَانِ.
- عَدَمُ الاسْتِرْسَالِ فِي المَعْلُومَاتِ التِي لَا تَخْدُمُ المَوْضُوعَ بِشَكْلٍ مُبَاشِرٍ لِمَا سَيَحْدُثُ عِنْدَ السَّامِعِ مِنْ مَلَلٍ، وَنَحْنُ نَعِيشُ فِي عَصْرٍ يَفْتَقِدُ النَّاسُ فِيهِ إِلَىٰ الصَّبْرِ، وَكَانَ النَّبِيُّ -ﷺ- يَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَاتِ المَعْدُودَةِ التِي يَسْهُلُ عَلَىٰ السَّامِعِ فَهْمُهَا، وَأَحْيَانًا يُكَرِّرُهَا ثَلَاثًا.
- لَا بَأْسَ مِنْ كِتَابَةِ المَادَّةِ العِلْمِيَّةِ وَالتَّدَرُّبِ عَلَىٰ قِرَاءَتِهَا مَرَّاتٍ عِدَّةً، وَبَعْدَ الإِحَاطَةِ الكَامِلَةِ بِهَا يُمْكِنُهُ قِرَاءَتُهَا عَلَىٰ أَذْهَانِ السَّامِعِينَ، وَذَلِكَ خَشْيَةَ نِسْيَانِ بَعْضِ العَنَاصِرِ أَوِ الشَّوَاهِدِ، فَيَدْخُلَ فِي حَالَةِ انْقِطَاعٍ وَارْتِبَاكٍ، وَمَعَ وُجُودِ الوَرَقَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ يُمْكِنُهُ العَوْدَةُ إِلَىٰ الشَّاهِدِ مَتَىٰ شَاءَ.
- خُطُوَاتُ **التَّحْضِيرِ:**
  - أَوَّلاً تَحْدِيدُ المَوْضُوعِ الذِي سَيُحَاضِرُ فِيهِ.
  - تَقْسِيمُ المَوْضُوعِ إِلَىٰ مَحَاوِرَ.
  - اخْتِيَارُ الشَّوَاهِدِ لِكُلِّ مِحْوَرٍ.
  - إِعْدَادُ التَّعْلِيقِ المُنَاسِبِ عَلَىٰ تِلْكَ المَحَاوِرِ وَالشَّوَاهِدِ.
  - تَخَيُّرُ مُقَدِّمَةٍ مُشْرِقَةٍ لِلْمَوْضُوعِ تَشُدُّ انْتِبَاهَ المُخَاطَبِ.

- تَخَيُّرُ خَاتِمَةٍ مُؤَثِّرَةٍ تُلَخِّصُ مَا تَقَدَّمَ.
- قَدْ يَكُونُ الجَدْوَلُ مُفِيداً فِي التَّحْضِيرِ.

المقدمة: تَمْهِيدٌ لِلْمَوْضُوعِ مِنْ خِلَالِ طَرْحِ تَسَاؤُلَاتٍ مَثَلاً، أَوْ مِنْ خِلَالِ ذِكْرِ آيَةٍ أَوْ حَدِيثٍ.

المحاور:

- **الأَوَّلُ:** تَعْرِيفٌ فِي المَوْضُوعِ.
- **الثَّانِي:** مُنَاقَشَةُ المَوْضُوعِ مِنْ خِلَالِ نِقَاطٍ.
- **الثَّالِثُ:** مُقَارَنَةُ المَوْضُوعِ مَعَ الوَاقِعِ لِاسْتِخْلَاصِ العِبَرِ.
- **الرَّابِعُ:** يُمْكِنُ إِضَافَةُ مَحَاوِرَ أُخْرَىٰ.
- **الخَاتِمَةُ:** تَلْخِيصٌ لِأَهَمِّ النِّقَاطِ التِي مَرَّتْ فِي المَحَاوِرِ.

المَنَارَةُ الرَّابِعَةُ: المِحْوَرُ الشَّخْصِيُّ:

لَا بُدَّ لِلدَّاعِيَةِ إِلَىٰ اللهِ أَنْ تَتَوَفَّرَ فِيهِ صِفَاتٌ شَخْصِيَّةٌ تُؤَهِّلُهُ لِامْتِلَاكِ بَصِيرَةٍ كَافِيَةٍ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ فَاهِمًا وَمُتْقِنًا لَهُ مِنْ جَوَانِبِهِ كَافَّةً، وَكُلَّمَا كَانَ مُتْقِنًا لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ كُلَّمَا كَانَ إِيصَالُهُ لِلسَّامِعِ أَفْضَلَ، فَمَا كَانَ وَاضِحًا فِي ذِهْنِكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُوَضِّحَهُ لِغَيْرِكَ، قَالَ رَبُّنَا -ﷻ-: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة يوسف: ١٠٨].

٢ - «**عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ-مِنْ طَرِيقِ أَبِي رَوْقٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ-فِي قَوْلِهِ:** ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [سورة يوسف: ١٠٨]، قَالَ: دَعْوَتِي».

٣ - «**عَنْ قَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ-مِنْ طَرِيقِ سَعِيدٍ-فِي قَوْلِهِ:** ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [سورة يوسف: ١٠٨] أَيْ: عَلَىٰ هُدًىٰ ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف: ١٠٨]».

إِنَّ امْتِلَاكَ صِفَاتٍ شَخْصِيَّةٍ مُمَيَّزَةٍ تَجْعَلُ الدَّاعِيَةَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْلَمَ الحَلَالَ وَالحَرَامَ، وَيُعَلِّمَ النَّاسَ الفَرْقَ بَيْنَ السُّنَّةِ وَالبِدْعَةِ، وَالتَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ، وَالطَّاعَةِ وَالمَعْصِيَةِ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ تَجْعَلُهُ مُحَبَّبًا لَدَىٰ المَدْعُوِّينَ.

وَهُنَا بَعْضُ النَّصَائِحِ التِي نَضَعُهَا بَيْنَ يَدَيْ أَخِينَا الدَّاعِيَةِ تُسَاعِدُهُ فِي بِنَائِهِ الشَّخْصِيِّ:

○ إِخْلَاصُ النِّيَّةِ لِلَّهِ، فَمَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ تَقَبَّلَ اللهُ عَمَلَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَرَكَ الإِخْلَاصَ تُرِكَ وَنَفْسَهُ فَلَا عَوْنَ وَلَا قَبُولَ:

إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ اللهِ عَوْنٌ لِلْفَتَىٰ فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

○ الصَّبْرُ وَعَدَمُ تَعَجُّلِ النَّتَائِجِ، فَقَدْ لَبِثَ الأَنْبِيَاءُ فِي أَقْوَامِهِمْ سِنِينَ طَوِيلَةً يَدْعُونَهُمْ إِلَىٰ اللهِ فَمَا آمَنَ مَعَهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، وَيَأْتِي النَّبِيُّ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ أَحَدٌ فَسُبْحَانَ اللهِ مَا أَصْبَرَهُمْ! قَالَ رَبُّنَا -ﷻ-: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الأنعام: ٣٤].

○ لَا بُدَّ لِلدَّاعِيَةِ مِنِ امْتِلَاكِ سِمَةِ التَّوَاضُعِ وَاخْتِيَارِ الأَلْفَاظِ وَالأَسَالِيبِ التِي تُعَبِّرُ عَنْ ذَلِكَ التَّوَاضُعِ حَتَّىٰ لَا يُصْبِحَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ حَاجِزٌ يَصُدُّهُمْ عَنِ الاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ.

○ مِنَ الضَّرُورِيِّ جِدّاً عَدَمُ مُهَاجَمَةِ المَدْعُوِّينَ بِشَكْلٍ مُبَاشِرٍ وَتَسْفِيهِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مُبَاشَرَةً، بَلْ لَابُدَّ لَهُ مِنْ قَوْلِ الحَقِّ وَعَرْضِهِ أَمَامَهُمْ بِطَرِيقَةٍ صَحِيحَةٍ قَوِيَّةٍ، وَيَتْرُكُ لَهُمْ مُقَارَنَةَ وَاقِعِهِمْ بِمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ.

وَإِنَّهُ لَوْ بَدَأَ بِمُهَاجَمَةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ؛ فَسَيَجِدُ مِنْهُمْ إِعْرَاضاً وَمُقَاوَمَةً كَبِيرَةً ضِدَّهُ، وَلَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُ الحَقَّ مَهْمَا كَانَ، لِذَا مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ يَنْتَبِهَ الدَّاعِيَةُ إِلَىٰ ذَلِكَ.

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٨]، وَهَذَا تَوْجِيهٌ رَبَّانِيٌّ لِكُلِّ دَاعِيَةٍ إِلَىٰ اللهِ.

○ إِدْرَاكُ عِظَمِ المُهِمَّةِ مَعَ عِظَمِ الدَّوْرِ الذِي يَقُومُ بِهِ الدَّاعِيَةُ، مَعَ عِظَمِ الأَجْرِ بِإِذْنِ اللهِ.

○ الهِمَّةُ العَالِيَةُ فَأَنْتَ-أَخِي الدَّاعِيَةِ-سَلِيلُ أُولَئِكَ الآبَاءِ العِظَامِ مِنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ الذِينَ مَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ الإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ، وَتَابَعُوا طَرِيقَهُمْ مُحْتَسِبِينَ أَجْرَهُمْ عَلَىٰ اللهِ نَاصِرِينَ اللهَ وَرَسُولَهُ بِمَا عَلَّمَهُمُ اللهُ.

أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ إِذَا جَمَعَتْنَا يَا جَرِيرُ المَجَامِعُ

○ الهَمُّ عَلَىٰ الدَّعْوَةِ وَمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ حَالُ النَّاسِ اليَوْمَ مِنْ جَهْلٍ بِالسُّنَّةِ، وَانْدِرَاسِ مَعْلَمِهَا وَالجَهْلِ بِعُلَمَائِهَا، فَحَلَّ الرُّوَيْبِضَاتُ عَلَىٰ شَكْلِ قُدُوَاتٍ، وَطَلَبُ العِلْمِ عَلَىٰ يَدِ كُلِّ نَاعِقٍ.

○ الدَّاعِيَةُ الحَقُّ مُتَطَوِّرٌ بِشَكْلٍ دَائِمٍ فِي عِلْمِهِ وَفِي أَسَالِيبِهِ وَطَرَائِقِ دَعْوَتِهِ، وَهَذَا مَا يَجْعَلُكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ مُنْجِزاً لِرِسَالَتِكَ عَلَىٰ الوَجْهِ الأَكْمَلِ، وَهَذَا التَّطَوُّرُ يُخْرِجُكَ مِنَ الرُّوتِينِ وَالكَلَامِ المَكْرُورِ الذِي لَا يَفْتَأُ البَعْضُ يُعِيدُهُ عَلَىٰ أَسْمَاعِ النَّاسِ، فَيَمَلُّوكَ وَيُعْرِضُونَ عَنْكَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعُدْ لَدَيْكَ مَا يَشُدُّهُمْ.

○ لَا بُدَّ لِلدَّاعِيَةِ مِنْ تَرْتِيبِ أَهْدَافِهِ وَتُذَكِّرَ تِلْكَ الأَهْدَافُ بِشَكْلٍ دَائِمٍ حَتَّىٰ لَا يَتَحَوَّلَ عَمَلُهُ إِلَىٰ جُهْدٍ عَشْوَائِيٍّ، وَرُوتِينٍ مُمِلٍّ، فَيَبْدَأُ بِمَا هُوَ أَهَمُّ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالشَّرِيحَةِ التِي يَدْعُوهَا، ثُمَّ يَنْقُلُهُمْ إِلَىٰ مِحْوَرٍ آخَرَ ثُمَّ إِلَىٰ آخَرَ وَهَكَذَا.

○ اسْتِحْضَارُ الأَجْرِ الكَبِيرِ، وَالمَوْقِفِ العَظِيمِ الذِي وَقَفَتْ فِيهِ لِتُعَلِّمَ النَّاسَ الخَيْرَ، وَذَلِكَ كُلَّمَا اعْتَرَضَتْكَ عَوَارِضُ أَوْ فَتَرَتْ عَزِيمَتُكَ.

○ لَا بُدَّ لِلدَّاعِيَةِ مِنَ اللِّينِ وَمُخَاطَبَةِ النُّفُوسِ بِطَرِيقَةِ المُشْفِقِ الذِي يُرِيدُ نَجَاةَ النَّاسِ، بَعِيداً عَنِ الاسْتِعْلَاءِ عَلَيْهِمْ، وَالتَّنَقُّصِ مِنْهُمْ وَالبَحْثِ عَنْ نِقَاطِ الالْتِقَاءِ مَعَهُمْ مِنْ أَجْلِ الدُّخُولِ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ كَانَتْ صِفَةُ الرَّحْمَةِ التِي مَنَحَهَا اللهُ -ﷻ- لِنَبِيِّنَا -ﷺ- مَحَطَّ مَدْحٍ وَثَنَاءٍ عَلَيْهِ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]، وَهُوَ -ﷺ- قُدْوَةٌ لِلدُّعَاةِ أَجْمَعِينَ.

○ تَظْهَرُ خِبْرَةُ الدَّاعِيَةِ وَحِنْكَتُهُ فِي التَّمْيِيزِ بَيْنَ مُسْتَوَيَاتِ المُخَاطَبِينَ وَأَحْوَالِهِمْ وَمُسْتَوَيَاتِهِمُ الثَّقَافِيَّةِ وَالعِلْمِيَّةِ، وَخَلْفِيَّاتِهِمُ الشَّرْعِيَّةِ، وَتَصَوُّرَاتِهِمْ عَنِ المَنْهَجِ وَالدَّعْوَةِ، وَعَلَىٰ الدَّاعِيَةِ إِجْرَاءُ المُوَازَنَةِ اللَّازِمَةِ مِنْ أَجْلِ نَجَاحِ مُهِمَّتِهِ، فَمُخَاطَبَةُ النَّاسِ عَلَىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ أَمْرٌ شَرْعِيٌّ.

○ لَا بُدَّ لَكَ مِنَ العِنَايَةِ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ وَآدَابِهِ وَأَسَالِيبِهِ، فَهُوَ الوَسِيلَةُ المُؤَثِّرَةُ فِي السَّامِعِ، وَمَنْ كَثُرَ لَحْنُهُ أَعْرَضَتْ عَنْهُ الآذَانُ، وَمَنْ كَانَتْ أَسَالِيبُهُ سَطْحِيَّةً لَا تَخْتَلِفُ كَثِيراً عَنْ أَسَالِيبِ العَامَّةِ فَلَنْ يُحْدِثَ كَثِيرَ أَثَرٍ فِي السَّامِعِ.

○ امْتِلَاكُ آدَابِ الحَدِيثِ مِنْ حَيْثُ إِنْزَالُ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ كِبَاراً كَانُوا أَمْ صِغَاراً، وَكَذَلِكَ امْتِلَاكُ آدَابِ الاسْتِمَاعِ عِنْدَمَا يَتَحَدَّثُ مَعَهُ مُنَاقِشٌ أَوْ مُسْتَفْسِرٌ، فَلَا يُقَلِّلُ مِنَ السُّؤَالِ مَهْمَا كَانَ، وَلَا يُسَفِّهُ أَحَداً مَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَسَاسٌ بِالدِّينِ قَصْداً وَعَمْداً مِنْ قِبَلِ السَّائِلِ.

○ أَنْ يَكُونَ الدَّاعِيَةُ قُدْوَةً حَسَنَةً لِلنَّاسِ فِي حَالِهِ وَقَالِهِ وَصِدْقِ كَلَامِهِ وَحِرْصِهِ عَلَىٰ إِيصَالِ الخَيْرِ وَالنُّصْحِ لَهُمْ.

○ تَمْرِينُ الذَّاكِرَةِ عَلَىٰ الحِفْظِ وَالتَّذَكُّرِ وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ التَّكْرَارِ وَالمُرَاجَعَةِ، وَحِفْظِ الشَّوَاهِدِ.

○ التَّأَنِّي فِي الدَّعْوَةِ عَامَّةً، وَفِي قِرَاءَةِ المُحَاضَرَةِ أَوِ الخُطْبَةِ خَاصَّةً، وَإِعْطَائِهَا حَقَّهَا مِنَ التَّلْوِينِ الصَّوْتِيِّ بَيْنَ ارْتِفَاعٍ وَانْخِفَاضٍ، وَبَيْنَ تَرْكِيزٍ عَلَىٰ بَعْضِ العَنَاصِرِ مِنْ خِلَالِ تَكْرَارِهَا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الحَالَةُ.

○ عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ شَدِيدَ المُلَاحَظَةِ وَالانْتِبَاهِ أَثْنَاءَ كَلَامِكَ، وَاخْتِيَارِ الكَلَامِ الدَّقِيقِ وَالمُنَاسِبِ لِلْمَقَامِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً انْتِقَاءُ الشَّوَاهِدِ وَالفَوَائِدِ وَتَدْوِينُهَا أَثْنَاءَ قِرَاءَتِكَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَعُمُومِ الكُتُبِ الأُخْرَىٰ، مِنْ أَجْلِ بِنَاءِ الخُطَبِ وَمَوْضُوعَاتِ الدُّرُوسِ عَلَيْهَا.

○ عَلَىٰ الخَطِيبِ أَوِ الدَّاعِيَةِ أَنْ يَهْتَمَّ بِالأَسْئِلَةِ التَّالِيَةِ أَثْنَاءَ إِعْدَادِ الخُطْبَةِ أَوِ المُحَاضَرَةِ لِأَنَّ السَّامِعَ يَهْتَمُّ بِهَا كَثِيراً:

- مَنْ يُلْقِي المُحَاضَرَةَ؟
- كَيْفَ يُلْقِيهَا؟
- وَمَاذَا احْتَوَتْ هَذِهِ المَادَّةُ؟

وَمَرَاجِعُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي بِنَاءِ اعْتِقَادِهِمْ هِيَ الكُتُبُ المُسْنَدَةُ السَّلَفِيَّةُ التِي بُنِيَتْ عَلَىٰ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالإِجْمَاعِ وَالآثَارِ، فَهِيَ المِيزَانُ الذِي تُعْرَضُ عَلَيْهِ كُلُّ المَقَالَاتِ وَالمُؤَلَّفَاتِ التِي جَاءَتْ بَعْدَهُمْ.

❁❁❁

فَصْلٌ فِي: مسائل علم العقيدة وأصول الدين

عَقِيدَةُ أَهْلِ الإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ لَهَا مَوْضُوعَاتٌ أَسَاسِيَّةٌ تُبْنَىٰ عَلَيْهَا الأَسْمَاءُ وَالأَحْكَامُ وَالأُصُولُ وَالْفُرُوعُ وَهِيَ عَلَىٰ وَجْهِ الإِجْمَالِ:

- مَسَائِلُ الإِيمَانِ وَقَوَاعِدُهُ وَمَسَائِلُ الأَسْمَاءِ وَالأَحْكَامِ.
- التَّوْحِيدُ بِأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ: الرُّبُوبِيَّةُ-الأُلُوهِيَّةُ-الأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ.
- أَرْكَانُ الإِيمَانِ: المَلَائِكَةُ-الكُتُبُ-الرُّسُلُ-اليَوْمُ الآخِرُ وَالقَدَرُ.
- الصَّحَابَةُ -رضي الله عنهم-.
- أُصُولُ التَّلَقِّي المُمَيِّزَةُ لِأَهْلِ الإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ.

أَنْوَاعُ المُصَنَّفَاتِ العَقَدِيَّةِ السَّلَفِيَّةِ:

- العَقَائِدُ المُخْتَصَرَةُ.[(١)]
- العَقَائِدُ بِالأَدِلَّةِ المُخْتَصَرَةِ.[(٢)]
- العَقَائِدُ المُسْنَدَةُ المُطَوَّلَةُ.[(٣)]
- كُتُبُ الرُّدُودِ.[(٤)]
- القَصَائِدُ.[(٥)]

---

(١) المُجَرَّدَةُ عَنِ الأَدِلَّةِ: كَـ«عَقِيدَةِ الرَّازِيَّيْنِ».

(٢) «كَـ«شَرْحِ السُّنَّةِ» لِحَرْبٍ الكَرْمَانِيِّ، وَالبَرْبَهَارِيِّ».

(٣) كَـ«السُّنَّةِ» لِعَبْدِ اللهِ، وَ«السُّنَّةِ» لِأَبِي بَكْرٍ الخَلَّالِ، وَ«الإِبَانَةِ الكُبْرَىٰ» لِابْنِ بَطَّةَ، وَ«الشَّرِيعَةِ» لِلْآجُرِّيِّ.

(٤) كَكِتَابَيِ الدَّارِمِيِّ، وَ«الرَّدِّ عَلَى الجَهْمِيَّةِ» لِأَحْمَدَ، وَ«الرَّدِّ عَلَى الجَهْمِيَّةِ» لِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَغَيْرِهَا...

(٥) كَقَصِيدَةِ عَبَّادِ بْنِ بَشَّارٍ فِي ذَمِّ الرَّافِضَةِ، وَقَصِيدَةِ الحَكَمِ بْنِ مَعْبَدٍ فِي «مُجْمَلِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ»، وَقَصِيدَةِ إِسْمَاعِيلَ التِّرْمِذِيِّ فِي «مُجْمَلِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ»، وَقَصِيدَةِ ابْنِ ابي دَاوُدَ فِي «أُصُولِ السُّنَّةِ»، وَ«مَنْظُومَةِ قَوَاعِدِ أَهْلِ السُّنَّةِ» لِلزَّنْجَانِيِّ،

مُسَمَّيَاتُ عِلْمِ الْعَقِيدَةِ:

- **المُصَنَّفَاتُ فِي عِلْمِ العَقِيدَةِ كَثِيرَةٌ وَالعُلَمَاءُ تَارَةً:** يُسَمُّونَهَا بِاسْمِ: «التَّوْحِيد».
- **وَتَارَةً: يُسَمُّونَهَا بِاسْمِ:** «الإِيمَانِ»؛ كَكِتَابِ الإِيمَانِ لِأَبِي عُبَيْدٍ القَاسِمِ بْنِ سَلَامٍ، وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَالعَدَنِيِّ.
- **وَتَارَةً: يُسَمُّونَهَا بِاسْمِ:** «السُّنَّةِ»؛ كَكِتَابِ «السُّنَّةِ» لِعَبْدِ اللهِ ابْنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ، وَحَرْبِ الكَرْمَانِيِّ.
- **وَتَارَةً: بِاسْمِ: «الاعْتِقَادِ» مِثْلُ:** اعْتِقَادِ الأَوْزَاعِيِّ، وَالثَّوْرِيِّ.
- **وَكِتَابُ اللَّالِكَائِيِّ:** «شَرْحُ أُصُولِ الاعْتِقَادِ»، وَغَيْرِهَا.
- **وَتَارَةً: يُسَمُّونَهَا بِاسْمِ:** «الشَّرِيعَةِ»، كَكِتَابِ الآجُرِّيِّ، وَابْنِ بَطَّةَ.
- **وَتَارَةً: بِاسْمِ:** «أُصُولِ الدِّينِ».

وَعَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ مِنْهَا مَسَائِلُ ظَاهِرَةٌ لَا يَسَعُ فِيهَا الغَلَطُ وَلَا الخَطَأُ وَلَا الجَهْلُ وَلَا التَّأْوِيلُ، وَمِنْهَا مَسَائِلُ خَفِيَّةٌ يُعْذَرُ بِهَا فِي أَحْوَالٍ مَخْصُوصَةٍ.

وَالمُخَالَفَةُ فِي الاعْتِقَادِ وَالخَطَأُ مِنْهُ مَا هُوَ كُفْرٌ بِاللهِ مُخْرِجٌ مِنَ المِلَّةِ وَمِنْهُ مَا بِدْعَةٌ دُونَ الكُفْرِ.

❁❁❁

وَمَنْظُومَةِ السَّلَفِيِّ فِي السُّنَّةِ، وَغَيْرِهَا...

فَصْلٌ فِي: فضل التوحيد ومنزلته وأهميته

تَوْحِيدُ اللهِ -ﷻ- وَإِفْرَادُهُ بِالعِبَادَةِ هُوَ غَايَةُ خَلْقِ العَالَمِينَ، وَهُوَ أَصْلُ دَعْوَةِ المُرْسَلِينَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَا يُخَاطَبُ بِهِ النَّاسُ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ، وَهُوَ سَبَبُ العِصْمَةِ وَالأَمْنِ فِي الدُّنْيَا وَالنَّجَاةِ وَالفَوْزِ فِي الآخِرَةِ، وَهُوَ الشَّرْطُ لِصِحَّةِ وَقَبُولِ سَائِرِ الطَّاعَاتِ.

مَعْرِفَةُ اللهِ هُوَ الأَمْرُ الأَوَّلُ، وَهُوَ الأَمْرُ الأَهَمُّ، وَهُوَ الأَمْرُ الأَعْظَمُ، مَعْرِفَةُ اللهِ لَا شَكَّ أَنَّهَا أَهَمُّ العُلُومِ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا أَوْجَبُ العُلُومِ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا أَشْرَفُ العُلُومِ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، العِلْمُ -كَمَا قَالُوا- بِشَرَفِ المَعْلُومِ، وَاللهُ أَشْرَفُ مَعْلُومٍ، فَالعِلْمُ بِهِ أَشْرَفُ العُلُومِ، العِلْمُ بِاللهِ هُوَ الأَهَمُّ، فَمَنْ عَرَفَ اللهَ عَرَفَ كُلَّ شَيْءٍ، وَمَنْ جَهِلَ اللهَ فَهُوَ لِمَا سِوَاهُ أَجْهَلُ، أَيُّ شَيْءٍ يَسْتَفِيدُهُ الإِنْسَانُ فِي حَيَاتِهِ وَيُحَصِّلُهُ إِذَا كَانَ جَاهِلاً بِرَبِّهِ وَخَالِقِهِ وَمُدَبِّرِهِ وَإِلَهِهِ وَمَعْبُودِهِ وَمَحْبُوبِهِ، فَهَذَا العِلْمُ أَشْرَفُ العُلُومِ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، وَأَوْجَبُ العُلُومِ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، وَأَهَمُّهَا عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، وَصَاحِبُهُ قَدْ حِيزَتْ لَهُ السَّعَادَةُ مِنْ أَطْرَافِهَا، كَيْفَ لَا وَكُلُّ أَبْوَابِ الخَيْرِ إِنَّمَا تُفْتَحُ لِصَاحِبِ هَذِهِ المَعْرِفَةِ، مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ إِلَىٰ العِلْمِ بِاللهِ؛ إِلَىٰ العِلْمِ بِأَسْمَائِهِ، إِلَىٰ العِلْمِ بِصِفَاتِهِ، إِلَىٰ العِلْمِ بِحَقِّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، إِلَىٰ العِلْمِ بِحُدُودِ مَا أَنْزَلَ عَلَىٰ رُسُلِهِ عليهم الصلاة والسلام، فَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ قَدْ حَازَ خَيْرَ الأُمُورِ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، وَأَفْضَلَ الأُمُورِ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، وَهَذَا هُوَ الإِنْسَانُ المُوَفَّقُ السَّعِيدُ، هَذَا القَدْرُ لَا شَكَّ أَنَّهُ قَدْرٌ وَاجِبٌ يَجِبُ أَنْ يُحَصِّلَهُ الإِنْسَانُ، وَيَجِبُ أَنْ يَسْعَىٰ فِي أَنْ يَصِفَ نَفْسَهُ بِهِ، أَنْ يَصِفَ نَفْسَهُ بِالعِلْمِ بِاللهِ، بَلْ أَنْ تَكُونَ الحَيَاةُ كُلُّ هَذِهِ الحَيَاةِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ قَائِمَةً بِمُقْتَضَىٰ هَذِهِ المَعْرِفَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ.

فَهُوَ الغَايَةُ التِي خُلِقْنَا لِأَجْلِهَا وَأُوجِدْنَا لِتَحْقِيقِهَا، وَهُوَ مِحْوَرُ دَعْوَةِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، وَهُوَ أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَىٰ المُكَلَّفِ، وَهُوَ سَبَبُ الأَمْنِ وَالاهْتِدَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَهُوَ السَّبِيلُ الوَحِيدُ لِلسَّلَامَةِ مِنَ الاضْطِرَابِ وَالتَّنَاقُضِ، وَهُوَ الرَّابِطَةُ الحَقِيقَةُ البَاقِيَةُ المُسْتَمِرَّةُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَلَفْظُ التَّوْحِيدِ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ مَنْسُوبًا إِلَىٰ اللهِ -ﷻ-، لِأَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِذَاتِهِ.[(١)]

لِذَلِكَ فَالتَّوْحِيدُ هُوَ الاعْتِقَادُ بِأَنَّ اللهَ فَرْدٌ أَحَدٌ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ، وَإِفْرَادُهُ بِالعِبَادَةِ.

أَمَّا إِنَّهُ غَايَةُ خَلْقِ العَالَمِينَ، فَلِقَوْلِهِ -ﷻ-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الذاريات: ٥٦].

وَأَمَّا إِنَّهُ دَعْوَةُ الرُّسُلِ أَجْمَعِينَ فَلِقَوْلِهِ -ﷻ-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٢٥] وَقَالَ -ﷻ-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة النحل: ٣٦].

٤- **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «أَنَا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِعِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّىٰ وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ».**[(٢)]

وَقَالَ -ﷻ-: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [سورة المائدة: ٤٨].

٥- **رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ-مِنْ طَرِيقِ سَعِيدٍ-فِي قَوْلِهِ -ﷻ-:** ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، يَقُولُ: سَبِيلًا وَسُنَّةً، وَالسُّنَنُ مُخْتَلِفَةٌ؛ لِلتَّوْرَاةِ شَرِيعَةٌ، وَلِلْإِنْجِيلِ شَرِيعَةٌ، وَلِلْقُرْآنِ شَرِيعَةٌ، يُحِلُّ اللهُ فِيهَا مَا يَشَاءُ، وَيُحَرِّمُ مَا يَشَاءُ، كَيْ يَعْلَمَ اللهُ مَنْ يُطِيعُهُ مِمَّنْ يَعْصِيهِ، وَلَكِنِ الدِّينُ

---

(١) **التَّوْحِيدُ لُغَةً:** مَصْدَرُ وَحَّدَ يُوَحِّدُ تَوْحِيداً، وَهُوَ تَفْعِيلٌ وَمَعْنَاهُ الإِفْرَادُ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الوَحْدَةِ وَالانْفِرَادِ، وَلَفْظُ التَّوْحِيدِ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ مَنْسُوبًا إِلَىٰ اللهِ -ﷻ-، لِأَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِذَاتِهِ وَالْمُسْتَحِقُّ بِأَنْ يُفْرَدَ بِالعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

فَالتَّوْحِيدُ هُوَ الاعْتِقَادُ بِتَفَرُّدِ اللهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَفْعَالِ عِبَادِهِ التَّعَبُّدِيَّةِ، لِأَنَّهُ الوَاحِدُ ذُو الوَحْدَانِيَّةِ.

انْظُرْ: كِتَابَ العَيْنِ ٣/ ٢٨٠-٢٨١، وَالصِّحَاحَ، (ج٢/ ٥٤٧)، وَلِسَانَ العَرَبِ، مَادَّةَ: وَحَدَ، (٦/ ٤٧٧٩).

قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: «الوَاوُ وَالحَاءُ وَالدَّالُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَىٰ الانْفِرَادِ مَقَايِيسُ اللُّغَةِ لِابْنِ فَارِسٍ ٦/ ٩٠-٩١.

قَالَ الخَلِيلُ: «وَالتَّوْحِيدُ: الإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَاللهُ الوَاحِدُ الأَحَدُ ذُو التَّوَحُّدِ وَالوَحْدَانِيَّةِ».

انْظُرْ: العَيْنَ لِلْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ الفَرَاهِيدِيِّ ٣/ ٢٨١ وَالمُحْكَمَ وَالمُحِيطَ الأَعْظَمَ، لِابْنِ سِيدَهْ ٣/ ٣٧٥ ٣٧٨ وَتَهْذِيبَ اللُّغَةِ لِلْأَزْهَرِيِّ ٥/ ١٩٣.

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٤/ ٤٤٤).

الوَاحِدُ الذِي لَا يُقْبَلُ غَيْرُهُ التَّوْحِيدُ وَالإِخْلَاصُ الذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ.[(١)]

٦- **قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ** -رحمه الله-: حَدَّثَنَا غَوْثُ بْنُ جَابِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ عُقَيْلاً، يَقُولُ: سَمِعْتُ وَهْبَ بْنِ مُنَبِّهٍ سُئِلَ: مَا كَانَتْ شَرِيعَةُ أَيُّوبَ -عليه السلام- ؟ قَالَ: التَّوْحِيدُ، وَصَلَاحُ ذَاتِ البَيْنِ، وَإِذَا كَانَتْ لِأَحَدِهِمْ حَاجَةٌ، خَرَّ لِلَّهِ سَاجِداً ثُمَّ طَلَبَ حَاجَتَهُ.[(٢)]

وَأَمَّا إِنَّهُ أَوَّلُ مَا يُخَاطَبُ بِهِ النَّاسُ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ فَلِقَوْلِهِ -سبحانه وتعالى-: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ٦٤].

٧- **وَلِقَوْلِهِ** -صلى الله عليه وسلم- **مُعَاذٍ لَهُ حِينَ أَرْسَلَهُ إِلَىٰ اليَمَنِ: «يَا مُعَاذُ إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ** -عز وجل-، **فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ»**.

٨- **وَأَمَّا إِنَّهُ سَبَبُ العِصْمَةِ وَالأَمْنِ فِي الدُّنْيَا** فَلِأَنَّ الإِقْرَارَ بِالتَّوْحِيدِ يَعْصِمُ الدَّمَ وَالمَالَ، وَيُثْبِتُ عَقْدَ الإِسْلَامِ، كَمَا قَالَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ**».

وَالتَّوْحِيدُ يُثْمِرُ الأَمْنَ التَّامَّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، قَالَ -سبحانه وتعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الأنعام: ٨٢].

وَأَمَّا إِنَّهُ سَبَبُ النَّجَاةِ وَالفَوْزِ فِي الآخِرَةِ فَلِقَوْلِهِ -سبحانه وتعالى-: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة المائدة: ٧٢].

٩- **وَلِقَوْلِهِ حِينَ سُئِلَ: «وَمَا المُوجِبَتَانِ؟»** فَقَالَ: «**مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ**»، وَقَالَ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ -سبحانه وتعالى-: «**يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ**

---

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ٨/ ٤٩٣-٤٩٤، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ٤/ ١١٥٢ (٦٤٨٨). وَذَكَرَهُ يَحْيَىٰ بْنُ سَلَامٍ -كَمَا فِي تَفْسِيرِ ابْنِ أَبِي زَمَنِينَ ٢/ ٣٢.

(٢) الزُّهْدُ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ ٣٨/ ١.

أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

وَأَمَّا إِنَّهُ الشَّرْطُ لِصِحَّةِ وَقَبُولِ سَائِرِ العِبَادَاتِ، فَلِقَوْلِهِ -ﷻ- فِي حَقِّ المُؤْمِنِينَ العَامِلِينَ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة النساء: ١٢٤].

وَلِقَوْلِهِ -ﷻ- عَنْ أَعْمَالِ الكَافِرِينَ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الفرقان: ٢٣].

فَالشِّرْكُ مُحْبِطٌ لِجَمِيعِ الطَّاعَاتِ، قَالَ -ﷻ-: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الزمر: ٦٥]، فَكَمَا لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ بِغَيْرِ وُضُوءٍ، لَا تُقْبَلُ عِبَادَةٌ بِغَيْرِ تَوْحِيدٍ.

وَكَذَلِكَ فَالتَّوْحِيدُ أَوَّلُ مَا يَتَعَلَّمُهُ المُسْلِمُ، قَالَ -ﷻ-: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [سورة محمد: ١٩].

وَأَوْجَبُ مَا يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ، قَالَ -ﷻ- عَلَىٰ لِسَانِ أَنْبِيَائِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الأعراف: ٥٩]، فَهُوَ عُمْدَةُ الأُصُولِ التِي يَنْطَلِقُ مِنْهَا الدَّاعِيَةُ فِي دَعْوَتِهِ إِلَىٰ اللهِ، وَالتَّوْحِيدُ أَصْلُ كُلِّ صَلَاحٍ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ، كَمَا أَنَّ الشِّرْكَ أَصْلُ كُلِّ فَسَادٍ، وَهُوَ أَسَاسُ دَعْوَةِ المُرْسَلِينَ وَرَأْسُهَا وَأَكْمَلُ مَا فِيهَا، بَلْ لَيْسَ فِي دَعَوَاتِ المُرْسَلِينَ وَلَا فِي كُتُبِ رَبِّ العَالَمِينَ شَيْءٌ أَعْظَمُ مِنَ التَّوْحِيدِ، فَأَعْظَمُ مَا عُنِيَ بِهِ الأَنْبِيَاءُ أَجْمَعُونَ وَأَكْثَرُ مَا بَيَّنُوهُ وَاتَّفَقُوا عَلَىٰ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَالابْتِدَاءِ بِهِ قَبْلَ غَيْرِهِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ ضِدِّهِ هُوَ التَّوْحِيدُ، فَالقَضِيَّةُ العُظْمَىٰ فِي دَعْوَتِهِمْ هِيَ التَّوْحِيدُ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ أَسَاسُ المِلَّةِ، وَالرُّكْنُ الأَكْبَرُ فِي الدِّينِ.

فَهَذَا نُوحٌ وَهُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ -عليهم السلام- أَعْلَمَنَا اللهُ -ﷻ- قَوْلَهُمْ لِقَوْمِهِمْ فِي مُفْتَتَحِ دَعْوَتِهِمْ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

وَقَالَ اللهُ -ﷻ- حَاكِيًا قَوْلَ نُوحٍ -عليه السلام- لِقَوْمِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة هود: ٢٥-٢٦].

وَقَالَ -ﷻ- حَاكِيًا قَوْلَ نُوحٍ أَيْضًا: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [سورة نوح: ١-٣].

وَإِبْرَاهِيمُ -عليه السلام- قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الزخرف: ٢٦-٢٧].

وَقَالَ لَهُمْ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة العنكبوت: ١٦-١٧].

وَيُوسُفُ -عليه السلام- قَالَ: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة يوسف: ٣٩].

وَعِيسَىٰ -عليه السلام- قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة المائدة: ٧٢].

وَمُحَمَّدٌ -ﷺ-: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [سورة الكافرون: ١-٦].

١٠- قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما-: لَيْسَ فِي القُرْآنِ سُورَةٌ أَشَدُّ لِغَيْظِ إِبْلِيسَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ؛ لِأَنَّهَا تَوْحِيدٌ وَبَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ.(١)

وَقَالَ لَهُمْ: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٨].

وَقَالَ لَهُمْ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [سورة يوسف: ١٠٨].

وَقَالَ -تعالى-: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الزمر: ١١-١٥].

---

(١) تَفْسِيرُ الثَّعْلَبِيِّ ١٠/ ٣١٥.

وَقَالَ -ﷻ-: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦﴾ [سورة فصلت: ٦].

وَقَالَ -ﷻ-: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾ [سورة آل عمران: ٦٤].

١١ - **وَرُوِيَ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عَبَّادٍ الدُّؤَلِيِّ** -رضي الله عنه- **قَالَ:** رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ فِي الجَاهِلِيَّةِ بِسُوقِ ذِي المَجَازِ وَهُوَ يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**».

١٢ - **وَرُوِيَ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ** -رضي الله عنه- **قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ** -ﷺ- **قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ:** «**أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**».

وَلَمَّا سَأَلَهُ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ: «**وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ؟**»

قَالَ: «**أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ وَكَسْرِ الأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ**».

ثُمَّ إِنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ بِيَوْمَيْنِ فَوَجَدَهُمَا يُصَلِّيَانِ، فَقَالَ عَلَىٰ: مَا هَذَا يَا مُحَمَّدُ؟

فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «**دِينُ اللهِ الذِي اصْطَفَىٰ لِنَفْسِهِ وَبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ، فَأَدْعُوكَ إِلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ، وَإِلَىٰ عِبَادَتِهِ، وَكُفْرٍ بِاللَّاتِ وَالعُزَّىٰ**»، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: هَذَا أَمْرٌ لَمْ أَسْمَعْ بِهِ قَبْلَ اليَوْمِ فَلَسْتُ بِقَاضٍ أَمْراً حَتَّىٰ أُحَدِّثَ أَبَا طَالِبٍ، فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- أَنْ يُفْشِيَ عَلَيْهِ سِرَّهُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَعْلِنَ أَمْرُهُ، فَقَالَ لَهُ: «**يَا عَلِيُّ إِذَا لَمْ تُسْلِمْ فَاكْتُمْ**»، فَمَكَثَ عَلِيٌّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ إِنَّ اللهَ أَوْقَعَ فِي قَلْبِ عَلِيٍّ الإِسْلَامَ، فَأَصْبَحَ غَادِيًا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- حَتَّىٰ جَاءَهُ فَقَالَ: مَا عَرَضْتَ عَلَيَّ يَا مُحَمَّدُ؟

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «**تَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَكْفُرَ بِاللَّاتِ وَالعُزَّىٰ، وَتَبْرَأَ مِنَ الأَنْدَادِ**»، فَفَعَلَ عَلِيٌّ وَأَسْلَمَ، وَمَكَثَ عَلِيٌّ يَأْتِيهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ أَبِي طَالِبٍ، وَكَتَمَ عَلِيٌّ إِسْلَامَهُ وَلَمْ يُظْهِرْ بِهِ.

فَسَمَّىٰ النَّبِيُّ -ﷺ- عِبَادَةَ اللهِ وَحْدَهُ وَالكُفْرَ بِالأَصْنَامِ وَالبَرَاءَةَ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ (الإِسْلَامَ)

(دِينَ اللهِ).[١]

١٣ - وَحِينَ بَعَثَ مُعَاذاً إِلَىٰ اليَمَنِ أَمَرَهُ أَنْ يَبْدَأَ دَعْوَتَهُ بِالتَّوْحِيدِ، فَقَالَ: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَىٰ».

١٤ - وَرُوِيَ عَنْ أَبِي الهَيَّاجِ الأَسَدِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَىٰ مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالاً إِلَّا طَمَسْتَهُ، وَلَا قَبْراً مُشْرِفاً إِلَّا سَوَّيْتَهُ».[٢]

١٥ - وَقَالَ -ﷺ-: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ»: ثُمَّ عَبَّرَ -ﷺ- بِعِدَّةِ عِبَارَاتٍ دَالَّةٍ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ كُلُّهَا مُتَرَادِفَةٌ وَبِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ:

الأُولَىٰ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ.

الثَّانِيَةُ: عَلَىٰ أَنْ يُوَحَّدَ اللهُ.

الثَّالِثَةُ: عَلَىٰ أَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَيُكْفَرَ بِمَا دُونَهُ.

الرَّابِعَةُ: إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ.

وَجَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ كَانُوا كَذَلِكَ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾ [سورة الممتحنة: ٤].

١٦ - رُوِيَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ -مِنْ طَرِيقِ ابْنِ وَهْبٍ- فِي قَوْلِ اللهِ -ﷻ-: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾، قَالَ: الذِينَ مَعَهُ: الأَنْبِيَاءُ.[٣]

وَاعْلَمْ أَنَّ النَّجَاةَ مُتَعَلِّقَةٌ بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ:

قَالَ -ﷻ-: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [سورة الشعراء: ٨٨-٨٩].

وَالقَلْبُ السَّلِيمُ هُوَ قَلْبُ المُوَحِّدِ، الذِي أَسْلَمَ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَسَلِمَ وَسَلَّمَ.

١٧ - رُوِيَ عَنِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ -مِنْ طَرِيقِ جَسْرِ بْنِ فَرْقَدٍ- فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ

---

(١) فِي «سِيرَةِ ابْنِ اسْحَاقَ = السِّيَرُ وَالمَغَازِي» (ص١٣٧)

(٢) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» (٣/ ٦١).

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ٢٢/ ٥٦٦.

سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾، قَالَ: سَلِيمٌ مِنَ الشِّرْكِ.

١٨ - **وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ:** ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ فِي الآخِرَةِ ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ مِنَ الشِّرْكِ، مُخْلِصًا لِلَّهِ -ﷻ- بِالتَّوْحِيدِ.

كَيْفَ لَا وَقَلِيلُ هَذَا التَّوْحِيدِ يُنْجِي مِنَ الخُلُودِ فِي النَّارِ، وَكَثِيرُهُ يُنْجِي مِنْ دُخُولِهَا بِرَحْمَةِ اللهِ، فَالمُوَحِّدُ نَاجٍ فِي الآخِرَةِ قَطْعًا بِرَحْمَةِ الرَّحْمَنِ.

١٩ - **رُوِيَ عَنْ عُبَادَةَ -رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ:** «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَالجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ».

٢٠ - **وَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-:** «فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ».

٢١ - **وَرُوِيَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضي الله عنه- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- يَقُولُ:** «قَالَ اللهُ -ﷻ-: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَىٰ مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

فَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَىٰ عِظَمِ شَأْنِ التَّوْحِيدِ، وَأَنَّ التَّوْحِيدَ الحَقَّ أَعْظَمُ سَبَبٍ لِمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ.

٢٢ - **وَشَاهِدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ -ﷺ-:** «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاًّ، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلَ مَدِّ البَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا، أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَىٰ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ».

إِذاً لَا شَكَّ أَنَّ التَّوْحِيدَ أَهَمُّ المُهِمَّاتِ، وَأَوَّلُ الأَوَّلِيَّاتِ، وَأَوْجَبُ الوَاجِبَاتِ، وَمَرْكَزُ المَرْكَزِيَّاتِ، وَهُوَ أَعْظَمُ مَأْمُورٍ، وَهُوَ الحِكْمَةُ مِنَ الوُجُودِ قَالَ -ﷻ-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا

﴿لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [سورة الذاريات: ٥٦].

٢٣ - رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ-مِنْ طَرِيقِ أَبِي مَعْشَرٍ-فِي قَوْلِهِ -ﷻ-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾، قَالَ: إِلَّا لِيَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

٢٤ - وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾، يَعْنِي: إِلَّا لِيُوَحِّدُونِ.

وَدَعْوَةُ النَّاسِ لِلتَّوْحِيدِ هُوَ بِمَنْزِلَةِ إِحْيَائِهِمْ:

تَوْحِيدُ اللهِ -ﷻ-، وَإِفْرَادُهُ بِالعِبَادَةِ وَنَبْذُ الشِّرْكِ وَكُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ -ﷻ- هُوَ الحَيَاةُ الحَقِيقِيَّةُ، وَالسَّعَادَةُ الأَبَدِيَّةُ السَّرْمَدِيَّةُ وَالنُّورُ الذِي يُضِيءُ لِصَاحِبِهِ طَرِيقَ الهُدَىٰ وَالسَّعَادَةِ.

كَمَا قَالَ -ﷻ- مُمْتَنًّا عَلَىٰ عِبَادِهِ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٢٢﴾ [سورة الأنعام: ١٢٢].

٢٥ - رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَوْلِهِ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٢٢﴾ [سورة الأنعام: ١٢٢]، يَقُولُ: الهُدَىٰ يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ يَقُولُ: فَهُوَ الكَافِرُ يَهْدِيهِ اللهُ لِلْإِسْلَامِ، يَقُولُ: كَانَ مُشْرِكًا فَهَدَيْنَاهُ ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٢]. (١)

٢٦ - قَالَ الْحَسَنُ -رحمه الله-: مِنْ إِحْيَائِهَا أَنْ يُنَجِّيَهَا مِنَ الْقَوَدِ، فَيَعْفُوَ عَنْهَا، أَوْ يُفَادِيَهَا مِنَ الْعُدْوَانِ، وَيُنَجِّيَهَا مِنَ الْغَرَقِ، وَمِنَ الْحَرْقِ، وَمِنَ السَّبُعِ، وَأَفْضَلُ إِحْيَائِهَا أَنْ يُنَجِّيَهَا مِنْ كُفْرِهَا وَضَلَالَتِهَا. (٢)

٢٧ - وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [سورة آل عمران: ٣٩] يَقُولُ: عَبْدٌ أَحْيَاهُ اللهُ بِالإِيمَانِ. (٣)

٢٨ - وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ قَوْلَهُ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ قَالَ: إِنَّمَا سُمِّيَ يَحْيَىٰ لِأَنَّ اللهَ أَحْيَاهُ

---

(١) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (١٢/ ٩١).

(٢) «تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَزِيزِ لِابْنِ أَبِي زَمَنِينَ» (٢/ ٢٣).

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ -رحمه الله- فِي تَفْسِيرِهِ ٢/ ٦٤١ (٦٤٥٥) مِنْ طَرِيقِ شَيْبَانَ، عَنْ قَتَادَةَ.

بِالإِيمَانِ.(١)

٢٩ - وَرُوِيَ عَنِ السُّدِّيِّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ [سورة الأنفال: ٢٤] قَالَ: أَمَّا ﴿يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ فَهُوَ الإِسْلَامُ، أَحْيَاهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ؛ بَعْدَ كُفْرِهِمْ.(٢)

٣٠ - وَرُوِيَ عَنِ الحَسَنِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ [سورة آل عمران: ٢٧]، يَعْنِي: المُؤْمِنَ مِنَ الكَافِرِ، وَالكَافِرَ مِنَ المُؤْمِنِ، وَالمُؤْمِنُ عَبْدٌ حَيُّ الفُؤَادِ، وَالكَافِرُ عَبْدٌ مَيِّتُ الفُؤَادِ.(٣)

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [سورة الأنفال: ٢٤].

وَأَعْلَمْ أَنَّ العِزَّةَ أَصْلُ العِزَّةِ بِالتَّوْحِيدِ:

قَالَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣].

٣١ - رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ قَوْلِهِ: ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾: كَانَ هَذَا الحَيُّ مِنَ العَرَبِ أَذَلَّ النَّاسِ ذُلاًّ، وَأَشْقَاهُ عَيْشاً، وَأَبْيَنَهُ ضَلَالَةً، وَأَعْرَاهُ جُلُوداً، وَأَجْوَعَهُ بُطُوناً، مَكْعُومِينَ عَلَىٰ رَأْسِ حَجَرٍ بَيْنَ الأَسَدَيْنِ فَارِسَ وَالرُّومِ، لَا وَاللهِ، مَا فِي بِلَادِهِمْ يَوْمَئِذٍ مِنْ شَيْءٍ يُحْسَدُونَ عَلَيْهِ، مَنْ عَاشَ مِنْهُمْ عَاشَ شَقِيّاً، وَمَنْ مَاتَ رُدِيَ فِي النَّارِ، يُؤْكَلُونَ وَلَا يَأْكُلُونَ، وَاللهِ مَا نَعْلَمُ قَبِيلاً يَوْمَئِذٍ مِنْ حَاضِرِ الأَرْضِ كَانُوا فِيهَا أَصْغَرَ حَظّاً وَأَدَقَّ فِيهَا شَأْناً مِنْهُمْ، حَتَّىٰ جَاءَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بِالإِسْلَامِ، فَوَرَّثَكُمْ بِهِ الكِتَابَ، وَأَحَلَّ لَكُمْ بِهِ دَارَ الجِهَادِ، وَوَضَعَ لَكُمْ بِهِ مِنَ الرِّزْقِ، وَجَعَلَكُمْ بِهِ مُلُوكاً عَلَىٰ رِقَابِ النَّاسِ، وَبِالإِسْلَامِ

---

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي تَفْسِيرِهِ ٢/ ٦٤٢ (٣٤٥٧) مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ بِهِ.

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي تَفْسِيرِهِ ٥/ ١٦٨٠ مِنْ طَرِيقِ أَحْمَدَ بْنِ مُفَضَّلٍ بِهِ.

(٣) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٥/ ٣١٠) وَعَزَاهُ السُّيُوطِيُّ فِي الدُّرِّ المَنْثُورِ ٢/ ١٥ لِأَبِي الشَّيْخِ.

أَعْطَىٰ اللهُ مَا رَأَيْتُمْ، فَاشْكُرُوا نِعَمَهُ، فَإِنَّ رَبَّكُمْ مُنْعِمٌ يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ، وَإِنَّ أَهْلَ الشُّكْرِ فِي مَزِيدِ اللهِ، فَتَعَالَىٰ رَبُّنَا وَتَبَارَكَ.(١)

وَقَالَ -ﷻ-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [سورة المنافقون: ٨].

وَأَهْلُ التَّوْحِيدِ هُمْ أَهْلُ الأَمْنِ:

قَالَ -ﷻ-: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩﴾ [سورة النمل: ٨٩].

٣٢ - **رُوِيَ عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ أَبِي أُنَيْسَةَ:** أَنَّهُ سَأَلَ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ عَنْ قَوْلِ اللهِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩﴾ قَالَ عَطَاءٌ: مَنْ جَاءَ بِالتَّوْحِيدِ فَلَهُ خَيْرٌ وَقُوَّةٌ، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ [سورة النمل: ٩٠] فَقَالَ عَطَاءٌ: مَنْ جَاءَ بِالشِّرْكِ، قَالَ: وَسَمِعْتُ عَطَاءً يَقُولُ: أَلَمْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِ: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [سورة الليل: ٦-٧]، يَقُولُ: مَنْ صَدَّقَ بِالتَّوْحِيدِ، ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩﴾ [سورة الليل: ٨-٩] كَذَّبَ بِالتَّوْحِيدِ؟(٢)

٣٣ - **وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الأَعْلَىٰ:** ثَنَا المُعْتَمِرُ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَنَّ النَّاسَ حِينَ يُبْعَثُونَ لَيْسَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا فَزِعَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا عِبَادِي، لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ، فَيَرْجُوهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ، قَالَ: فَيُتْبِعُهَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٦٩﴾ [سورة الزخرف: ٦٩] قَالَ: فَيَيْأَسُ النَّاسُ مِنْهَا غَيْرُ المُسْلِمِينَ.(٣)

وَالتَّوْحِيدُ أَمَانٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكَيْدِهِ فَلَا شَيْءَ أَقْطَعُ لِمَكْرِهِ وَكَيْدِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ:

٣٤ - **قَالَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ سَمِعْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ يَقُولُ:** لَيْسَ شَيْءٌ أَقْطَعُ لِظَهْرِ إِبْلِيسَ مِنْ قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.(٤)

فَكَلِمَةُ التَّوْحِيدِ هِيَ الحَسَنَةُ إِذَا حَقَّقَ المَرْءُ شُرُوطَهَا، وَانْتَفَتْ عَنْهُ مَوَانِعُهَا، وَقَامَ بِمُقْتَضَاهَا، فَإِنَّ مَنْ قَالَ هَذِهِ الكَلِمَةَ عَارِفًا لِمَعْنَاهَا، عَامِلاً بِمُقْتَضَاهَا ظَاهِراً وَبَاطِنًا، مِنْ نَفْيِ الشِّرْكِ، وَإِثْبَاتِ

---

(١) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٥/ ٦٥٩).

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ وَهْبٍ فِي الجَامِعِ ١٤٢-١٤٣ (٨٨).

(٣) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٠/ ٦٤١).

(٤) «الحِلْيَةُ» (٧/ ١٦).

العِبَادَةِ لِلَّهِ، مَعَ الاعْتِقَادِ الجَازِمِ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ، وَالعَمَلِ، فَهُوَ المُسْلِمُ حَقّاً.

وَسَبَبُ تَفْسِيرِ الحَسَنَةِ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ مَعَ أَنَّ الحَسَنَةَ تَشْمَلُ كُلَّ عَمَلِ بِرٍّ وَإِحْسَانٍ: أَنَّ أَعْمَالَ البِرِّ دَاخِلَةٌ فِي التَّوْحِيدِ، فَإِنَّ عِبَادَةَ اللهِ بِمَا أَمَرَ بِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [سورة البقرة: ١١٢].

وَقَالَ -تَعَالَى-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤]، فَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ التَّوْحِيدُ، وَهِيَ كَالشَّجَرَةِ وَالأَعْمَالُ ثِمَارُهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ.

وَقَالَ -تَعَالَى-: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [سورة الأنعام: ٨١].

٣٥ - **قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ:** قَالَ لَهُمْ: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ أَنَا أَوْ أَنْتُمْ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مَنْ عَبَدَ إِلَهاً وَاحِداً أَحَقُّ بِالأَمْنِ أَمْ مَنْ عَبَدَ أَرْبَاباً شَتَّىٰ؟ يَعْنِي: آلِهَةً صِغَاراً وَكِبَاراً، ذُكُوراً وَإِنَاثاً، فَكَيْفَ لَا يُخَافُ مِنَ الكَبِيرِ إِذَا سُوِّيَ بِالصَّغِيرِ؟ وَكَيْفَ لَا يُخَافُ مِنَ الذَّكَرِ إِذَا سُوِّيَ بِالأُنْثَىٰ؟ أَخْبِرُونِي أَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ مِنَ الشَّرِّ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، فَرَدَّ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَقَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الأنعام: ٨٢] (١)

٣٦ - **عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ:** ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾: أَمَنْ يَعْبُدُ رَبّاً وَاحِداً، أَمَنْ يَعْبُدُ أَرْبَاباً كَثِيرَةً؟ يَقُولُ قَوْمُهُ: الذِينَ آمَنُوا بِرَبٍّ وَاحِدٍ. (٢)

فَأَهْلُ التَّوْحِيدِ الذِينَ حَقَّقُوهُ بِإِخْلَاصِ العِبَادَةِ لِلَّهِ -تَعَالَى- وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ أَحَداً مَهْمَا كَانَ قَدْرُهُ أَوْ عَظُمَ شَأْنُهُ أُولَئِكَ الذِينَ يَنَالُهُمُ الأَمْنُ التَّامُّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَالاهْتِدَاءُ الكَامِلُ فِيهِمَا وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، فَإِظْهَارُ فَضَائِلِ التَّوْحِيدِ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ الكَثِيرَةِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ كَانَ مِنْ نَهْجِ الأَنْبِيَاءِ.

---

(١) تَفْسِيرُ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ ١/ ٥٧٢.

(٢) رَوَاهُ الطَّبَرِيُّ (٩/ ٣٦٧).

فَهَذَا نَبِيُّ اللهِ نُوحٌ -عليه السلام- يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الشِّرْكِ وَيَذْكُرُ لَهُمْ أَثْنَاءَ ذَلِكَ شَيْئًا مِنْ ثَمَرَاتِ التَّوْحِيدِ وَمَحَاسِنِهِ حَيْثُ يَعِدُهُمْ إِنْ هُمُ اسْتَجَابُوا بِمَغْفِرَةِ اللهِ لِذُنُوبِهِمْ وَتَأْخِيرِهِ لِآجَالِهِمْ وَذَلِكَ بِعَدَمِ مُعَاجَلَتِهِمُ التِي قَدْ تَحُلُّ بِهِمْ إِنْ هُمْ بَقُوا عَلَىٰ شِرْكِهِمْ كَمَا قَالَ -تعالى- حِكَايَةً عَنْهُ -عليه السلام-: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰٓ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [سورة نوح: ٢-٤].

وَهَذَا نَبِيُّ اللهِ هُودٌ -عليه السلام- قَالَ -تعالى- حِكَايَةً عَنْهُ -عليه السلام-: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾ [سورة هود: ٥٢].

وَحِينَمَا دَعَا إِبْرَاهِيمُ -عليه السلام- قَوْمَهُ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَنَبْذِ الشِّرْكِ وَالأَصْنَامِ بَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ عِبَادَةَ اللهِ وَحْدَهُ وَتَقْوَاهُ سَبَبٌ لِحُصُولِ الخَيْرَاتِ كَمَا قَالَ -تعالى-: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٦﴾ [سورة العنكبوت: ١٦].

فَكُلُّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَإِنَّهُ مِنْ آثَارِ عِبَادَةِ اللهِ وَتَقْوَاهُ.

قَالَ -تعالى-: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾ [سورة هود: ١-٣].

وَحَقِيقَةُ هَذَا التَّوْحِيدِ أَنْ يُوَحِّدَ العَبْدُ رَبَّهُ فَلَا يُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا لَا فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا فِي أُلُوهِيَّتِهِ وَلَا فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

وَحَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ أَنْ يَكُونَ اللهُ العَظِيمُ عِنْدَكَ أَحَبَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَخْوَفَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَرْجَىٰ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَكُونَ دِينُكَ كُلُّهُ ظَاهِراً وَبَاطِنًا لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، فَيَكُونَ لِسَانُ حَالِكَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ، تَنْصَاعُ لِأَمْرِهِ وَتُصَدِّقُ قَوْلَهُ فَيَسْلَمُ قَلْبُكَ وَجَوَارِحُكَ مِنْ ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ وَدَنَسِهِ كَبِيرِهِ وَصَغِيرِهِ.

وَاعْلَمْ يَا عَبْدَ اللهِ أَنَّكَ مَا خُلِقْتَ إِلَّا لِلتَّوْحِيدِ فَهِيَ القَضِيَّةُ الكُبْرَىٰ فِي حَيَاتِكَ فَلَمْ تُخْلَقْ إِلَّا لِتَكُونَ مُوَحِّداً فَتُوَحِّدَ اللهَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ فَتَعْتَقِدَ أَنَّ النَّفْعَ وَالضُّرَّ بِيَدِهِ وَأَنَّهُ لَا يَأْتِي بِالحَسَنَاتِ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ سِوَاهُ وَأَنْ تُفْرِدَهُ فِي عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ وَجَمَالِهِ وَأَنْ تُوَحِّدَهُ فِي عِبَادَتِكَ فِي دُعَائِكَ

وَاسْتِغَاثَتِكَ وَاسْتِعَاذَتِكَ وَفِي نَذْرِكَ وَذَبْحِكَ وَرُكُوعِكَ وَسُجُودِكَ.

٣٧ - **رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ قَوْلَهُ:** ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [سورة البقرة: ١٣٧] وَنَحْوُ هَذَا، قَالَ: أَخْبَرَ اللهُ -سبحانه وتعالى- أَنَّ الإِيمَانَ هُوَ العُرْوَةُ الوُثْقَىٰ، وَأَنَّهُ ((لَا يَقْبَلُ عَمَلًا إِلَّا بِهِ))، = وَلَا تَحْرُمُ الجَنَّةُ إِلَّا عَلَىٰ مَنْ تَرَكَهُ.(١)

٣٨ - فَالتَّوْحِيدُ: أَوَّلُ مَا يُدْخَلُ بِهِ فِي الإِسْلَامِ وَآخِرُ مَا يُخْرَجُ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: «**مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ**».

فَهُوَ أَوَّلُ وَاجِبٍ وَآخِرُ وَاجِبٍ.

وَالتَّوْحِيدُ: أَوَّلُ الأَمْرِ وَآخِرُهُ.(٢)

وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ آيَةٍ فِي القُرْآنِ مُتَضَمِّنَةٌ لِلتَّوْحِيدِ شَاهِدَةٌ عَلَيْهِ بِهِ، دَاعِيَةٌ إِلَيْهِ، فَإِنَّ القُرْآنَ إِمَّا خَبَرٌ عَنِ اللهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَهُوَ التَّوْحِيدُ العِلْمِيُّ الخَبَرِيُّ، وَإِمَّا دَعْوَةٌ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَخَلْعُ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، فَهُوَ التَّوْحِيدُ الإِرَادِيُّ الطَّلَبِيُّ، وَإِمَّا أَمْرٌ وَنَهْيٌ وَإِلْزَامٌ بِطَاعَتِهِ فِي نَهْيِهِ وَأَمْرِهِ، فَهِيَ حُقُوقُ التَّوْحِيدِ وَمُكَمِّلَاتُهُ، وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ كَرَامَةِ اللهِ لِأَهْلِ تَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَمَا يُكْرِمُهُمْ بِهِ فِي الآخِرَةِ، فَهُوَ جَزَاءُ تَوْحِيدِهِ، وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ الشِّرْكِ وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ النَّكَالِ وَمَا يَحِلُّ بِهِمْ فِي العُقْبَىٰ مِنَ العَذَابِ، فَهُوَ خَبَرٌ عَمَّنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ التَّوْحِيدِ.

فَالقُرْآنُ كُلُّهُ فِي التَّوْحِيدِ وَحُقُوقِهِ وَجَزَائِهِ وَفِي شَأْنِ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ وَجَزَائِهِمْ.

وَإِذَا أَرَدْتَ فَهْمَ ذَلِكَ فَانْظُرْ فِي فَاتِحَةِ الكِتَابِ وَالسُّورَةِ التِي خُتِمَ فِيهَا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [سورة الفاتحة: ٢-٥].

فَقَوْلُهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دَالٌّ عَلَىٰ الرُّبُوبِيَّةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ دَالٌّ عَلَىٰ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: ٥] دَالٌّ عَلَىٰ الأُلُوهِيَّةِ.

---

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ٢/ ٦٠٠، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ١/ ٢٤٤ (١٣٠٧).

(٢) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» (٤/ ٤٤٠ ط عَطَاءَاتِ العِلْمِ).

وَالحَمْدُ دَالٌّ عَلَىٰ هَذِهِ المَعَانِي كُلِّهَا.

هَذَا فِي فَاتِحَةِ الكِتَابِ، وَمِثْلُهُ مَا خُتِمَ بِهِ الكِتَابُ العَزِيزُ مِنْ سورة الناس، فِي قَوْلِهِ -ﷻ-: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [سورة الناس: ١-٢].

فَقَوْلُهُ -ﷻ-: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ دَالٌّ عَلَىٰ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس: ٢] دَالٌّ عَلَىٰ تَوْحِيدِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس: ٣] دَالٌّ عَلَىٰ تَوْحِيدِ العِبَادَةِ.

وَاعْدُدْ بَيْنَ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ (الفاتحة والناس) مَا شِئْتَ مِنَ الآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ فَلَا تَكَادُ تَمُرُّ بِآيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ -ﷻ- إِلَّا وَفِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَىٰ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَاتِّصَافِهِ -ﷻ- بِالأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ اللَّائِقَةِ بِجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ إِمَّا بِطَرِيقِ التَّضَمُّنِ أَوِ الاقْتِضَاءِ أَوِ اللُّزُومِ، فَلَا تَخْلُو سُورَةٌ مِنَ القُرْآنِ مِنَ التَّوْحِيدِ بِإِشَارَةٍ أَوْ بِصَرِيحِ عِبَارَةٍ، فَكُلُّ دَعْوَةٍ مَهْمَا ضَاقَتْ يَجِبُ أَنْ تَتَّسِعَ لِلتَّوْحِيدِ فَمَا زَادَ فَلِغَيْرِهِ.

وَالتَّوْحِيدُ عِلْمٌ فِطْرِيٌّ تُدْرِكُهُ العُقُولُ السَّلِيمَةُ وَقَدْ أَخَذَ اللهُ -ﷻ- المِيثَاقَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ آيَاتِهِ التِي فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا كُلَّهَا دَالَّةً عَلَيْهِ، التَّوْحِيدُ الذِي هُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الإِلَهُ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّهُ -ﷻ- لَهُ الرُّبُوبِيَّةُ المُطْلَقَةُ وَالقُدْرَةُ التَّامَّةُ وَأَنَّهُ -ﷻ- لَهُ الكَمَالُ فِي صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ.

وَمِنْ تِلْكَ الحُجَجِ التِي أَسَّسَ اللهُ بِهَا هَذَا التَّوْحِيدَ:

حُجِّيَّةُ المِيثَاقِ:

لَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِنْ بَنِي آدَمَ -وَهُمْ فِي عَالَمِ الذَّرِّ قَبْلَ الخَلْقِ- مِيثَاقًا غَلِيظًا عَلَىٰ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَكْفُرُوا بِكُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ؛ ثُمَّ فَطَرَ المَوْلَىٰ جَلَّ فِي عُلَاهُ كُلَّ مَوْلُودٍ عَلَىٰ ذَلِكَ.

وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَعْصِمُ الخَلْقَ عَنِ الإِشْرَاكِ بِاللهِ وَاتِّخَاذِ النِّدِّ لَهُ هُوَ المِيثَاقُ الأَوَّلُ المُؤَكَّدُ بِالإِقْرَارِ وَالشُّهُودِ أَنَّهُ مَنْ أَشْرَكَ بِرَبِّهِ فَهُوَ خَائِنٌ لِعَهْدِهِ نَاقِضٌ لِمِيثَاقِهِ.

٣٩ - رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ -مِنْ طَرِيقِ سَعِيدٍ- فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠﴾ [سورة الرعد: ٢٠]، قَالَ: **فَعَلَيْكُمْ بِالوَفَاءِ بِالعَهْدِ، وَلَا تَنْقُضُوا المِيثَاقَ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ نَهَىٰ عَنْهُ، وَقَدَّمَ فِيهِ أَشَدَّ التَّقْدِمَةِ، وَذَكَرَهُ فِي بِضْعٍ وَعِشْرِينَ آيَةً؛ نَصِيحَةً لَكُمْ وَتَقْدِمَةً إِلَيْكُمْ، وَحُجَّةً عَلَيْكُمْ،**

وَإِنَّمَا تَعْظُمُ الأُمُورُ بِمَا عَظَّمَهَا اللهُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الفَهْمِ وَالعَقْلِ وَالعِلْمِ بِاللهِ، فَعَظِّمُوا مَا عظَّمَ اللهُ- قَالَ قَتَادَةُ: وَذُكِرَ لَنَا: أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- كَانَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ».(١)

قَالَ -ﷻ-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

هَذِهِ الآيَاتُ وَهِيَ آيَاتُ المِيثَاقِ الجَامِعَةُ القَاهِرَةُ القَاطِعَةُ لِأَعْذَارِ المُشْرِكِينَ المُبْطِلَةُ لَهَا وَالمُثْبِتَةُ لِحُجِّيَّةِ المِيثَاقِ فِي مَعْرِفَةِ اللهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَعُلُوِّهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ وَكَمَالِ صِفَاتِهِ.

٤٠- رُوِيَ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ-مِنْ طَرِيقِ أَبِي العَالِيَةِ-فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، قَالَ: جمعَهم جميعًا، فجعَلهم أرواحًا في صُوَرِهم، ثم استَنطَقهم، فتكلَّموا، ثم أخَذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم علىٰ أنفسِهم: ألستُ بربِّكم؟ قالوا: بلىٰ-قَالَ: فإنِّي أُشْهِدُ عليكم السماوات السبع، وأُشْهِدُ عليكم أباكم آدم؛ أن تقولوا يوم القيامة: إنّا لم نعْلَم بهذا-اعلَموا أنّه لا إله غيري، ولا ربَّ غيري، ولا تُشركوا بي شيئًا، إني سأُرْسِلُ إليكم رسلي يُذكِّرونكم عهدي وميثاقي، وأُنزِلُ عليكم كتبي، قالوا: شَهِدْنا بأنّك ربُّنا وإلهُنا، لا ربَّ لنا غيرُك، ولا إلهَ لنا غيرُك-فأقَرُّوا، ورُفِع عليهم آدم ينظُرُ إليهم، فرأىٰ الغني والفقير، وحسنَ الصورة ودونَ ذلك، فقال: يا ربِّ، لولا سوَّيْتَ بينَ عبادِك؟ قَالَ: إني أحبَبْتُ أن أُشْكَر-ورأىٰ الأنبياءَ فيهم مثلَ السُّرُج، عليهم النور، وخُصُّوا بميثاقٍ آخر في الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ أَنْ يُبلِّغوا، وهو قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٧] الآيَةَ وَهُوَ قَوْلِهِ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ [سورة الروم: ٣٠]-وَفِي ذَلِكَ قَالَ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٠٢]- وَفِي ذَلِكَ قَالَ: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۚ﴾ [سورة يونس: ٧٤]-قَالَ: فَكَانَ فِي عِلْمِ اللهِ يَوْمَئِذٍ مَنْ يُكذِّبُ بِهِ، وَمَنْ يُصَدِّقُ بِهِ.(٢)

---

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (١٣) / (٥٠٧)-(٥٠٨).

(٢) أَخْرَجَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ -رحمه الله- فِي زَوَائِدِ المُسْنَدِ (٣٥) / (١٥٥) ((٢١٢٣٢)، وَابْنُ جَرِيرٍ (١٠) / (٥٥٧)-(٥٥٨)، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَمِنَ الأَحَادِيثِ الوَارِدَةِ التِي أَشَارَتْ إِلَىٰ المِيثَاقِ الأَوَّلِ:

٤١- رَوَىٰ الإِمَام أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَىٰ الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ، قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي شَيْئًا».[1]

الحِكْمَةُ مِنَ المِيثَاقِ:

الأُولَىٰ: قَوْلُهُ -تعالى- ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢].

٤٢- رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- مِنْ طَرِيقِ السُّدِّيِّ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ وَأَبِي صَالِحٍ: فَقَالَ هُوَ اللهُ وَالمَلَائِكَةُ: ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢] قَالُوا: فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِلَّا وَهُوَ يَعْرِفُ اللهَ أَنَّهُ رَبُّهُ.[2]

فَبَيَّنَ اللهُ -تعالى- أَنَّ هَذَا عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ فِطْرِيٌّ لَابُدَّ لِكُلِّ بَشَرٍ مِنْ مَعْرِفَتِهِ.

وَالثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ -تعالى- ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٧٣].

٤٣- رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- مِنْ طَرِيقِ عَطِيَّةَ العَوْفِيِّ-قَوْلَهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما-: إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، وَأَخْرَجَ ذُرِّيَّتَهُ كُلَّهُمْ كَهَيْئَةِ الذَّرِّ، فَأَنْطَقَهُمْ، فَتَكَلَّمُوا، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَجَعَلَ مَعَ بَعْضِهِمُ النُّورَ، وَإِنَّهُ قَالَ لِآدَمَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، آخُذُ عَلَيْهِمُ المِيثَاقَ أَنِّي أَنَا رَبُّهُمْ، لِئَلَّا يُشْرِكُوا بِي شَيْئًا، وَعَلَيَّ

---

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ -رحمه الله-، وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا.

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ فِي التَّمْهِيدِ (١٨) / (٨٥)-(٨٦)، كَمَا أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ (١٠) / (٥٦١) نَحْوَهُ عَنِ السُّدِّيِّ.

رِزْقَهُمْ.[(١)]

٤٤- **وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ المَلِكِ ابْنِ جُرَيْجٍ، فِي قَوْلِهِ:** ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢]، قَالَ: عَنِ المِيثَاقِ الذِي أُخِذَ عَلَيْهِمْ، ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٧٣]، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ مِنَ الذُّرِّيَّةِ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا وَنَقَضُوا المِيثَاقَ، وَكُنَّا نَحْنُ ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ، أَفَتُهْلِكُنَا بِذُنُوبِ آبَائِنَا وَبِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ؟!

فَالمِيثَاقُ حُجَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ فِي بُطْلَانِ الشِّرْكِ عَلَىٰ كَافَّةِ البَشَرِ وَسَائِرِ الأُمَمِ؛ وَعَلَيْهِ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ الذُّرِّيَّةِ الاحْتِجَاجَ بِالغَفْلَةِ وَالجَهْلِ، وَلَا بِالاتِّبَاعِ وَالتَّقْلِيدِ عَلَىٰ جُرْمِ الشِّرْكِ أَوِ التَّعْطِيلِ.

الفِطْرَةُ:

خَلَقَ اللهُ -ﷻ- عِبَادَهُ حُنَفَاءَ مُوَحِّدِينَ لَهُ، وَعَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ -ﷻ-: بِالأُلُوهِيَّةِ، وَالرُّبُوبِيَّةِ، وَبِصِفَاتِهِ المُدْرَكَةِ بِالفِطْرَةِ-ﷻ-؛ وَلَوْ تُرِكَ النَّاسُ لِدَوَاعِي فِطَرِهِمْ لَمَا كَانُوا إِلَّا عَارِفِينَ بِاللهِ -ﷻ- وَاسْتِحْقَاقِهِ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَاتَّجَهَتْ فِطَرُهُمْ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَكَفَرَتْ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الشُّرَكَاءِ وَالأَنْدَادِ.

٤٥- **قِيلَ أَنَّ مَعْرُوفَ الكَرْخِيَّ كَانَ أَبَوَاهُ نَصْرَانِيَّيْنِ، فَأَسْلَمَاهُ إِلَىٰ مُؤَدِّبٍ كَانَ يَقُولُ لَهُ قُلْ:** ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، فَيَقُولُ مَعْرُوفٌ: بَلْ هُوَ الوَاحِدُ، فَيَضْرِبُهُ، فَيَهْرُبُ، فَكَانَ وَالِدَاهُ يَقُولَانِ: لَيْتَهُ رَجَعَ، ثُمَّ إِنَّ أَبَوَيْهِ أَسْلَمَا.[(٢)]

وَقَدْ أَجْمَعَتِ القُرُونُ الثَّلَاثَةُ الأُولَىٰ (المُقَدَّمَةُ فِي فَهْمِهَا وَعِلْمِهَا وَعَمَلِهَا عَلَىٰ كُلِّ مَنْ أَتَىٰ بَعْدَهَا، وَوَاحِدٌ مِنَ السَّلَفِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ مِنَ الخَلَفِ، وَشِعَارُنَا: الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ أَعْلَمُ) فَقَدْ أَجْمَعُوا عَلَىٰ تَفْسِيرِ الفِطْرَةِ: بِالإِسْلَامِ وَالحَنِيفِيَّةِ وَالدِّينِ وَالمِلَّةِ وَالعَهْدِ وَالمِيثَاقِ وَهَذِهِ التَّفَاسِيرُ بِتَنَوُّعِهَا تَدُلُّ عَلَىٰ مَعْنًىٰ وَاحِدٍ أَلَا وَهُوَ: الإِسْلَامُ.

فَالمَوْلَىٰ جَلَّ فِي عُلَاهُ-قَدْ فَطَرَ عِبَادَهُ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ وَالتَّأَلُّهِ، وَمُعْرِضِينَ عَنْ تَأَلُّهِ كُلِّ مَا

---

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (١٠) / (٥٥٥).

(٢) السِّيَرُ (٩/ ٣٣٩).

سِوَاهُ.

وَالفِطَرُ فِيهَا كَذَلِكَ: الإِقْرَارُ بِسَعَادَةِ النُّفُوسِ البَشَرِيَّةِ وَشَقَاوَتِهَا، وَجَزَائِهَا بِكَسْبِهَا فِي غَيْرِ هَذِهِ الدَّارِ؛ وَأَمَّا تَفْصِيلُ ذَلِكَ الجَزَاءِ، وَبَيَانُ مَرَاتِبِ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ فَلَا تُعْلَمُ إِلَّا بِالرُّسُلِ.

وَبِذَلِكَ شَهِدَتْ فِطَرُ وَعُقُولُ المُوَحِّدِينَ: بِأَنَّ اللهَ هُوَ المَعْبُودُ الحَقُّ، وَلَوْ لَمْ يُرْسِلْ بِذَلِكَ الرُّسُلَ، وَيُنْزِلْ بِهِ الكُتُبَ.

وَبِهَذَا تَكُونُ الفِطْرَةُ حُجَّةً مُسْتَقِلَّةً فِي بُطْلَانِ الشِّرْكِ، وَذَلِكَ لِسَبْقِ حُجِّيَّتِهَا: كَافَّةَ الحُجَجِ الدَّاحِضَةِ، وَالمَعَاذِيرِ السَّاقِطَةِ، وَالعِلَلِ العَلِيلَةِ التِي يَتَشَبَّثُ بِهَا المُشْرِكُونَ لِتَسْوِيغِ: افْتِرَائِهِمْ وَإِفْكِهِمْ.

وَلُجُوءُ الإِنْسَانِ وَفَزَعُهُ عِنْدَ الشِّدَّةِ وَالحَاجَةِ الَىٰ رَبِّهِ سَوَاءً كَانَ هَذَا الإِنْسَانُ مُوَحِّداً أَوْ مُشْرِكًا، فَإِنَّ بَنِي آدَمَ جَمِيعًا يَشْعُرُونَ بِحَاجَتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ الَىٰ اللهِ وَهَذَا الشُّعُورُ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ فِطْرِيٌّ، وَلِهَذَا نَرَىٰ المُشْرِكَ إِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ قَدْ تُؤَدِّي بِهِ الَىٰ الهَلَاكِ فَزِعَ الَىٰ خَالِقِهِ -ﷻ- وَالْتَجَأَ إِلَيْهِ وَحْدَهُ وَاسْتَغْنَىٰ بِهِ، وَلَمْ يَسْتَغْنِ عَنْهُ، وَلَيْسَ هَذَا إِلَّا بِفِطْرَتِهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة يونس: ٢٢].

٤٦- وَرُوِيَ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ».(١)

٤٧- وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَىٰ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- إِذَا أَصْبَحَ، قَالَ: «أَصْبَحْنَا عَلَىٰ فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ -ﷺ-، وَمِلَّةِ

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ-بَابُ الصِّفَاتِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ.

أَبِينَا إِبْرَاهِيم، حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ». [(١)]

وَبِذَلِكَ ظَهَرَ تَطَابُقٌ وَتَوَافُقٌ: الفِطَرِ، وَالعُقُولِ، وَالسَّمْعِ، وَتَبَيَّنَ خُرُوجُهُمْ جَمِيعاً مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَوْلِيَاءُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ المُوَحِّدُونَ المُخْلِصُونَ عَبَدُوهُ، وَوَحَّدُوهُ، وَأَحَبُّوهُ، وَمَجَّدُوهُ، وَحَمِدُوهُ؛ بِدَاعِي الفِطْرَةِ، وَدَاعِي العَقْلِ، وَدَاعِي النَّقْلِ فَاجْتَمَعَتْ لَهُمْ كَافَّةُ الدَّوَاعِي وَنَادَتْهُمْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَدَعَتْهُمْ إِلَىٰ: إِلَهِهِمْ وَوَلِيِّهِمْ وَفَاطِرِهِمْ.

أَمَّا المُشْرِكُونَ الذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ؛ فَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ قَطُّ-عَلَىٰ تَقَوُّلِهِمْ وَبَاطِلِهِمْ-دَلِيلٌ وَلَا حُجَّةٌ صَحِيحَةٌ مِنَ المَعْقُولِ أَوِ المَنْقُولِ، بَلْ وَفِي الفِطَرِ السَّلِيمَةِ خِلَافُ ذَلِكَ، هَذَا مَعَ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الأَدِلَّةِ وَالبَرَاهِينِ التِي نَصَبَهَا اللهُ تَعَالَىٰ شَاهِدَةً عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَنَاطِقَةً بِجُرْمِ المُشْرِكِينَ وَإِفْكِهِمْ.

وَالمُشْرِكُ قَدْ ظَنَّ بِاللهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ مِنَ النَّقْصِ وَالازْدِرَاءِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ-شَاءَ المُشْرِكُ ذَلِكَ أَمْ أَبَىٰ-حَتَّىٰ أَحْوَجَهُ ذَلِكَ إِلَىٰ عُبُودِيَّةِ غَيْرِهِ، وَتَأَلُّهِ سِوَاهُ.

فَلَوْ ظَنَّ بِاللهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ مِنْ أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ مَا وَقَعَ فِي عُبُودِيَّةِ غَيْرِهِ، وَلَا فِي تَأَلُّهِ أَحَدٍ سِوَاهُ.

وَبِهَذَا كَانَ جَوَازُ الشِّرْكِ فِي الفِطَرِ وَالعُقُولِ مُسْتَحِيلاً وَمُمْتَنِعاً، لِاسْتِلْزَامِهِ التَّنَقُّصَ بِالرَّحْمَنِ، وَالهَضْمَ لِحُقُوقِ رُبُوبِيَّتِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، مَعَ الظَّنِّ بِهِ-وَالحَالُ هَكَذَا-أَسْوَأَ الظَّنِّ وَأَشْنَعَهُ.

وَبِذَلِكَ تَكُونُ الفِطْرَةُ قَدْ قَطَعَتْ: كَافَّةَ الأَسْبَابِ الوَاهِيَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَىٰ: الشِّرْكِ، أَوِ التَّعْطِيلِ وَالإِلْحَادِ.

العَقْلُ:

لَقَدْ مَنَّ المَوْلَىٰ -ﷻ- عَلَىٰ عِبَادِهِ بِمِنَّةِ العَقْلِ لِيَعْرِفُوا بِهِ: مَعْبُودَهُمْ وَيُوَحِّدُوهُ، وَيُدْرِكُوا بِهِ أَسْمَاءَهُ الحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ العُلَىٰ المُنْبَثِقَ مِنْهَا: وَحْدَانِيَّةُ تَأَلُّهِهِ، وَكَذَا لِيَتَحَقَّقَ لَهُمْ بِهِ: قُبْحُ الشِّرْكِ، وَالفَوَاحِشِ، وَالخَبَائِثِ.

وَمِنْ ثَمَّ أَصْبَحَ أَوْجَبَ شَيْءٍ فِي العُقُولِ: عِبَادَةُ الفَاطِرِ الخَالِقِ المُنْعِمِ، وَكَذَا بُطْلَانُ عِبَادَةِ

---

(١) مُصَنَّفُ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ (٥) / (٣٢٤).

المَفْطُورِ المَخْلُوقِ، المَرْبُوبِ.

فَالعَقْلُ الصَّحِيحُ قَدْ عَرَّفَنَا: وُجُوبَ الإِقْرَارِ بِاللهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَشُكْرِ نِعَمِهِ، وَمَحَبَّتِهِ، وَطَاعَتِهِ.

وَعَرَّفَنَا: قُبْحَ الشِّرْكِ بِاللهِ، وَالإِعْرَاضِ عَنْهُ، وَنِسْبَتِهِ إِلَىٰ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ.

وَعَرَّفَنَا: وُجُوبَ المَآبِ بَعْدَ المَمَاتِ إِلَىٰ اللهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ.

وَعَرَّفَنَا: قُبْحَ الظُّلْمِ، وَالفَوَاحِشِ، وَالبَغْيِ، وَالعُدْوَانِ.

وَعَلَيْهِ أَصْبَحَ مِنَ المُمْتَنِعِ وَالمُسْتَحِيلِ عَقْلاً: جَوَازُ الشِّرْكِ بِاللهِ، إِذْ قُبْحُ ذَلِكَ مَرْكُوزٌ فِيهِ، وَلَوْ لَمْ يَأْتِ بِذَلِكَ شَرْعٌ.

بَلْ وَغَدَا مَحْضُ العَقْلِ كَافِيًا بِاتِّفَاقٍ فِي: مَعْرِفَةِ اللهِ وَتَوْحِيدِهِ؛ وَلَا يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ عَلَىٰ مُجَرَّدِ الخَبَرِ.

فَصِفَاتُ الكَمَالِ لِلَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَوُجُوبُ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ بِلَا شَرِيكٍ، مَعَ نَفْيِ النَّقَائِصِ وَالعُيُوبِ، وَتَنْزِيهِهِ عَنْهَا أَمْرٌ ثَابِتٌ لَهُ -ﷻ- بِمُقْتَضَىٰ الأَدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ، وَالبَرَاهِينِ اليَقِينِيَّةِ، مَعَ دَلَالَةِ السَّمْعِ عَلَيْهِ.

وَمِنْ ثَمَّ أَصْبَحَ العَقْلُ حُجَّةً مُسْتَقِلَّةً فِي بُطْلَانِ الشِّرْكِ، وَلَوْ لَمْ يَأْتِ بِحُرْمَتِهِ سَمْعٌ.

وَلِهَذَا أَنْكَرَ القُرْآنُ عَلَىٰ المُشْرِكِينَ: الوُقُوعَ فِي عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ، وَاقْتِرَافَ الفَوَاحِشِ وَالمُنْكَرَاتِ، وَذَمَّهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْرَعَ آذَانَهُمْ بِحُكْمٍ مِنَ السَّمْعِ يُخَالِفُونَهُ.

وَاحْتَجَّ القُرْآنُ عَلَيْهِمْ بِمَا جُبِلَتْ عُقُولُهُمْ، وَصِيغَتْ بِهِ مِنْ: حُسْنِ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَقُبْحِ الشِّرْكِ بِهِ وَعِبَادَةِ غَيْرِهِ، فَالمُشْرِكُ يَدْرِي وَيَعْقِلُ أَنَّ الرَّبَّ المَعْبُودَ أَيًّا كَانَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ إِلَهٌ آخَرُ؛ فَالرُّسُلُ قَدْ أُرْسِلَتْ لِاسْتِثَارَةِ العُقُولِ وَتَحْرِيرِهَا وَتَشْغِيلِهَا بَعْدَ التَّعْطِيلِ وَإِزَاحَةِ الهَوَىٰ عَنْهَا.

٤٨- **رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ:** لِيَتَفَكَّرْ مُتَفَكِّرٌ، وَلْيَتَذَكَّرْ مُتَذَكِّرٌ، وَيَرْجِعْ رَاجِعٌ، فَضَرَبَ الأَمْثَالَ وَبَعَثَ الرُّسُلَ لِيَعْقِلُوا عَنِ اللهِ أَمْرَهُ.[(١)]

٤٩- **وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ-مِنْ طَرِيقِ سَلَمَةَ بْنِ الفَضْلِ-:** يَضْرِبُ لَهُمُ الأَمْثَالَ، وَيُصَرِّفُ

(١) عَزَاهُ السُّيُوطِيُّ إِلَىٰ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ.

لَهُمُ العِبَرَ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ أَحَقُّ أَنْ يُخَافَ وَيُعْبَدَ مِمَّا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ.(١)

لِذَا كَانَتْ أَكْثَرُ مُحَاجَّةِ الرُّسُلِ فِي التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ مِنْ هَذَا الجِنْسِ:

كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ -عليه السلام-: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ [سورة الأنبياء: ٦٦-٦٧].

وَقَالَ لِأَبِيهِ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤﴾ [سورة مريم: ٤٢-٤٤].

وَقَالَ عَنِ الكَوَاكِبِ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٰٔفِلِينَ ۝٧٦﴾ [سورة الأنعام: ٧٦].

وَقَالَ مُوسَىٰ -عليه السلام-: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٨﴾ [سورة الشعراء: ٢٨]، رَدًّا عَلَىٰ قَوْلِ فِرْعَوْنَ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣﴾ [سورة الشعراء: ٢٣].

وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ -عليه السلام-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥٨﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨].

فَالمُشْرِكُ مُخَالِفٌ لِصَرِيحِ العَقْلِ وَأَهْلُ الشِّرْكِ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾ [سورة النمل: ١٤] وَتَدَبَّرْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾ [سورة النمل: ١٤] فَاليَقِينُ دَرَجَةٌ عَالِيَةٌ فَوْقَ المَعْرِفَةِ وَالفَهْمِ، فَهُمْ جَحَدُوا حَقَّ اللهِ -تعالى- **مَعَ أَنَّهُ وَاضِحٌ عِنْدَهُمْ لِدَرَجَةِ اليَقِينِ:**

٥٠- رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- **مِنْ طَرِيقِ عَطَاءٍ الخُرَاسَانِيِّ** ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: ١٤]، **قَالَ:** يَقِينُهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ.(٢)

---

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٩) / (٣٦٦).

(٢) سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ (٢) / (٣٠٥)-(٣٠٦).

٥١ - **وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ -مِنْ طُرُقٍ- فِي قَوْلِهِ:** ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ [سورة النمل: ١٤]، قَالَ: كَذَّبَتِ القَوْمُ بِآيَاتِ اللهِ بَعْدَ مَا اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ أَنَّهَا حَقٌّ، وَالجُحُودُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ المَعْرِفَةِ.(١)

لِذَلِكَ لَمَّا دَعَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ أَبَا طَلْحَةَ -رضي الله عنه- لِلْإِسْلَامِ لَمْ تَدْعُهُ إِلَّا بِالعَقْلِ:

٥٢ - **رُوِيَ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ:** خَطَبَ أَبُو طَلحَةَ أُم سُلَيمٍ، فَقَالَت: إِنَّهُ لاَ يَنبَغِي أَن أَتَزَوَّجَ مُشرِكًا، أَمَا تَعلَمُ يَا أَبَا طَلحَةَ أَنَّ آلِهَتَكُم يَنحَتُهَا عَبدُ آلِ فُلاَنٍ، وَأَنَّكُم لَو أَشعَلتُم فِيهَا نَاراً لَاحْتَرَقَت، قَالَ: فَانصَرَفَ وَفِي قَلبِهِ ذَلِكَ، ثُمّ أَتَاهَا، وَقَالَ: الَّذِي عَرَضتِ عَلَيَّ قَد قَبِلتُ، قَالَ: فَمَا كَانَ لَهَا مَهرٌ إِلاَّ الإِسْلَامُ.(٢)

فَأَكْثَرُ القُرْآنِ فِيهِ الاقْتِرَانُ بَيْنَ آيَاتِ الأَنْفُسِ وَالآفَاقِ وَبَيْنَ العُقُولِ وَبَيَانُ أَنَّ المُنْتَفِعِينَ بِالآيَاتِ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ العُقَلَاءُ الذِينَ يَفْقَهُونَ وَيَعْقِلُونَ وَيَتَفَكَّرُونَ وَيُنِيبُونَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [سورة البقرة: ١٦٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٨٠].

وَقَالَ -ﷻ-: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الشورى: ٣٣].

وَقَالَ -ﷻ-: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الرعد: ١٩].

وَقَالَ اللهُ -ﷻ-: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [سورة ق: ٨].

وَجَعَلَ اللهُ هَلَاكَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ دَلِيلاً عَلَىٰ عَاقِبَةِ الشِّرْكِ وَبُطْلَانِهِ فَقَالَ بَعْدَمَا أَهْلَكَ قَوْمَ لُوطٍ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٣٥].

٥٣ - **قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ:** ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فِي تَوْحِيدِ اللهِ.(٣)

---

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (١٨) / (٢٣).

(٢) أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٩) / (٢٨٥٢)-(٢٨٥٣) شَطْرَهُ الأَوَّلَ مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بْنِ بَشِيرٍ وَشَيْبَانَ، وَشَطْرَهُ الثَّانِيَ مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ-وَعَلَّقَ يَحْيَىٰ بْنُ سَلَامٍ (٢) / (٥٣٦) آخِرَهُ-وَعَزَاهُ السُّيُوطِيُّ إِلَىٰ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ، وَابْنِ المُنْذِرِ.

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٣) / (٥)-(٦)، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (١) / (٢٧٢)، وَأَبُو الشَّيْخِ فِي العَظَمَةِ، وَالوَاحِدِيُّ فِي أَسْبَابِ

٥٤- قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ عَنِ اللهِ؛ فَيُوَحِّدُونَهُ.(١)

٥٥- وَرُوِيَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ-مِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ-قَالَ: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فَبِهَذَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَأَنَّهُ إِلَهُ كُلِّ شَيْءٍ، وَخَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.(٢)

وَقَالَ لِقُرَيْشٍ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [سورة الصافات: ١٣٧].

وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿* أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [سورة محمد: ١٠].

٥٦- رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ، فِي قَوْلِهِ: ﴿* أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [سورة محمد: ١٠]، قَالَ: أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِأَلْوَانِ العَذَابِ، لِيَتَفَكَّرْ مُتَفَكِّرٌ، وَلْيَتَذَكَّرْ مُتَذَكِّرٌ، وَيَرْجِعْ رَاجِعٌ، فَضَرَبَ الأَمْثَالَ وَبَعَثَ الرُّسُلَ لِيَعْقِلُوا عَنِ اللهِ أَمْرَهُ.

وَقَالَ شُعَيْبٌ -عليه السلام-: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة هود: ٨٩].

وَلَمَّا كَانَتْ آيَاتُ الأَنْفُسِ وَالآفَاقِ مَعَ العَقْلِ كَالإِيمَانِ مَعَ العَمَلِ الصَّالِحِ كِلَاهُمَا يَسْتَمِدُّ قُوَّتَهُ وَزِيَادَتَهُ مِنَ الآخَرِ.

وَبِالعَكْسِ: فَإِنَّ أَكْثَرَ الخَلْقِ لَيْسُوا كَذَلِكَ بَلْ غَطَّىٰ الشَّيْطَانُ وَهَوَىٰ النَّفْسِ عَلَىٰ عُقُولِهِمْ فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا وَدَخَلُوا النَّارَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة يس: ٦٢].

٥٧- رُوِيَ عَنْ إِسْمَاعِيلَ السُّدِّيِّ: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ﴾ [سورة يس: ٦٢] يَعْنِي: قَدْ أَغْوَىٰ إِبْلِيسُ مِنْكُمْ ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ﴾ [سورة يس: ٦٢] يَعْنِي: خَلْقًا كَثِيرًا، فَكَفَرُوا فَلَمْ يَكُونُوا يَعْقِلُونَ، وَأَخْبَرَ عَنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الملك: ١٠] أَيْ: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ لآمَنَّا فِي الدُّنْيَا، فَلَمْ نَكُنْ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ-قَالَ اللهُ: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ ۖ فَسُحْقًا

النُّزُولِ ص (٣٢)-وَعَزَاهُ السُّيُوطِيُّ إِلَىٰ ابْنِ المُنْذِرِ.

(١) تَفْسِيرُ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ (٢) / (٤٦١).

(٢) تَفْسِيرُ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ (٣) / (٤١١).

لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ [سورة الملك: ١١].(١)

وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الفرقان: ٤٤].

لَمَّةُ المَلَكِ:

مِمَّا عَصَمَ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ أَجْمَعِينَ مِنَ الوُقُوعِ فِي الشِّرْكِ أَنَّهُ جَعَلَ مُقَابِلَ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ لَمَّةَ المَلَكِ بِقَلْبِ كُلِّ عَبْدٍ وَهِيَ وَاعِظُ اللهِ فِي القُلُوبِ جَمِيعًا.

وَاللَّمَّةُ كَهِمَّةٍ: وَهِيَ مَا يَقَعُ فِي القَلْبِ بِوَاسِطَةِ الشَّيْطَانِ أَوِ المَلَكِ فَلَمَّةُ الشَّيْطَانِ وَسْوَسَتُهُ بِالسُّوءِ وَلَمَّةُ المَلَكِ وَحْيُهُ بِالخَيْرِ.

فَإِذَا احْتَجَّ الكَافِرُ أَوِ المُبْتَدِعُ، عَلَىٰ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَنَّ الشَّيَاطِينَ أَضَلَّتْهُ وَصَدَّتْهُ عَنِ السَّبِيلِ.

فَالجَوَابُ: قَدْ جَعَلَ اللهُ فِي قَلْبِكَ وَاعِظًا يَصِيحُ بِكَ لَا تَتْرُكِ الصِّرَاطَ وَمَلَكًا يَلُمُّ بِقَلْبِكَ يَأْمُرُكَ بِلُزُومِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ؛ فَلِمَ عَصَيْتَ المَلَكَ وَتَجَاهَلْتَ الوَاعِظَ وَتَرَكْتَ الصِّرَاطَ ثُمَّ أَنْتَ الآنَ تَحْتَجُّ عَلَىٰ رَبِّكَ؟!

٥٨- **قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ المَرْوَزِيُّ:** «اللهُ لَا يَدَعُ عَبْدَهُ المُؤْمِنَ مَعَ مَا يُبَيِّنُ لَهُ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، حَتَّىٰ يَعِظَهُ وَيُنَبِّهَهُ بِالخَطَرِ بِقَلْبِهِ؛ لِيَعْتَصِمَ بِذَلِكَ مِنْ دُعَاءِ الشَّيَاطِينِ إِلَىٰ الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِهِ وَعَنْ طَرِيقِ مَرْضَاتِهِ».

وَلَمَّةُ المَلَكِ نَوْعَانِ: -عَامَّةٌ لِجَمِيعِ الخَلْقِ-وَخَاصَّةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ كَمَا أَنَّ النُّورَ وَالهِدَايَةَ وَالعِصْمَةَ وَغَيْرَهَا مِنْهَا مَا هُوَ عَامٌّ وَمِنْهَا مَا هُوَ خَاصٌّ.

وَقَدْ جَاءَتْ أَدِلَّةٌ كَثِيرَةٌ تُشِيرُ إِلَىٰ لَمَّةِ المَلَكِ العَامَّةِ وَالخَاصَّةِ وَالوَاعِظِ الذِي يَجِدُهُ كُلُّ عَبْدٍ فِي قَلْبِهِ، فَمِنْ ذَلِكَ:

٥٩- **رُوِيَ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ** -رضي الله عنه- **عَنْ رَسُولِ اللهِ** -ﷺ- **قَالَ:** «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَىٰ جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَىٰ الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَىٰ بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَفَرَّقُوا، وَدَاعٍ

---

(١) عَلَّقَهُ يَحْيَىٰ بْنُ سَلَامٍ (٢) / (٨١٦).

يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ؛ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، فالصِّرَاطُ: الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقَ: وَاعِظُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ». (١)

٦٠ - وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ المَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَىٰ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٨] الآيَةَ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ وَهُوَ حَدِيثُ أَبِي الأَحْوَصِ لَا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ حَدِيثِ أَبِي الأَحْوَصِ». (٢)

٦١ - وَرُوِيَ عَنْ جَابِرٍ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «إِذَا آوَىٰ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ فِرَاشِهِ ابْتَدَرَهُ مَلَكٌ وَشَيْطَانٌ، فَيَقُولُ الْمَلَكُ: اخْتِمْ بِخَيْرٍ، وَيَقُولُ الشَّيْطَانُ: اخْتِمْ بِشَرٍّ، فَإِنْ ذَكَرَ اللهَ -عز وجل- حَتَّىٰ تَغْلِبَهُ عَيْنُهُ طَرَدَ الْمَلَكُ الشَّيْطَانَ وَبَاتَ يَكْلَؤُهُ». (٣)

٦٢ - وَرُوِيَ عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، أَوْ أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ ابْتَدَرَهُ مَلَكٌ وَشَيْطَانٌ، فَيَقُولُ الْمَلَكُ: افْتَحْ بِخَيْرٍ، وَيَقُولُ الشَّيْطَانُ: افْتَحْ بِشَرٍّ، فَإِنْ ذَكَرَ اللهَ طَرَدَ الْمَلَكُ الشَّيْطَانَ وَظَلَّ يَكْلَؤُهُ، فَإِذَا انْتَبَهَ مِنْ مَنَامِهِ ابْتَدَرَهُ مَلَكٌ وَشَيْطَانٌ، فَيَقُولُ الْمَلَكُ: افْتَحْ بِخَيْرٍ، وَيَقُولُ الشَّيْطَانُ: افْتَحْ بِشَرٍّ، فَإِنْ هُوَ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ إِلَيَّ نَفْسِي بَعْدَ مَوْتِهَا وَلَمْ يُمِتْهَا فِي مَنَامِهَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ أَنْ تَقَعَ عَلَىٰ الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ، فَإِنْ هُوَ خَرَّ مِنْ فِرَاشِهِ فَمَاتَ كَانَ شَهِيدًا، وَإِنْ هُوَ قَامَ يُصَلِّي صَلَّىٰ فِي فَضَائِلَ». (٤)

---

(١) «سُنَنُ التِّرْمِذِيِّ ت شَاكِرٍ» (٥) / (٢١٩).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٩) / (١٨١) (١٧٦٣٤، ١٧٦٣٦)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٥) / (١٣١) (٢٠٧٥)، وَالحَاكِمُ (١) / (١٤٤) (٢٤٥)، وَابْنُ جَرِيرٍ (١) / (١٧٥).

(٣) أَخْرَجَهُ الدَّارِمِيُّ فِي سُنَنِهِ (٣) / (١٧٩٨) ((٢٧٧٦) (١) / (١٤٤) (٢٤٥)، وَابْنُ جَرِيرٍ (١) / (١٧٥).

(٤) الدُّعَاءُ لِلطَّبَرَانِيِّ (ص ٩٠).

٦٣ - **وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** -ﷺ-: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لِمَّةً، وَلِلْمَلَكِ لِمَّةً، فَأَمَّا لِمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ، وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لِمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ، وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ، فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ مِنَ الْآخَرِ فَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٦٨]». (١)

٦٤ - **وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** -ﷺ-: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَمَعَهُ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ، وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ»، قَالُوا: وَإِيَّاكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَإِيَّايَ، وَلَكِنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ».

٦٥ - **قَالَ أَبُو مُحَمَّد (الدارمي):** «مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: أَسْلَمَ: اسْتَسْلَمَ يَقُولُ: ذَلَّ». (٢)

٦٦ - **وَرُوِيَ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** -ﷺ-: «أَلَمْ أَنْهَكُمْ عَنِ التَّعَرِّي، أَلَمْ أَنْهَكُمْ عَنِ التَّعَرِّي، إِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لَا يُفَارِقُكُمْ فِي نَوْمٍ وَلَا يَقَظَةٍ، إِلَّا حِينَ يَأْتِي أَحَدُكُمْ أَهْلَهُ، أَوْ حِينَ يَأْتِي خَلَاهُ، أَلَا فَاسْتَحْيُوهُمْ، أَلَا فَأَكْرِمُوهُمْ». (٣)

٦٧ - **وَرُوِيَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ:** إِنَّ آدَمَ لَمَّا أُهْبِطَ إِلَىٰ الأَرْضِ هَبَطَ بِالْهِنْدِ، وَإِنَّ رَأْسَهُ كَانَ يَنَالُ السَّمَاءَ وَإِنَّ الأَرْضَ شَكَتْ إِلَىٰ رَبِّهَا ثِقَلَ آدَمَ فَوَضَعَ الْجَبَّارُ يَدَهُ عَلَىٰ رَأْسِهِ فَانْحَطَّ مِنْهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَهَبَطَ مَعَهُ بِالْعَجْوَةِ وَالأُتْرُنْجِ، وَالْمَوْزِ.

فَلَمَّا أُهْبِطَ قَالَ: رَبِّ هَذَا الْعَبْدُ الَّذِي جَعَلْتَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ عَدَاوَةً إِنْ لَمْ تُعِنِّي عَلَيْهِ، لا أَقْوَىٰ عَلَيْهِ، قَالَ: لا يُولَدُ لَكَ وَلَدٌ إِلا وَكَّلْتُ بِهِ مَلَكًا، قَالَ: رَبِّ زِدْنِي، قَالَ: أُجَازِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَبِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَىٰ مَا أُرِيدُ.

قَالَ: رَبِّ زِدْنِي، قَالَ: بَابُ التَّوْبَةِ لَهُ مَفْتُوحٌ مَا دَامَ الرُّوحُ فِي الْجَسَدِ.

قَالَ إِبْلِيسُ: يَا رَبِّ هَذَا الْعَبْدُ الَّذِي أَكْرَمْتَهُ إِنْ لَمْ تُعِنِّي عَلَيْهِ لا أَقْوَىٰ عَلَيْهِ، قَالَ: لا يُولَدُ لَهُ وَلَدٌ

---

(١) السُّنَنُ الكُبْرَىٰ لِلنَّسَائِيِّ (٩) / (٣١٥).

(٢) السُّنَنُ الكُبْرَىٰ لِلنَّسَائِيِّ (١٠) / (٣٧).

(٣) أَخْرَجَهُ مَالِكٌ فِي المُوَطَّأِ (١٤٢٥).

إِلَّا وُلِدَ لَكَ وَلَدٌ، قَالَ: يَارَبِّ زِدْنِي، قَالَ: تَجْرِي مِنْهُ مَجْرَىٰ الدَّمِ، وَتَتَّخِذُ فِي صُدُورِهِمْ بُيُوتًا، قَالَ: رَبِّ زِدْنِي، قَالَ: أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ.(١)

٦٨ - **وَرُوِيَ عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ:** أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ -رضي الله عنه- اخْتَصَمَ إِلَيْهِ مُسْلِمٌ وَيَهُودِيٌّ فَرَأَىٰ عُمَرُ انَّ الحَقَّ لِلْيَهُودِيِّ، فَقَضَىٰ لَهُ، فَقَالَ لَهُ اليَهُودِيُّ: وَاللهِ لَقَدْ قَضَيْتَ بِالحَقِّ، فَضَرَبَهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ -رضي الله عنه- بِالدُّرَّةِ، ثُمَّ قَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَقَالَ لَهُ اليَهُودِيُّ: انَّا نَجِدُ انَّهُ لَيْسَ قَاضٍ يَقْضِي بِالحَقِّ الَّا كَانَ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكٌ وَعَنْ شِمَالِهِ مَلَكٌ يُسَدِّدَانِهِ وَيُوَفِّقَانِهِ لِلْحَقِّ مَا دَامَ مَعَ الحَقِّ، فَإِذَا تَرَكَ الحَقَّ عَرَجَا وَتَرَكَاهُ.(٢)

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ حَالَ القَلْبِ مَعَ المَلَكِ وَالشَّيْطَانِ رَأَيْتَ عَجَبًا، فَهَذَا يَلُمُّ بِهِ مَرَّةً وَهَذَا يَلُمُّ بِهِ مَرَّةً.

فَإِذَا أَلَمَّ بِهِ المَلَكُ حَدَثَ لَهُ:

- الانْشِرَاحُ.
- وَالنُّورُ.
- وَالرَّحْمَةُ.
- وَالإِخْلَاصُ.
- وَالإِنَابَةُ.
- وَمَحَبَّةُ اللهِ وَايثَارُهُ عَلَىٰ مَا سِوَاهُ.
- وَقِصَرُ الأَمَلِ.

وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ البَلَاءِ وَالامْتِحَانِ فَلَوْ دَامَتْ تِلْكَ الحَالَةُ لَكَانَ فِي أَهْنَأِ عَيْشٍ وَأَلَذِّهِ وَأَطْيَبِهِ؛ وَلَكِنْ تَأْتِيهِ لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَتُحْدِثُ لَهُ-إِنْ هُوَ اتَّبَعَهَا، وَالعِيَاذُ بِاللهِ-مِنْ

- الضِّيقُ.
- الظُّلْمَةُ.
- الهَمُّ.

---

(١) أَمَالِي ابْنِ بِشْرَانَ (١) / (٣١٠).

(٢) مَكَائِدُ الشَّيْطَانِ (ص٩٥).

- الغَمُّ.
- الخَوْفُ.
- السَّخَطُ عَلَىٰ المَقْدُورِ وَالشَّكُّ فِي الحَقِّ.
- الحِرْصُ عَلَىٰ الدُّنْيَا وَعَاجِلِهَا.
- وَالغَفْلَةُ عَنِ اللهِ، وَالذِي هُوَ أَعْظَمُ عَذَابٍ لِلْقَلْبِ.

آيَاتُ الأَنْفُسِ وَالآفَاقِ:

مِمَّا عَصَمَ اللهُ -ﷻ- بِهِ عِبَادَهُ عَنِ الوُقُوعِ فِي الشِّرْكِ عِصْمَةً عَامَّةً لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ -يَنْتَفِعُ بِهَا مَنْ شَاءَ وَيُعْرِضُ عَنْهَا مَنْ خُذِلَ-: آيَاتُهُ المَنْثُورَةُ فِي الآفَاقِ وَفِي الأَنْفُسِ الدَّالَّةُ عَلَىٰ وُجُوبِ تَوْحِيدِهِ وَقُبْحِ الشِّرْكِ بِهِ وَعُقُوبَتِهِ وَهَذِهِ الآيَاتُ مَنْ فَتَحَ اللهُ بَصِيرَتَهُ لَهَا وَجَدَهَا تَحْرِقُ كُلَّ شُبْهَةٍ وَتُخْرِسُ كُلَّ كَفُورٍ وَتُرْغِمُ كُلَّ مُكَابِرٍ عَنِيدٍ وَتُحَطِّمُ كُلَّ عَقَبَةٍ أَمَامَ التَّوْحِيدِ، فَإِعْمَالُ النَّظَرِ وَالفِكْرِ فِي هَذَا الكَوْنِ الفَسِيحِ وَمُشَاهَدَةُ آيَاتِ اللهِ العَظِيمَةِ فِي الأَنْفُسِ وَالآفَاقِ يُوجِبُ لِلْإِنْسَانِ مَعْرِفَةَ اللهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَبُطْلَانَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ مِنَ الشُّرَكَاءِ وَالأَنْدَادِ، فَإِنَّ عَظَمَةَ المَخْلُوقِ دَلِيلٌ عَلَىٰ عَظَمَةِ الخَالِقِ وَقُدْرَتِهِ، وَكُلَّمَا تَعَرَّفَ الإِنْسَانُ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ وَمَظَاهِرِ عَظَمَتِهِ فِي هَذَا الكَوْنِ ازْدَادَ خَوْفًا مِنْهُ وَحُبًّا لَهُ وَإِيمَانًا بِأَنَّهُ هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ دُونَمَا سِوَاهُ.

وَقَدْ حَثَّ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ الكَوْنِيَّةِ وَأَثْنَىٰ عَلَىٰ المُتَفَكِّرِينَ وَالمُسْتَبْصِرِينَ بِهَا كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي آيَةٍ جَامِعَةٍ لِآيَاتِ الأُفُقِ وَالأَنْفُسِ وَالعَقْلِ:

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [سورة البقرة: ١٦٤].

٦٩ - **رُوِيَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ -مِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ- قَالَ: نَزَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ -ﷺ- بِالمَدِينَةِ:** ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة البقرة: ١٦٣]، فَقَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ: كَيْفَ يَسَعُ النَّاسَ إِلَهٌ وَاحِدٌ؟! فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ فَبِهَذَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَأَنَّهُ إِلَهُ كُلِّ شَيْءٍ، وَخَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.[1]

---

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٣) / (٥)-(٦)، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (١) / (٢٧٢).

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الطور: ٣٥-٣٦].

٧٠ - **قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ:** ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ [سورة الطور: ٣٥] يَقُولُ: أَكَانُوا خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الطور: ٣٥] يَعْنِي: أَمْ هُمْ خَلَقُوا الخَلْقَ، ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الطور: ٣٦] يَعْنِي: أَخَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ؟ ثُمَّ قَالَ: ﴿بَل﴾ ذَلِكَ خَلْقُهُمْ فِي الإِضْمَارِ، بَلْ ﴿يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ بِتَوْحِيدِ اللهِ الذِي خَلَقَهُمَا أَنَّهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ.(١)

وَمِنْ آيَاتِ اللهِ فِي الآفَاقِ أَنَّ مَنْ نَظَرَ لِهَذَا الكَوْنِ بِمَا فِيهِ وَمَنْ فِيهِ وَجَدَ أَرْبَعَةَ أَدِلَّةٍ تَهْدِيهِ لِلتَّوْحِيدِ وَهِيَ أَدِلَّةُ:

الخَلْقُ: وَهَذَا الدَّلِيلُ مِنْ أَبْيَنِ الأَدِلَّةِ وَأَظْهَرِهَا عَلَىٰ التَّوْحِيدِ سَوَاءً النَّظَرُ فِي خَلْقِ الإِنْسَانِ وَالاسْتِدْلَالُ بِهَذَا الخَلْقِ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ أَوِ النَّظَرُ فِي خَلْقِ كُلِّ مَا فِي الآفَاقِ...

٧١ - **رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ-مِنْ طَرِيقِ مَعْمَرٍ-فِي قَوْلِهِ:** ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الذاريات: ٢٠]، قَالَ: يَقُولُ: مُعْتَبَرٌ لِمَن اعْتَبَرَ.(٢)

٧٢ - **وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ-مِنْ طَرِيقِ سَعِيدٍ-قَوْلَهُ:** ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الذاريات: ٢٠]: إِذَا سَارَ فِي أَرْضِ اللهِ رَأَىٰ عِبَراً، وَآيَاتٍ عِظَامًا.(٣)

٧٣ - **وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ:** ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الذاريات: ٢٠]، يَعْنِي: مَا فِيهَا مِنَ الجِبَالِ، وَالبِحَارِ، وَالأَشْجَارِ، وَالثِّمَارِ، وَالنَّبْتِ عَامًا بِعَامٍ، فَفِي هَذَا كُلِّهِ آيَاتٌ، يَعْنِي: عِبْرَةً لِلْمُوقِنِينَ بِالرَّبِّ تَعَالَىٰ؛ لِتَعْرِفُوا صُنْعَهُ فَتُوَحِّدُوهُ.(٤)

وَالتَّسْوِيَةُ: وَهُنَا المَقْصُودُ فِي التَّسْوِيَةِ إِتْقَانُ الشَّيْءِ وَإِحْسَانُ خَلْقِهِ وَإِكْمَالُ صَنْعَتِهِ بِحَيْثُ كُيِّفَ مُهَيَّأً لِأَدَاءِ وَظِيفَتِهِ، وَيَكُونُ مُعْتَدِلاً مُتَنَاسِبَ الأَجْزَاءِ لَيْسَ بَيْنَهُمَا تَفَاوُتٌ يُخِلُّ بِالمَقْصُودِ، وَمِنَ

---

(١) تَفْسِيرُ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ (٤) / (١٢٩).

(٢) تَفْسِيرُ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ (٤) / (١٤٧)-(١٤٨).

(٣) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ (٢) / (٢٤٤)، وَابْنُ جَرِيرٍ (٢١) / (٥١٨)، وَأَبُو الشَّيْخِ فِي العَظَمَةِ)-وَعَزَاهُ السُّيُوطِيُّ إِلَىٰ ابْنِ المُنْذِرِ.

(٤) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٢١) / (٥١٨).

الأَلْفَاظِ المُقَارِبَةِ المُتَسَاوِيَةِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ: الإِتْقَانُ وَالإِحْسَانُ وَنَفْيُ التَّفَاوُتِ وَإِعْطَاءُ الخَلْقِ.

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة النمل: ٨٨].

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [سورة السجدة: ٧].

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ﴾ [سورة الملك: ٣].

وَالتَّقْدِيرُ: وَهُوَ -ﷻ- خَلْقُ كُلِّ شَيْءٍ بِمِقْدَارٍ وَمِيزَانٍ وَتَرْتِيبٍ وَحِسَابٍ بِحَيْثُ يَتَلَاءَمُ مَعَ مَكَانِهِ وَزَمَانِهِ بِحَيْثُ يَتَنَاسَقُ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ المَوْجُودَاتِ القَرِيبَةِ مِنْهُ وَالبَعِيدَةِ عَنْهُ فَإِذَا كَانَتِ التَّسْوِيَةُ **إِعْطَاءَ** كُلِّ شَيْءٍ مِنَ المَخْلُوقَاتِ مَا يُؤَدِّي بِهِ وَظِيفَتَهُ عَلَىٰ الوَجْهِ اللَّائِقِ بِهِ، وَذَلِكَ يَتِمُّ إِذَا مَا وُضِعَ فِي مَكَانِهِ المُلَائِمِ وَزَمَانِهِ المُنَاسِبِ، وَهَذَا التَّقْدِيرُ ظَاهِرَةٌ عَامَّةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ كَمَا نَبَّهَ رَبُّنَا -ﷻ- عَلَىٰ ذَلِكَ فِي القُرْآنِ.

٧٤ - **رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ -مِنْ طَرِيقِ سَعِيدٍ- فِي قَوْلِهِ:** ﴿مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [سورة الفرقان: ٣] قَالَ: هِيَ هَذِهِ الأَوْثَانُ التِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ وَهُوَ اللهُ الخَالِقُ الرَّازِقُ، وَهَذِهِ الأَوْثَانُ تُخْلَقُ وَلَا تَخْلُقُ شَيْئًا، وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تَمْلِكُ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً.(١)

فَكُلُّ مَا فِي الكَوْنِ مِنْ مَخْلُوقَاتٍ وَمَصْنُوعَاتٍ وَآيَاتٍ تَشْهَدُ عَلَىٰ خَالِقِهَا، دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهَا مُدَبَّرَةٌ مُسَخَّرَةٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ هَذَا الكَوْنُ بِمَا فِيهِ مِنَ الأَيَّامِ وَاللَّيَالِي وَتَسْيِيرِ أَحْوَالِ النَّاسِ وَغُرُوبِ الشَّمْسِ وَشُرُوقِهَا وَإِتْيَانِ الرِّيَاحِ وَالأَمْطَارِ وَحُصُولِ الأُمُورِ العَجِيبَةِ فِي هَذَا المَلَكُوتِ، كُلُّ هَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا بِوُجُودِ مَنْ يُدَبِّرُ وَيُسَخِّرُ بِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

وَالهِدَايَةُ: وَهَذِهِ الهِدَايَةُ مِنْ أَظْهَرِ الأَدِلَّةِ الكَوْنِيَّةِ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ -ﷻ- وَيُقْصَدُ بِهَا فِي هَذَا المَقَامِ أَنَّ كُلَّ خَلْقٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللهِ قَدْ أُلْهِمَ وُجُودَهُ وَهُدِيَ إِلَىٰ مَا خُلِقَ مِنْ أَجْلِهِ بِحَيْثُ يَهْتَدِي بِهَذِهِ الهِدَايَةِ إِلَىٰ طَرِيقِهِ وَيَخْتَارُ مَا يُصْلِحُهُ وَيَبْتَعِدُ عَمَّا يَضُرُّهُ، وَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الهِدَايَةُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة طه: ٨٢].

وَهَذِهِ الأَدِلَّةُ الأَرْبَعَةُ جَاءَتْ مُجْتَمِعَةً فِي قَوْلِ اللهِ -ﷻ-: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ

---

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٨) / (٢٦٦٢)-وَعَزَاهُ السُّيُوطِيُّ إِلَىٰ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ، وَابْنِ المُنْذِرِ.

﴿فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [سورة الأعلى: ١-٤].

٧٥ - **قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ:** ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [سورة الأعلى: ١] نَزِّهْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ، يَقُولُ: نَزِّهْهُ مِنَ الشِّرْكِ بِشَهَادَةِ: أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. (١)

فَالخُلَاصَةُ أَنَّ آيَاتِ الآفَاقِ بَحْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ، فَكُلُّ مَا رَأَيْتَ فَهُوَ يَدُلُّ عَلَىٰ الوَحْدَانِيَّةِ؛ وَآيَاتُ الآفَاقِ فِي القُرْآنِ يَخْتِمُهَا اللهُ بِقَوْلِهِ:

- ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾
- ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾
- ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٢﴾

وَهَذِهِ الأَدِلَّةُ هِيَ حُجَّةُ اللهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ، وَلَكِنَّ الهِدَايَةَ هِيَ مِنْ قُدْرَةِ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ وَحِكْمَتِهِ فِيهِمْ وَرِزْقِهِ لَهُمْ وَفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ؛ وَقَدْ بَيَّنَ بَعْضَ فِعْلِهِمْ فِي الآيَاتِ وَحِكْمَتَهُ فِيهِمْ فَقَالَ:

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ۝١٤٦﴾ [سورة الأعراف: ١٤٦].

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ۝١٥٧﴾ [سورة الأنعام: ١٥٧].

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝٣٨﴾ [سورة سبأ: ٣٨].

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ۝٥٦﴾ [سورة الكهف: ٥٦].

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾ [سورة طه: ١٢٤-١٢٦].

---

(١) تَفْسِيرُ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ (٤) / (٦٦٩).

وَالنِّسْيَانُ هُنَا فِي المَوْضِعَيْنِ:

-الإِعْرَاضُ.

-الإِهْمَالُ.

فَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ مَوْقِفَ المُشْرِكِينَ مِنْ آيَاتِ الأَنْفُسِ وَالآفَاقِ، وَأَنَّهُمْ مُعَاجِزِينَ مُعْرِضِينَ مُهْمِلِينَ مُسْتَكْبِرِينَ مُنْكِرِينَ، فَاسْتَحَقُّوا العَذَابَ خَالِدِينَ قَبْلَ أَنْ يُنْذَرُوا بِالمُرْسَلِينَ.

وَهَذَا الدَّلِيلُ كَغَيْرِهِ مِنْ ادِلَّةِ التَّوْحِيدِ السَّابِقَةِ لَا يَسْتَلْزِمُ الهِدَايَةَ بَلْ هُوَ حُجَّةُ اللهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ، ثُمَّ مَنْ شَاءَ هَدَاهُ فَانْتَفَعَ بِهِ، وَمَنْ شَاءَ خَذَلَهُ فَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ.

٧٦- **كَمَا رُوِيَ: عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ، حَدَّثَنَا حُمَيْدُ بْنُ هِلَالٍ قَالَ، قَالَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللهِ:** إِنَّمَا وَجَدْتُ العَبْدَ مُلْقًىٰ بَيْنَ رَبِّهِ وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنِ اسْتَشْلَاهُ رَبُّهُ وَاسْتَنْقَذَهُ نَجَا، وَإِنْ تَرَكَهُ لِلشَّيْطَانِ، ذَهَبَ بِهِ.[1]

النُّذُرُ:

فَهِيَ مِنْ أَوْسَعِ أَنْوَاعِ الحُجَجِ وَاضْيَقِهَا فِي المُهِمَّاتِ، وَأَصْلُ الإِنْذَارِ (هُوَ الإِعْلَامُ)، فَهَذَا النَّوْعُ لَا يَخْتَصُّ بِالأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ فَقَطْ، بَلْ هُوَ ذُو أَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ جِدّاً مِنْهَا:

- اللهُ -ﷻ- نَذِيرٌ
- القُرْآنُ نَذِيرٌ
- النَّارُ
- الأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ
- لَمَّةُ المَلَكِ
- طُولُ العُمْرِ
- الشَّيْبُ
- الجِنُّ
- الإِنْسُ
- أَهْلُ العِلْمِ

---

(١) سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ (٤) / (١٨٨).

- العُقُوبَاتُ الإِلَهِيَّةُ
- كُلُّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

❍ المِثَالُ التَّوْضِيحِيُّ:

سَأَضْرِبُ مِثَالاً لِتَقْرِيبِ المَعْنَىٰ وَتَوْضِيحِ الصُّورَةِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [سورة النحل: ٦٠]، فَنَقُولُ:

لِأَجْلِ أَنْ يَقْطَعَ اللهُ حُجَّةَ العَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيُعْذِرَ إِلَيْهِ، فَقَدْ أَعْطَاهُ:

مِصْبَاحًا فِي فُؤَادِهِ يَعْقِلُ بِهِ الخَيْرَ وَيَعْقِلُهُ عَنِ الشَّرِّ.

وَبَثَّ أَمَامَهُ مِنَ الآيَاتِ فِي الأَنْفُسِ وَالآفَاقِ، وَهَذِهِ الآيَاتُ هِيَ وَقُودُ المِصْبَاحِ، فَهُوَ يَنْتَفِعُ بِهَا وَهِيَ تَنْتَفِعُ بِهِ كَالإِيمَانِ مَعَ العَمَلِ الصَّالِحِ.

وَالْهَمَهُ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا إِلَيْهِ وَإِلَىٰ جَنَّتِهِ، وَفَطَرَهُ وَجَعَلَهُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ وُلِدَ فِيهِ.

وَوَكَّلَ بِهِ مَلَكًا يَلُمُّ بِقَلْبِهِ يَحُثُّهُ عَلَىٰ الخَيْرِ وَيَنْهَاهُ عَنِ الشَّرِّ.

وَأَخَذَ عَلَيْهِ المِيثَاقَ أَلَّا يُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا فَأَقَرَّ وَأَشْهَدَ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ وَبَايَعَ وَعَاهَدَ.

فَهَذِهِ عِصَمٌ عَنِ الوُقُوعِ فِي الشِّرْكِ الأَكْبَرِ أَعْطَاهَا اللهُ لِكُلِّ أَدَمِيٍّ وَهِيَ بِمَثَابَةِ الضَّمَانَاتِ الوَاقِيَةِ مِنَ الشِّرْكِ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ لِلِانْتِفَاعِ بِهَا، وَهِيَ أَيْضًا قَبْلَ ذَلِكَ: حُجَّةُ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ.

نَمُوذَجٌ مِنْ إِبْطَالِ مَعَاذِيرِ المُشْرِكِينَ بِتِلْكَ الحُجَجِ:

- فَإِنِ اعْتَذَرَ العَبْدُ بِالبِيئَةِ وَتَقْلِيدِ الآبَاءِ وَالشُّيُوخِ / فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَخَذَ مِنْهُ المِيثَاقَ قَبْلَ وُجُودِهِمْ.
- وَإِنِ اعْتَذَرَ العَبْدُ بِالهَوَىٰ / فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَاهُ الفُؤَادَ وَخَاصِّيَّتَهُ العَقْلَ لِيُكَافِحَ الهَوَىٰ وَيُطْفِئَهُ.
- وَإِنِ اعْتَذَرَ العَبْدُ بِإِضْلَالِ الشَّيَاطِينِ / فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَيَّدَهُ بِمَلَكٍ يُضَادُّهُمْ فَأَطَاعَ المُشْرِكُ الشَّيَاطِينَ وَعَصَىٰ المَلَكَ.
- وَإِنِ اعْتَذَرَ العَبْدُ بِشُبُهَاتِ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ / فَإِنَّ اللهَ قَدْ بَثَّ لَهُ الآيَاتِ فِي الأَنْفُسِ وَالآفَاقِ.
- وَإِنِ اعْتَذَرَ العَبْدُ بِاشْتِبَاهِ السُّبُلِ وَالطُّرُقِ عَلَيْهِ / فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَضَعَهُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ.

○ كُلُّ ذَلِكَ لِأَجْلِ أَنْ يَتَبَيَّنَ لِكُلِّ نَفْسٍ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ، وَأَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ الحَقُّ وَلَا شَكَّ فِي ذَلِكَ البَتَّةَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠].

٧٧ - **قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ:** ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠] يَقُولُ: أَفِي التَّوْحِيدِ لِلَّهِ شَكٌّ، ﴿فَاطِرِ﴾ يَعْنِي: خَالِقٌ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠] إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ؛ ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠].(١)

٧٨ - **رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ: وَقَالُوا:** ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾ [سورة إبراهيم: ٩]- وَكَذَبُوا، مَا فِي اللهِ شَكٌّ، أَفِي مَنْ فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ، وَأَظْهَرَ لَكُمْ مِنَ النِّعَمِ وَالآلَاءِ المُتَظَاهِرَةِ مَا لَا يُشَكُّ فِي اللهِ؟!.(٢)

قَالَ رَبُّنَا -ﷻ-: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [سورة فصلت: ٥٣].

فَالمِثَالُ التَّوْضِيحِيُّ وَالتَّمْهِيدِيُّ لِحُجَجِ التَّوْحِيدِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾

كَمَا يَلِي:

لَوْ أَنَّ رَجُلاً أَرَادَ أَنْ يُرْسِلَ ابْنَهُ إِلَىٰ مَكَّةَ وَهُوَ لَا يَرْضَىٰ الضَّيَاعَ وَالهَلَاكَ فَأَرَادَ أَنْ يُعْطِيَ ابْنَهُ الضَّمَانَاتِ وَالعِصْمَةَ أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ مَكَّةَ سَالِمًا بِإِذْنِ اللهِ وَأَرَادَ أَنْ يَرْتَاحَ ضَمِيرُهُ أَنَّهُ لَوْ ضَاعَ ابْنُهُ فَإِنَّهُ قَدْ أَعْطَىٰ ابْنَهُ كُلَّ مَا يَحْتَاجُهُ لِمَنْعِ ذَلِكَ فَأَعْطَىٰ ابْنَهُ سِتَّةَ ضَمَانَاتٍ وَهِيَ:

الأُولَىٰ: (مِثَالُ الفِطْرَةِ وَالصِّرَاطِ):

أَنَّ الوَالِدَ أَوْقَفَ ابْنَهُ عَلَىٰ الطَّرِيقِ السَّرِيعِ الوَاضِحِ المُؤَدِّي إِلَىٰ مَكَّةَ وَعَلَيْهِ اللَّوْحَاتُ وَالعَلَامَاتُ وَالمَحَطَّاتُ التِي تُسَاعِدُ الابْنَ فِي الوُصُولِ وَالتَّأَكُّدِ أَنَّهُ عَلَىٰ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ وَقَالَ الأَبُ لِابْنِهِ لَا تُفَارِقِ الطَّرِيقَ حَتَّىٰ تَصِلَ الَىٰ مَكَّةَ (فَهَذَا مِثَالُ الفِطْرَةِ وَالصِّرَاطِ).

---

(١) تَفْسِيرُ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ (٢) / (٣٩٩)-(٤٠٠).

(٢) عَزَاهُ السُّيُوطِيُّ إِلَىٰ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ، وَابْنِ المُنْذِرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

الثَّانِيَةُ: (لَمَّةُ المَلَكِ وَوَاعِظُ القَلْبِ):

أَنَّ الوَالِدَ أَرْسَلَ خَلْفَ وَلَدِهِ رَجُلاً وَأَمَرَهُ أَنْ يُرَاقِبَ ابْنَهُ وَالطَّرِيقُ مَلِيءٌ بِالمَخَارِجِ الجَانِبِيَّةِ وَعَلَيْهَا قُطَّاعُ طُرُقٍ يُوهِمُونَ النَّاسَ أَنَّ الطَّرِيقَ مِنْ عِنْدِهِمْ وَأَكْثَرُ النَّاسِ يُصَدِّقُهُمْ وَيُطِيعُهُمْ وَأَمَرَهُ كُلَّمَا رَأَىٰ ابْنَهُ يُرِيدُ تَرْكَ الطَّرِيقِ الأَعْظَمِ المَسْلُوكِ وَسُلُوكَ تِلْكَ الطُّرُقِ أَنْ يُوقِفَهُ وَيُحَذِّرَهُ وَيُذَكِّرَهُ (فَهَذَا مِثَالُ لَمَّةِ المَلَك وَوَاعِظِ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ).

الثَّالِثَةُ: (المِيثَاقُ):

أَنَّ الوَالِدَ أَخَذَ مِن ابْنِهِ العَهْدَ وَالمِيثَاقَ وَالوَعْدَ أَنْ لَا يَدَعَ وَيَتْرُكَ الطَّرِيقَ الأَعْظَمَ المَسْلُوكَ الذِي أَوْقَفَهُ عَلَيْهِ وَأَنْ لَا يَسْلُكَ تِلْكَ المَخَارِجَ التِي عَلَىٰ جَانِبِ وَحَافَتَيِ الطَّرِيقِ حَتَّىٰ وَإِنْ سَلَكَهَا أَكْثَرُ النَّاسِ حَتَّىٰ وَإِنْ زَيَّنَهَا قُطَّاعُ الطُّرُقِ بِاللَّوْحَاتِ الوَهْمِيَّةِ وَالدِّعَايَاتِ الكَاذِبَةِ الفَارِغَةِ فَبَايَعَهُ ابْنُهُ وَعَاهَدَهُ أَنْ لَا يَنْقُضَ المِيثَاقَ وَأَشْهَدَ أُنَاسًا عَلَىٰ ذَلِكَ العَهْدِ وَالمِيثَاقِ (فَهَذَا مِثَالُ العَهْدِ وَالمِيثَاقِ).

الرَّابِعَةُ: (مِثَالُ الكُتُبِ وَالرُّسُلِ وَالعَقْلِ):

أَنَّ الوَالِدَ لَمْ يُرْسِلِ ابْنَهُ إِلَّا فِي اللَّيَالِي البِيضِ المُضِيئَةِ وَقَالَ يَا بُنَيَّ إِنْ طَلَعَتْ عَلَيْكَ الشَّمْسُ رَأَيْتَ تَفَاصِيلَ الطَّرِيقِ وَإِنْ مَشَيْتَ فِي اللَّيْلِ فَنُورُ البَدْرِ يُضِيءُ لَكَ كَالشَّمْسِ تَرَىٰ بِهِ الأَعْلَامَ وَالعَلَامَاتِ وَحُدُودَ الطَّرِيقِ وَأَصْلَهُ حَتَّىٰ وَإِنْ خَفِيَتْ عَلَيْكَ التَّفَاصِيلُ (فَهَذَا مِثَالٌ لِلشَّمْسِ وَالبَدْرِ فَالشَّمْسُ مِثَالٌ لِلرُّسُلِ وَالكُتُبِ وَالبَدْرُ مِثَالٌ لِلْعَقْلِ وَالفُؤَادِ).

الخَامِسَةُ وَالسَّادِسَةُ: (مِثَالُ آيَاتِ الأَنْفُسِ وَالآفَاقِ):

أَنَّ الوَالِدَ عَلَّمَ ابْنَهُ عَلَامَاتٍ كَثِيرَةً يَجِدُهَا فِي نَفْسِهِ وَفِي الآفَاقِ السَّمَاوِيَّةِ وَالأَرْضِيَّةِ حَوْلَهُ تُثَبِّتُهُ وَتُورِثُهُ اليَقِينَ أَنَّهُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ مَهْمَا قَلَّ سَالِكُوهُ وَأَنَّ أَهْلَ المَخَارِجِ وَالسُّبُلِ الجَانِبِيَّةِ هَالِكُونَ وَإِنْ كَثُرُوا (وَهَذَا مَثَلُ آيَاتِ الأَنْفُسِ وَالآفَاقِ).

وَهُنَا تَسْتَوْقِفُ أَهْلَ الحَقِّ وَالعَقْلِ وَالإِنْصَافِ (فِي قِصَّةِ الوَالِدِ مَعَ وَلَدِهِ):

لَوْ ضَاعَ وَانْحَرَفَ الابْنُ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ فَكُلُّ مُنْصِفٍ مِنْ نَفْسِهِ سَيَقُولُ: (وَاللهِ إِنَّ هَذَا الابْنَ لَظَالِمٌ يَشْتَهِي الضَّيَاعَ وَيُرِيدُهُ وَإِنَّ الابَ لَعَادِلٌ حَكِيمٌ رَحِيمٌ فَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ لِمَصْلَحَةِ ابْنِهِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَأْسَىٰ وَيَأْسَفَ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ).

بَعْدَ اسْتِعْرَاضِ حُجَجِ اللهِ وَبَيِّنَاتِهِ عَلَىٰ وُجُوبِ التَّوْحِيدِ وَحِلِّ الطَّيِّبَاتِ، وَعَلَىٰ حُرْمَةِ الشِّرْكِ

وَالخَبَائِثِ وَالمُتَمَثِّلَةِ فِي: المِيثَاقِ، وَالفِطْرَةِ، وَالعَقْلِ، مَعَ شَهَادَةِ الآيَاتِ الكَوْنِيَّةِ بِصِحَّةِ مُوجِبِهَا وَمُقْتَضَاهَا، يُمْكِنُنَا الاهْتِدَاءُ إِلَىٰ عِلَّةِ ثُبُوتِ وَصْفِ الشِّرْكِ لِمَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللهِ جَاهِلاً، وَلَوْ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ حُجَّةُ البَلَاغِ.

وَبِذَلِكَ أَسْجَلَ القُرْآنُ عَلَىٰ المُشْرِكِينَ: مُخَالَفَتَهُمْ لِحُجَجِ التَّوْحِيدِ، وَخَرْقَهُمْ لِعُهُودِهَا، وَنَبْذَهُمْ لِلْوَفَاءِ بِهَا؛ وَوَصَفَ أَفْعَالَهُمُ القَبِيحَةَ-مِنَ الشِّرْكِ، وَاقْتِرَافِ المُوبِقَاتِ-بِأَنَّهَا ذُنُوبٌ وَسَيِّئَاتٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْرَعَ آذَانَهُمْ بِحُكْمٍ مِنَ السَّمْعِ يُخَالِفُونَهُ.

وَمِنْ ثَمَّ أَوْجَبَ-أَيِ: الوُجُوبُ المُسْتَوْجِبُ لِلْعِقَابِ لِمَنْ لَمْ يَقُمْ بِهِ-عَلَيْهِمِ: التَّوْبَةُ وَالاسْتِغْفَارُ مِمَّا اقْتَرَفَتْ أَيْدِيهِمْ مِنَ الشِّرْكِ وَالفَسَادِ فَوْرَ مَجِيءِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ، وَبُلُوغِ الخِطَابِ لَهُمْ.

فَلَوْلَا أَنَّ حُسْنَ التَّوْحِيدِ، وَعِبَادَةَ اللهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَقُبْحَ الشِّرْكِ بِهِ أَمْرٌ ثَابِتٌ فِي نَفْسِهِ مَعْلُومٌ بِالفِطَرِ وَالعُقُولِ لَمْ يُخَاطِبْهُمُ القُرْآنُ بِهَذَا، إِذْ كَانُوا لَمْ يَفْعَلُوا شَيْئًا يُذَمُّونَ عَلَيْهِ.

وَلْيُعْلَمْ أَنَّ الهُوِيَّةَ الوَحِيدَةَ التِي تَجْمَعُنَا وَتُرَتِّبُ صُفُوفَنَا، وَيَدُورُ حَوْلَهَا وَلَاؤُنَا وَبَرَاؤُنَا، هِيَ قَضِيَّةُ التَّوْحِيدِ.

«فَالتَّوْحِيدُ» حَلَّ مَحَلَّهُ فِي زَمَانِنَا: العَصَبِيَّةُ الجَاهِلِيَّةُ، وَالقَوْمِيَّةُ العَرَبِيَّةُ، وَالوَحْدَةُ الوَطَنِيَّةُ... وَكَافَّةُ شَعَائِرِ الكُفْرِ، وَأَعْلَامِ الشِّرْكِ، وَنُجُومِ الزَّنْدَقَةِ.

فَإِذَا ضَاعَ التَّوْحِيدُ، أَصْبَحَ نَهَارُنَا كَلَيْلِنَا، وَنُورُنَا كَظُلُمَاتِنَا.

وَلَا رَجْعَةَ لَنَا مِنَ التِّيهِ الذِي ضَرَبَ بِأَطْنَابِهِ حَوْلَنَا، إِلَّا بِالرُّجُوعِ المَنْشُودِ لِلْمَعِينِ الصَّافِي، الذِي يَتَمَثَّلُ فِي: الكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، مَعَ التَّرْجَمَةِ العَمَلِيَّةِ لَهُمَا مِنْ أَصْحَابِ الثَّلَاثَةِ القُرُونِ الأُولَىٰ، نَنْهَلُ مِنْهَا عَقَائِدَنَا، وَنَسْتَمِدُّ شَرِيعَةَ وُجُودِنَا، وَنَسْتَلْهِمُ مَعَالِمَ طَرِيقِنَا، وَحُدُودَ قَضِيَّتِنَا، وَكَيْفِيَّةَ إِعَادَةِ بِنَاءِ صُفُوفِنَا، حَتَّىٰ نَسْتَطِيعَ الانْطِلَاقَ الصَّحِيحَ الحَثِيثَ عَلَىٰ ضَوْءِ دِينِنَا الحَنِيفِ، وَعَلَىٰ هَدْيِ رَعِيلِنَا الأَوَّلِ، لِلْقِيَامِ بِدَوْرِنَا أَوَّلاً تُجَاهَ أَنْفُسِنَا، وَثَانِيًا حِيَالَ البَشَرِيَّةِ كُلِّهَا مِنْ حَوْلِنَا.

وَأَوَّلُ أَعْلَامِ الطَّرِيقِ، وَمَنَارَاتِ السَّبِيلِ، هُوَ القِيَامُ بِالإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ، وَالقَضَاءُ عَلَىٰ الشِّرْكِ وَالتَّنْدِيدِ.

❁❁❁

فَصْلٌ فِي: حقيقة الشرك

اعْلَمْ يَا عَبْدَ اللهِ أَنَّ الشِّرْكَ لَيْسَ هُوَ إِنْكَارَ وُجُودِ اللهِ فَحَسْبُ، وَلَيْسَ الشِّرْكُ أَنْ لَا يُعْبَدَ اللهُ فَحَسْبُ كَمَا يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، بَلْ حَقِيقَةُ الشِّرْكِ هُوَ جَمْعُ غَيْرِ اللهِ مَعَ اللهِ فِيمَا لَا يَجُوزُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، كَالعِبَادَةِ فَإِنَّهَا حَقٌّ خَالِصٌ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، فَمَنْ عَبَدَ اللهَ وَعَبَدَ غَيْرَهُ فَقَدْ أَشْرَكَ.

كَمَا أَنَّ التَّوْحِيدَ لَيْسَ هُوَ مُجَرَّدَ إِثْبَاتِ وُجُودِ اللهِ وَأَنَّهُ وَحْدَهُ خَالِقُ العَالَمِ وَمُدَبِّرُهُ.

وَالشِّرْكُ ضِدُّ الوَحْدَانِيَّةِ وَالإِشْرَاكُ يُنَافِي الإِفْرَادَ وَالتَّوْحِيدَ، فَمَنْ جَعَلَ لِلَّهِ نِدّاً فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ أُلُوهِيَّتِهِ أَوْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ.

فَالمُشْرِكُونَ الذِينَ قَاتَلَهُمُ النَّبِيُّ -ﷺ- كَانُوا يَعْبُدُونَ اللهَ وَيَعْبُدُونَ غَيْرَهُ، كَانُوا يَحُجُّونَ لَكِنَّهُمْ لَا يُوَحِّدُونَ، فَكَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكاً تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ.

وَالشِّرْكُ فِي العِبَادَةِ عُبِّرَ عَنْهُ بِعِدَّةِ أَلْفَاظٍ: -التَّنْدِيدُ-العُدُولُ-التَّسْوِيَةُ-الأَمْثَالُ-الكُفْءُ.

فَالشِّرْكُ حَقِيقَةً: صَرْفُ العِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ مِنْ دُعَاءٍ وَذَبْحٍ وَنَذْرٍ وَرَجَاءٍ وَتَوَكُّلٍ، أَوْ تَسْوِيَةُ غَيْرِ اللهِ بِاللهِ فِيمَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ اللهِ، أَوْ مُنَازَعَةُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي خَصَائِصِهِ.

٧٩ - **قَالَ أَبُو مِجْلَزٍ:** كُنْتُ جَالِساً عِنْدَ ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا الإِشْرَاكُ بِاللهِ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ، فَقَالَ أَيْضاً: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا الإِشْرَاكُ بِاللهِ؟ قَالَ: أَنْ تَتَّخِذَ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً. (١)

٨٠ - **وَرُوِيَ عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ أَنَّهُ سُئِلَ:** مَا الشِّرْكُ؟ فَقَالَ: أَنْ تَتَّخِذَ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً. (٢)

٨١ - **قَالَ السَّمْعَانِيُّ:** فَالإِشْرَاكُ بِاللهِ: هُوَ أَنْ يَجْمَعَ مَعَ اللهِ غَيْرَ اللهِ فِيمَا لَا يَجُوزُ إِلَّا لِلَّهِ. (٣)

---

(١) «مُصَنَّفُ عَبْدِ الرَّزَّاقِ» (٣/ ٢٥٢).

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ - -رحمه الله- ١ / ٢٧٦.

(٣) «تَفْسِيرُ السَّمْعَانِيِّ» (٢/ ١٢١).

فَهُوَ: أَنْ يَجْعَلَ لِلَّهِ نِدّاً -أَيْ: مِثْلاً فِي عِبَادَتِهِ أَوْ مَحَبَّتِهِ أَوْ خَوْفِهِ أَوْ رَجَائِهِ أَوْ إِنَابَتِهِ فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ الخَالِصَةِ.

قَوَاعِدُ الشِّرْكِ:

- كُلُّ مَا كَانَ فِيهِ تَشْبِيهٌ لِلْمَخْلُوقِ بِالخَالِقِ فِيمَا اخْتَصَّ بِهِ تَعَالَىٰ وَيَسْتَحِقُّهُ وَحْدَهُ، وَمِنْ ذَلِكَ إِثْبَاتُ فِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِ الرُّبُوبِيَّةِ وَصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الإِلَهِيَّةِ لِلْمَخْلُوقِ.
- أَوْ تَعْطِيلُ اللهِ رُبُوبِيَّتَهُ وَعِبَادَتَهُ وَكَمَالَهُ وَحُقُوقَهُ وَخَوَاصَّهُ وَأَفْعَالَهُ وَأَوْصَافَهُ.
- أَوْ صَرْفُ العِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ.
- أَوِ اتِّخَاذُ الوَسَائِطِ وَالشُّفَعَاءِ بِقَصْدِ التَّقَرُّبِ إِلَىٰ اللهِ وَاعْتِقَادِ احْتِيَاجِهِ لَهَا.
- أَوِ التَّذَلُّلُ المُطْلَقُ مَعَ الخُضُوعِ وَالتَّعْظِيمِ وَالانْقِيَادِ وَالقَصْدِ وَالتَّوَجُّهِ وَالتَّعَلُّقِ.
- أَوْ كُلُّ مَا سَمَّاهُ اللهُ شِرْكًا.
- أَوِ الإِيمَانُ بِالطَّاغُوتِ وَعَدَمُ البَرَاءَةِ مِنْهُ.
- أَوِ السِّحْرُ وَالكَهَانَةُ وَالعِرَافَةُ وَالتَّنْجِيمُ.

وَيَدُورُ عَلَىٰ أَصْلَيْنِ:

التَّعْطِيلُ: تَعْطِيلُ اللهِ عَنْ كَمَالِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ.

التَّشَبُّهُ وَالتَّشْبِيهُ.

وَمِمَّا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ وَوَقَعَ الشِّرْكُ فِيهِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا:

- الأَشْجَارُ وَالأَحْجَارُ.
- وَالأَنْبِيَاءُ وَالأَوْلِيَاءُ.
- وَالجِنُّ.
- وَالمَلَائِكَةُ.
- وَالشَّيْطَانُ وَنَشَأَتْ فِرَقٌ مُعَاصِرَةٌ تُصَرِّحُ بِعِبَادَتِهِ.
- وَالعُلَمَاءُ وَالأَحْبَارُ وَالرُّهْبَانُ فِي التَّشْرِيعِ وَالطَّاعَةِ.
- وَالمُلُوكُ وَالرُّؤَسَاءُ.
- وَالقُبُورُ وَالصُّوَرُ.

- وَالحَيَوَانَاتُ كَالبَقَرِ فِي الهِنْدُوسِ.
- وَالكَوَاكِبُ.
- وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ.
- وَالنَّارُ عِنْدَ المَجُوسِ.
- وَعِبَادَةُ الهَوَىٰ وَالمَالِ.
- وَالفَرْجُ يَقُولُ عُبَّادُهُ فِي الهِنْدِ أَنْتَ المَعْبُودُ مِنْكَ خَرَجْنَا وَإِلَيْكَ نَعُودُ.

فَكُنْ أَيُّهَا المُسْلِمُ عَلَىٰ حَذَرٍ فَإِنَّ مَنْ وَقَعَ فِي الشِّرْكِ فَإِنَّ ايمَانَهُ قَدِ انْتَقَضَ وَلَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا بِأَنَّهُ تَعَالَىٰ الوَاحِدُ الأَحَدُ، فَمَنْ دَعَا غَيْرَ اللهِ أَوْ سَجَدَ لِغَيْرِ اللهِ أَوْ أَحَبَّ غَيْرَ اللهِ كَحُبِّ اللهِ أَوْ نَذَرَ لِغَيْرِ اللهِ أَوْ فَعَلَ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ وَالتَّعَلُّقِ لِغَيْرِ اللهِ فَإِنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي حُفْرَةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ حُفَرِ الكُفْرِ وَالخُسْرَانِ وَالنِّيرَانِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [سورة النساء: ٤٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ [سورة الحج: ٣١].

فَالشِّرْكُ أَكْبَرُ جَرِيمَةٍ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ، أَيَّ جَرِيمَةٍ تَتَخَيَّلُهَا فِي ذِهْنِكَ فَالشِّرْكُ أَعْظَمُ مِنْهَا، الشِّرْكُ هُوَ الذَّنْبُ الذِي لَا شَهْوَةَ تَدْعُو إِلَيْهِ، وَلِذَا كَانَ أَعْظَمَ مِنْ غَيْرِهِ، إِنَّمَا هُوَ مَرَضٌ مَحْضٌ، فَسَادٌ خَالِصٌ فِي قَلْبِ مَنْ قَامَ بِهِ هَذَا الشِّرْكُ فَصَدَرَ عَنْهُ الشِّرْكُ، كَيْفَ وَفَوْقَ ذَلِكَ هُوَ مُعَارِضٌ وَمُخَالِفٌ بَلْ مُنَاقِضٌ لِلْفِطْرَةِ التِي فَطَرَ اللهُ الخَلْقَ عَلَيْهَا؟

خَلَقَ الخَلْقَ وَقَدْ فَطَرَهُمْ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، عَلَىٰ مَعْرِفَةِ اللهِ وَعَلَىٰ تَوْحِيدِهِ بِالعِبَادَةِ، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ المُشْرِكِينَ تَغَيَّرَتْ عِنْدَهُمُ الفِطْرَةُ وَفَسَدَتْ.

حَذَارِ يَا عِبَادَ اللهِ فَالجَنَّةُ غَالِيَةٌ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا المَرْءُ إِلَّا بِالإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ وَتَوْحِيدِهِ، وَالمُشْرِكُ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ إِذْ لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ مُوَحِّدَةٌ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾ [سورة المائدة: ٧٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [سورة النساء: ١١٦].

٨٢ - **رُوِيَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «قَالَ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-**

: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ عَلَىٰ مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً». (١)

٨٣ - رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا». (٢)

٨٤ - رُوِيَ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ -رضي الله عنه- قَالَ: يُحْبَسُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُنَادِي: أَيْنَ المُتَّقُونَ؟ فَيَقُومُونَ فِي كَنَفٍ مِنَ الرَّحْمَنِ لَا يَحْتَجِبُ مِنْهُمْ وَلَا يَسْتَتِرُ، قُلْتُ: مَنِ المُتَّقُونَ؟ قَالَ: قَوْمٌ اتَّقَوُا الشِّرْكَ وَعِبَادَةَ الأَوْثَانِ وَأَخْلَصُوا لِلَّهِ العِبَادَةَ فَيَمُرُّونَ إِلَىٰ الجَنَّةِ. (٣)

فَحَذَارِ أَنْ يُضِلَّكَ ابْلِيسُ أَوْ يُلَبِّسَ عَلَيْكَ أَوْ يُشَبِّهَ عَلَيْكَ شَيَاطِينُ الإِنْسِ فَيُزَيِّنُونَ الشِّرْكَ فِي صُورَةِ تَعْظِيمِ الأَوْلِيَاءِ وَمَحَبَّةِ الأَنْبِيَاءِ وَالتَّوَسُّلِ بِهِمْ فَهَذَا مِنْ زَخَارِفِ الشَّيْطَانِ التِي يُضِلُّ بِهَا جُهَّالَ النَّاسِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ أَوْلِيَائِهِ لِيَقَعُوا فِي البَلَاءِ العَظِيمِ، فَإِنَّ الشِّرْكَ خَطَرُهُ عَظِيمٌ وَهُوَ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، فَلَا تُعَانِدْ وَلَا تُغَامِرْ وَاخْضَعْ لِسُلْطَانِ الحَقِّ وَإِيَّاكَ وَأَنْ تَأْخُذَكَ حَمِيَّةُ الجَاهِلِيَّةِ أَوْ عِزَّةُ الإِثْمِ فَالخَسَارَةُ هُنَا لَيْسَتْ قَابِلَةً لِلاسْتِدْرَاكِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الزمر: ١٤-١٧]

٨٥ - رُوِيَ عَنْ مُعَاذٍ -رضي الله عنه- قَالَ: أَوْصَانِي رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- بِعَشْرِ كَلِمَاتٍ، قَالَ: «لَا تُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئًا وَإِنْ قُتِلْتَ وَحُرِّقْتَ». (٤)

وَذَلِكَ لِأَنَّ الشِّرْكَ بِاللهِ ظُلْمٌ عَظِيمٌ بَلْ هُوَ أَعْظَمُ الظُّلْمِ: قَالَ تَعَالَىٰ حَاكِيًا قَوْلَ لُقْمَانَ لِابْنِهِ:

---

(١) «سُنَنُ التِّرْمِذِيِّ -رحمه الله-» (٦/ ١٤٣).

(٢) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» (١/ ١٣١).

(٣) رَوَاهُ اللَّالِكَائِيُّ (٨٦٤).

(٤) رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ -رحمه الله- فِي المُسْنَدِ (٣٦/ ٣٩٢ ط الرِّسَالَةِ).

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة لقمان: ١٣].

٨٦ - رُوِيَ عَنِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- قَالَ: قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: يَا ابْنَ آدَمَ، خَلَقْتُكَ وَتَعْبُدُ غَيْرِي! وَتَدْعُو إِلَيَّ وَتَفِرُّ مِنِّي! وَتُذَكَّرُ بِي وَتَنْسَانِي! هَذَا أَظْلَمُ ظُلْمٍ فِي الأَرْضِ، ثُمَّ يَتْلُو الحَسَنُ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان: ١٣].(١)

٨٧ - وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [سورة الأنعام: ٨٢] شَقَّ ذَلِكَ عَلَىٰ النَّاسِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ! أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَه؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُون، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَىٰ مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ:» ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة لقمان: ١٣].(٢)

٨٨ - قَالَ ابْنُ زَيْدٍ ﴿بِظُلْمٍ﴾ أَيْ: بِشِرْكٍ، فَأَمَّا الذُّنُوبُ فَلَيْسَ يَبْرَأُ مِنْهَا أَحَدٌ.(٣)

وَالشِّرْكُ أَعْظَمُ المُحَرَّمَاتِ وَأَوَّلُهَا: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿* قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٥١].

وَهُوَ أَعْظَمُ الضَّلَالِ وَأَعْظَمُ الإِثْمِ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ

---

(١) أَخْرَجَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي زَوَائِدِ الزُّهْدِ (٨٥).

(٢) البُخَارِيُّ (٣٢) وَمُسْلِمٌ (١٩٧).

(٣) رَوَاهُ الطَّبَرِيُّ (١٣٤٧٤).

وَقَدْ فَسَّرَهَا بِالشِّرْكِ: جَمْعٌ مِنَ السَّلَفِ مِنْهُمْ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَسَلْمَانُ وَحُذَيْفَةُ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ، وَعَمْرِو بْنِ شُرَحْبِيلَ، وَعَلْقَمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَابُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ وَقَتَادَةُ وَأَبُو مَيْسَرَةَ وَإِبْرَاهِيمُ وَأَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي مُوسَىٰ وَعِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ وَابْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ جُرَيْجٍ.

قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ [سورة طه: ١١١]، يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ: وَلَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ وَطَلِبَتِهِ مَنْ حَمَلَ إِلَىٰ مَوْقِفِ القِيَادَةِ شِرْكًا بِاللهِ، وَكُفْراً بِهِ، وَعَمَلاً بِمَعْصِيَتِهِ.

وَبِنَحْوِ الذِي قُلْنَا فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ، قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ، ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ:

حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ يَحْيَىٰ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ [سورة طه: ١١١]، قَالَ: مَنْ حَمَلَ شِرْكًا.

ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [سورة النساء: ١١٦] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [سورة النساء: ٤٨].

وَهُوَ أَكْبَرُ الكَبَائِرِ وَأَعْظَمُهَا عَلَىٰ الإِطْلَاقِ:

٨٩ - **رُوِيَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** -رضي الله عنه- **عَنِ النَّبِيِّ** -ﷺ- **قَالَ:** «**أَكْبَرُ الكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ**».

وَهُوَ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ:

٩٠ - **رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ** -رضي الله عنه- **قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ** -ﷺ-: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ**».

وَالشِّرْكُ يُحْبِطُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ: فَإِذَا أَشْرَكَ العَبْدُ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ لَهُ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ مِنْ جِهَادٍ وَصَلَاةٍ وَطَلَبِ عِلْمٍ وَصَدَقَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَعْمَالِ وَالعِبَادَاتِ فَإِنَّ وُقُوعَهُ فِي الشِّرْكِ بَعْدَ ذَلِكَ سَبَبٌ فِي ذَهَابِ أَجْرِهَا وَحُبُوطِهَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة الأنعام: ٨٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ مُخَاطِباً النَّبِيَّ -ﷺ- **وَالأَنْبِيَاءَ جَمِيعاً:** ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الزمر: ٦٥].

وَالكُفْرُ وَالشِّرْكُ بِاللهِ هُوَ إِعْلَانُ الحَرْبِ عَلَىٰ اللهِ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة المائدة: ٣٣]

٩١ - **قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ** -رحمه الله-: المُحَارَبَةُ لِلَّهِ الكُفْرُ بِهِ.[(١)]

٩٢ - **وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ:** يَعْنِي بِالمُحَارَبَةِ الشِّرْكَ نَظِيرُهَا فِي بَرَاءَةَ ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة التوبة: ١٠٧].[(٢)]

---

(١) «صَحِيحُ البُخَارِيِّ» (٦/ ٥١).

(٢) «تَفْسِيرُ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ» (١/ ٤٧٢).

وَقَدْ نَهَانَا رَبُّنَا عَنْ جَمِيعِ صُوَرِ الشِّرْكِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿* وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء: ٣٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿* قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة الأنعام: ١٥١].

وَقَوْلُهُ: ﴿شَيْـًٔا﴾ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّهْيِ فَتَعُمُّ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ دَقِيقَهَا وَجَلِيلَهَا.

بَلْ حَتَّىٰ الأَنْبِيَاءُ نَبَّهَهُمْ رَبُّنَا مِنَ الوُقُوعِ فِي الشِّرْكِ مَعَ أَنَّهُمْ عُصِمُوا مِنْهُ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ [سورة الحج: ٢٦].

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ -عليه السلام-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٣٥].

٩٣- **رُوِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ أَنَّهُ قَالَ:** مَنْ يَأْمَنُ البَلَاءَ بَعْدَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾.(١)

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّنَا -ﷺ-: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة يونس: ١٠٥].

تَنْبِيهُ الأَنْبِيَاءِ مِنَ الوُقُوعِ فِي الشِّرْكِ تَنْبِيهٌ عَلَىٰ شِدَّةِ قُبْحِهِ وَعِظَمِ جُرْمِهِ وَخَطَرِهِ.

وَكَانَ الأَنْبِيَاءُ وَالصَّالِحِينَ يَنْهَوْنَ النَّاسَ أَشَدَّ النَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ:

قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِوَالِدِهِ عِنْدَمَا دَعَاهُ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [سورة مريم: ٤٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ ذَاكِراً قَوْلَ لُقْمَانَ لِابْنِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة لقمان: ١٣].

وَنَهَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَتَّصِفَ الإِنْسَانُ بِالشِّرْكِ: كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة القصص: ٨٧].

---

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ١٣/ ٦٨٧-٦٨٨ بِنَحْوِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الروم: ٣١].

وَالنَّهْيُ عَنِ الكَوْنِ عَلَىٰ صِفَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ أَبْلَغُ مِنَ النَّهْيِ عَنْ تِلْكَ الصِّفَةِ.

وَالشِّرْكُ هُوَ الذَّنْبُ الوَحِيدُ الذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ لِمَنْ مَاتَ عَلَيْهِ، أَيُّ ذَنْبٍ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ سِوَىٰ الشِّرْكِ فَهُوَ قَابِلٌ لِلْمَغْفِرَةِ، أَمَّا الشِّرْكُ فَلَا، حَكَمَ اللهُ وَهُوَ الذِي لَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيْهِ بِأَنَّ هَذَا الشِّرْكَ لَا يُغْفَرُ لِصَاحِبِهِ إِنْ مَاتَ عَلَيْهِ.

الشِّرْكُ هُوَ الذَّنْبُ الوَحِيدُ الذِي يُخَلِّدُ صَاحِبَهُ فِي النَّارِ.

الإِشْرَاكُ الذِي رُبَّمَا لَا يَسْتَغْرِقُ مِنَ الوَقْتِ إِلَّا شَيْئًا قَلِيلاً، عُقْبَاهُ نَارٌ تَلَظَّىٰ إِلَىٰ مَا لَا نِهَايَةَ، مَنْ أَشْرَكَ مَعَ اللهِ فَمَصِيرُهُ إِلَىٰ النَّارِ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا.

٩٤ - قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدّاً دَخَلَ النَّارَ».

هَذَا الدُّخُولُ دُخُولٌ مُؤَبَّدٌ.

الشِّرْكُ الذَّنْبُ الوَحِيدُ الذِي يُحْبِطُ جَمِيعَ الأَعْمَالِ، كُلُّ حَسَنَةٍ فَرَطَتْ وَتَقَدَّمَتْ مِنْ هَذَا الإِنْسَانِ إِنْ كَانَ فِي آخِرِ أَمْرِهِ قَدْ أَشْرَكَ مَعَ اللهِ فَكُلُّ مَا تَقَدَّمَهُ صَارَ هَبَاءً مَنْثُوراً.

لَوْ قَدَّرْنَا أَنَّ إِنْسَانًا عَاشَ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ سَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ أَوْ تِسْعِينَ سَنَةً، أَمْضَىٰ عَامَّتَهَا فِي طَاعَةِ اللهِ، فِي ذِكْرٍ وَتَسْبِيحٍ وَتَهْلِيلٍ وَصَدَقَةٍ وَصِيَامٍ وَصَلَاةٍ وَقِيَامٍ وَتِلَاوَةِ قُرْآنٍ،

مَا النَّتِيجَةُ لَوْ أَنَّهُ مَاتَ عَلَىٰ الشِّرْكِ وَمَا تَابَ إِلَىٰ اللهِ؟

مَا حَالُ وَمَا مَصِيرُ ثَمَانِينَ، تِسْعِينَ سَنَةً مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؟

بَيَّنَ اللهُ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الفرقان: ٢٣].

إِذاً: الشِّرْكُ الأَكْبَرُ القَطْرَةُ مِنْهُ تُفْسِدُ بِحَارَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، أَرَأَيْتَ ذَنْبًا كَهَذَا الذَّنْبِ؟

قَطْرَةٌ مِنْهُ مَا اسْتَغْرَقَتْ شَيْئًا مِنَ الوَقْتِ، لَكِنْ نَتِيجَتُهَا -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- أَنَّهَا تُفْسِدُ بِحَاراً وَمُحِيطَاتٍ مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.

مَسْأَلَةٌ: وُجُوبُ تَعَلُّمِ الشِّرْكِ وَمَسَائِلِهِ وَمَعَانِيهِ وَأَوْصَافِهِ وَأَسْبَابِهِ:

يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْرِفَ التَّوْحِيدَ الذِي أُمِرْنَا بِهِ، وَيَعْرِفَ الشِّرْكَ الذِي يَنْقُضُهُ وَيَسْعَىٰ حَثِيثًا فِي تَعَلُّمِ كُلِّ ذَلِكَ، وَهَذَا حِصْنٌ لِلْمُؤْمِنِ إِذَا تَعَلَّمَ هَذَا الأَمْرَ، وَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الشَّرِّ لِمَعْرِفَتِهِ ثُمَّ اجْتِنَابِهِ.

وَكَمَا سَبَقَ فَإِنَّ الشِّرْكَ لَهُ شَأْنٌ لَيْسَ كَغَيْرِهِ، فَهُوَ حَرِيٌّ أَنْ يَخَافَهُ الإِنْسَانُ، وَأَنْ يَكُونَ فِي وَجَلٍ عَظِيمٍ مِنْهُ، وَخُذْهَا قَاعِدَةً: كُلَّمَا قَوِيَ الإِيمَانُ عَظُمَ الخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ، إِذَا كَانَ الإِنْسَانُ إِيمَانُهُ بِاللهِ عَظِيمًا فَثِقْ أَنَّ خَوْفَهُ مِنَ الشِّرْكِ عَظِيمٌ، وَلِذَا تَأَمَّلْ حَالَ إِمَامِ المُوَحِّدِينَ وَأَبِي الأَنْبِيَاءِ عليهم الصلاة والسلام وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ الخَلِيلُ، أَفْضَلُ البَشَرِ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ بَعْدَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ مُحَمَّداً خَلِيلاً، هَذَا الذِي هُوَ إِمَامُ الحُنَفَاءِ المُوَحِّدِينَ، لَمَّا عَظُمَ تَوْحِيدُهُ لِلَّهِ انْظُرْ كَيْفَ كَانَ خَوْفُهُ مِنَ الشِّرْكِ، دَعَا اللهَ لَهُ بِدُعَاءٍ صَادِقٍ فَقَالَ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾ [سورة إبراهيم: ٣٥].

سُبْحَانَ اللهِ هَذَا وَهُوَ مَعْصُومٌ مِنَ الشِّرْكِ وَمَعَ ذَلِكَ يَخَافُهُ، فَكَيْفَ بِنَا؟

٩٥ - **قَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ:** فَمَنْ يَأْمَنُ البَلَاءَ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ؟!

وَالسَّلَفُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ كَانُوا يَخَافُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ وَالوُقُوعِ فِيهِ:

٩٦ - **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ:** «كَانَ الثَّوْرِيُّ يَأْتِي إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ فَيَقُولُ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَقْبِضَنَا عَلَىٰ التَّوْحِيدِ».[(١)]

٩٧ - **وَقَالَ ابْنُ مَسْعُود** -رضي الله عنه-: «إِنَّمَا مَثَلُ ابْنِ آدَمَ كَالشَّيْءِ الْمُلْقَىٰ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ -عز وجل- وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنْ كَانَ لِلَّهِ فِيهِ حَاجَةٌ حَازَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ فِيهِ حَاجَةٌ خَلَّىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ».[(٢)]

٩٨ - **وَقَالَ الحَارِثُ بْنُ مُعَاوِيَةَ: إِنِّي** لَجَالِسٌ فِي حَلْقَةٍ وَفِيهَا أَبُو الدَّرْدَاءِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ يُحَذِّرُنَا الدَّجَّالَ فَقُلْتُ: وَاللهِ لَغَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُ عَلَىٰ نَفْسِي مِنَ الدَّجَّالِ، قَالَ: وَمَا الذِي أَخْوَفُ فِي نَفْسِكَ مِنَ الدَّجَّالِ؟ قُلْتُ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُسْلَبَ مِنِّي إِيمَانِي وَلَا أَدْرِي، قَالَ: لِلَّهِ أُمُّكَ يَا ابْنَ الكِنْدِيَّةِ أَتَرَىٰ فِي النَّاسِ مِائَةً يَتَخَوَّفُونَ مِثْلَ مَا تَتَخَوَّفُ؟ لِلَّهِ أُمُّكَ يَا ابْنَ الكِنْدِيَّةِ أَتَرَىٰ فِي النَّاسِ خَمْسِينَ يَتَخَوَّفُونَ مِثْلَ الذِي تَتَخَوَّفُ؟ لِلَّهِ أُمُّكَ يَا ابْنَ الكِنْدِيَّةِ أَتَرَىٰ فِي النَّاسِ عَشَرَةً يَتَخَوَّفُونَ مِثْلَ مَا تَتَخَوَّفُ؟ لِلَّهِ أُمُّكَ يَا ابْنَ الكِنْدِيَّةِ أَتَرَىٰ فِي النَّاسِ ثَلَاثَةً يَتَخَوَّفُونَ مِثْلَ مَا تَتَخَوَّفُ؟ وَاللهِ مَا

---

(١) الثَّبَاتُ عِنْدَ المَمَاتِ لِابْنِ الجَوْزِيِّ (٥٩٧).

(٢) الزُّهْدُ لِأَحْمَدَ (٨٤٤).

أَمِنَ رَجُلٌ قَطُّ أَنْ يُسْلَبَ إِيمَانُهُ إِلَّا سُلِبَهُ وَمَا سُلِبَهُ فَوَجَدَ فَقْدَهُ.[١]

٩٩ - **وَرُوِيَ عَنْ زُهَيْرِ بْنِ نُعَيْمٍ البَابِيِّ قَالَ:** مَا أَكْبَرَ هَمِّي ذُنُوبِي، إِنَّمَا أَخَافُ مَا هُوَ أَعْظَمُ عَلَيَّ مِنَ الذُّنُوبِ وَهُوَ أَنْ أُسْلَبَ التَّوْحِيدَ، وَأَمُوتَ عَلَىٰ غَيْرِهِ.

١٠٠ - **وَقَالَ مُجِيبُ بْنُ مُوسَىٰ الأَصْبَهَانِيُّ:** كُنْتُ عَدِيلَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ إِلَىٰ مَكَّةَ فَرَأَيْتُهُ يُكْثِرُ الْبُكَاءَ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، بُكَاؤُكَ هَذَا خَوْفًا مِنَ الذُّنُوبِ؟ قَالَ: فَأَخَذَ عُودًا مِنَ الْمَحْلِ فَرَمَىٰ بِهِ فَقَالَ: «إِنَّ ذُنُوبِي أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ هَذَا وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ أُسْلَبَ التَّوْحِيدَ».[٢]

١٠١ - **لِذَلِكَ فَإِنَّ الأَمْرَ كَمَا قَالَ سُلَيْمَانُ لِابْنِهِ: يَا** بُنَيَّ لَا تَعْجَبْ مِمَّنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ، وَلَكِنِ اعْجَبْ مِمَّنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا، يَا بُنَيَّ لَا غِنَىٰ أَفْضَلُ مِنْ صِحَّةِ جِسْمٍ، وَلَا نَعِيمَ أَفْضَلُ مِنْ قُرَّةِ عَيْنٍ.[٣]

١٠٢ - **وَرُوِيَ عَنْ رَجَاءِ بْنِ حَيْوَةَ، أَنَّ مَحْمُودَ بْنَ الرَّبِيعِ، أَخْبَرَهُ، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، قَالَ:** طُفْتُ مَعَهُ يَوْمًا فِي السُّوقِ، ثُمَّ دَخَلَ بَيْتَهُ فَاسْتَلْقَىٰ عَلَىٰ فِرَاشِهِ، ثُمَّ سَجَّىٰ ثَوْبَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ثُمَّ بَكَىٰ حَتَّىٰ سَمِعْتُ نَشِيجًا، ثُمَّ قَالَ: لِيَبْكِ الغَرِيبُ، لَا يَبْعُدِ الإِسْلَامُ مِنْ أَهْلِهِ، قُلْتُ: وَمَاذَا تَخَوَّفُ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ: أَتَخَوَّفُ عَلَيْهِمُ الشِّرْكَ وَشَهْوَةً خَفِيَّةً، قَالَ: قُلْتُ: أَتَخَافُ عَلَيْهِمُ الشِّرْكَ وَقَدْ عَرَفُوا اللهَ وَدَخَلُوا فِي الإِسْلَامِ؟

قَالَ: فَدَفَعَ بِكَفِّهِ فِي صَدْرِي ثُمَّ قَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ مَحْمُودُ، مَا تَرَىٰ الشِّرْكَ إِلَّا أَنْ تَجْعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ؟ وَمَا يَعْنِي بِذَلِكَ إِلَّا أَهْلُ القَدَرِ.[٤]

إِذاً: كُلَّمَا عَظُمَ التَّوْحِيدُ فِي قَلْبِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ فِي قَلْبِكَ أَعْظَمَ، وَهَذَا الخَوْفُ دَافِعٌ إِلَى التَّعَلُّمِ وَالتَّحَرُّزِ، أَنْ تَعْرِفَ مَا هُوَ هَذَا الشِّرْكُ بِتَفَاصِيلِهِ وَدَقَائِقِهِ وَذَرَائِعِهِ، وَأَنْ تَتَحَرَّزَ، تُرَابِطُ عَلَىٰ ثُغُورِ لِسَانِكَ وَجَوَارِحِكَ وَقَلْبِكَ بِحَيْثُ لَا تَمِيلُ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنَ الشِّرْكِ وَلَا تَحُومُ حَوْلَهُ أَصْلاً، هَذَا مِنْ ثَمَرَاتِ الخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ.

هَذَا وَقَدْ كَثُرَ فِي المُعَاصِرِينَ الجَهْلُ بِحَقِيقَةِ الشِّرْكِ، لَمَّا لَمْ يَفْهَمُوا مَا هُوَ الشِّرْكُ الذِي حَرَّمَهُ

---

(١) القَدَرُ لِلْفِرْيَابِيِّ (٧٠).

(٢) الشُّعَبُ (٨٣٩).

(٣) «حِلْيَةُ الأَوْلِيَاءِ وَطَبَقَاتُ الأَصْفِيَاءِ-ط السَّعَادَةِ» (٣/ ٧٢).

(٤) «الإِبَانَةُ الكُبْرَىٰ-ابْنُ بَطَّةَ».

اللهُ تَعَالَىٰ وَالذِي لَا يَغْفِرُهُ، وَكَثُرَتْ عِنْدَهُمُ الشُّبَهُ حَوْلَ الشِّرْكِ وَحَقِيقَتِهِ وَالسَّبَبِ فِي عَدَمِ مَغْفِرَةِ اللهِ لِصَاحِبِهِ.

وَمِمَّا يُؤَكِّدُ وُجُوبَ العِلْمِ بِحَقِيقَةِ الشِّرْكِ وَشِدَّةِ خُطُورَتِهِ:

- سُرْعَةُ رُجُوعِهِ.
- خَفَاؤُهُ.
- تَنَوُّعُ الوَسَائِلِ الدَّاعِيَةِ لَهُ وَالذَّرَائِعِ المُفْضِيَةِ إِلَيْهِ.
- كَثْرَةُ صُوَرِهِ.

وَالشِّرْكُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ سَيَكْثُرُ وَيَفْشُو بَيْنَ النَّاسِ:

١٠٣ - **قَالَ** -ﷺ-: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَىٰ ذِي الخَلَصَةِ**».(١)

١٠٤ - **قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ** -رضي الله عنه-: وَذُو الخَلَصَةِ طَاغِيَةُ دَوْسٍ التِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا فِي الجَاهِلِيَّةِ.(٢)

وَقَدْ وَقَعَ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ -ﷺ- فِي هَذَا الحَدِيثِ، فَإِنَّ قَبِيلَةَ دَوْسٍ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ العَرَبِ قَدِ افْتَتَنُوا بِذِي الخَلَصَةِ عِنْدَ مَا عَادَ الجَهْلُ إِلَىٰ تِلْكَ البِلَادِ، فَأَعَادُوا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ وَعَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ مَنْ حَارَبَ الشِّرْكَ فِي الجَزِيرَةِ.

١٠٥ - **وَقَالَ** -ﷺ-: «**لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّىٰ تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالعُزَّىٰ**» فَقَالَتْ عَائِشَةُ -رضي الله عنها- يَا رَسُولَ اللهِ!

إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة التوبة: ٣٣] أَنَّ ذَلِكَ تَامًّا، فَقَالَ: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتُوَفَّىٰ كُلُّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيَبْقَىٰ مَنْ**

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ: الفِتَنُ بَابُ: تَغْيِيرِ الزَّمَانِ حَتَّىٰ تُعْبَدَ الأَوْثَانُ (٦٦٩٩).

(٢) وَ(ذُو الخَلَصَةِ): اسْمٌ لِلْبَيْتِ الذِي كَانَ فِيهِ الصَّنَمُ، وَقِيلَ: اسْمُ البَيْتِ، الخَلَصَةُ، وَاسْمُ الصَّنَمِ: ذُو الخَلَصَةِ.

وَ(ذُو الخَلَصَةِ): اسْمٌ لِصَنَمَيْنِ كُلٌّ مِنْهَا يُدْعَىٰ ذَا الخَلَصَةِ، أَحَدُهُمَا لِدَوْسٍ، وَالثَّانِي لِخَثْعَمَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ العَرَبِ، فَأَمَّا صَنَمُ دَوْسٍ، فَهُوَ المُرَادُ فِي هَذَا الحَدِيثِ، وَلَا يَزَالُ مَكَانُ هَذَا الصَّنَمِ مَعْرُوفًا إِلَىٰ الآنَ فِي بِلَادِ زَهْرَانَ (جَنُوبَ الطَّائِفِ)، فِي مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ: (ثَرُوقٌ) مِنْ بِلَادِ دَوْسٍ، وَيَقَعُ ذُو الخَلَصَةِ قَرِيبًا مِنْ قَرْيَةٍ تُسَمَّىٰ (رَمْسٌ) بِفَتْحِ الرَّاءِ وَالمِيمِ.

لَا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ دِينِ آبَائِهِمْ». (١)

١٠٦ - وَقَالَ -ﷺ-: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالمُشْرِكِينَ، وَحَتَّىٰ تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ». (٢)

١٠٧ - وَقَالَ -ﷺ-: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَرْجِعَ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي إِلَىٰ أَوْثَانٍ يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ». (٣)

فَشَأْنُ الشِّرْكِ عَظِيمٌ وَخَطَرُهُ كَبِيرٌ.

١٠٨ - وَجَاءَ فِي حَدِيثِ السَّاعَةِ قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «يَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السِّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفاً وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَراً، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ...»

وَمِنْ هَذَا القَبِيلِ إِخْبَارُهُ -ﷺ- بِخُرُوجِ النَّاسِ مِنَ الإِيمَانِ وَدَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ الشِّرْكِ بِسَبَبِ مَا يَعْرِضُ لَهُمْ مِنَ الفِتَنِ وَمِمَّا رُوِيَ فِي ذَلِكَ:

١٠٩ - قَوْلُهُ -ﷺ-: «إِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ؛ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِناً، وَيُمْسِي كَافِراً، وَيُمْسِي مُؤْمِناً، وَيُصْبِحُ كَافِراً...»

١١٠ - وَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ».

فَمَا وُجِدَ مِنَ الشِّرْكِ وَحَصَلَ فِي الأُمَمِ السَّابِقَةِ إِلَّا وَسَيَحْصُلُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ وَسَيَقَعُ لَا مَحَالَةَ.

فَالشِّرْكُ الذِي حَصَلَ فِي عَصْرِ نُوحٍ -عليه السلام- وَبَعْدَهُ قَوْمُ عَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ عُبَّادِ الكَوَاكِبِ وَقَوْمُ شُعَيْبٍ وَقَوْمُ لُوطٍ أَصْحَابِ الرَّسِّ وَقَوْمُ تُبَّعٍ وَاليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ وَمُشْرِكِي العَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الأُمَمِ، كُلُّ مَا وَقَعَ فِيهِ هَؤُلَاءِ مِنْ شِرْكٍ وَضَلَالٍ فَإِنَّهُ وَاقِعٌ مِثْلُهُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ.

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٩٠٧).

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ -رحمه الله- (٤٢٥٢).

(٣) «مُسْنَدُ أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ» (٤/ ٢٣٩).

وَقَدْ رَأَيْنَا مِصْدَاقَ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ -ﷺ- مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ فَقَدْ وَقَعَ التَّشَبُّهُ بِالكُفَّارِ وَالعَمَلُ بِعَمَلِهِمْ وَتَتَبُّعُ سُنَّتِهِمْ وَالتَّشَبُّهُ بِهِمْ وَتَتَبُّعُ طُرُقِهِمْ فِي الشِّرْكِ وَمُشَابَهَتُهُمْ فِي المَظْهَرِ العَامِّ وَالشَّكْلِ الخَارِجِيِّ وَالهَيْئَةِ وَالمَلْبَسِ وَفِي الأَعْيَادِ وَإِحْيَائِهَا، لِذَلِكَ كَثُرَتِ الأَعْيَادُ القَوْمِيَّةُ وَالوَطَنِيَّةُ وَإِحْيَاءُ الذِّكْرَىٰ وَالاسْتِقْلَالِ وَالمِيلَادِ وَهَذِهِ مِنْ عِنْدِ النَّصَارَىٰ، وَكَذَلِكَ النَّيْرُوزُ وَالمِهْرَجَانَاتُ وَالتِي جَاءَتْ مِنْ عِنْدِ المَجُوسِ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ البِدَعِ التِي وَقَعَ فِيهَا النَّاسُ اليَوْمَ، وَقَدْ يَكُونُ التَّشَبُّهُ بِهِمْ فِي عِبَادَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْعُرَ المُتَشَبِّهُ الأَبْلَهُ أَنَّهَا مِنَ العِبَادَةِ كَمَا هُوَ الحَالُ مَثَلاً فِي السَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ كَالتَّحِيَّا العَسْكَرِيَّةِ وَتَعْظِيمِ الشِّعَارَاتِ القَوْمِيَّةِ وَالوَطَنِيَّةِ وَالأَعْلَامِ، وَهَذِهِ كُلُّهَا فَضْلاً عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ الوَاضِحَةِ الصَّرِيحَةِ، فَكَمَا أَنَّ أَقْوَماً قَالُوا أَنَّ عِيسَىٰ ابْنُ اللهِ فَفِي هَذِهِ الأُمَّةِ مَنْ قَالَ عَلِيّاً هُوَ اللهُ أَوِ ابْنُ اللهِ، وَمَنِ ادَّعَىٰ النُّبُوَّةَ فِي الأُمَمِ السَّابِقَةِ فَقَدْ وُجِدَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مَنِ ادَّعَىٰ النُّبُوَّةَ، وَمَنْ أَنْكَرَ وُجُودَ اللهِ فِي الأُمَمِ السَّابِقَةِ فَقَدْ وُجِدَ مَنْ وَقَعَ مِنْهُ ذَلِكَ مِمَّنِ انْتَسَبَ لِهَذِهِ الأُمَّةِ، وَمَنْ سَبَّ اللهَ وَدِينَهُ فِي الأُمَمِ السَّابِقَةِ فَقَدْ وُجِدَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، وَمَنْ عَبَدَ الأَوْثَانَ وَالصَّالِحِينَ مِنَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ فَقَدْ وُجِدَ مَنْ عَبَدَهُمْ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ، وَمَنِ اسْتَبَاحَ الحَرَامَ أَوْ حَرَّمَ الحَلَالَ مِنَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ فَقَدْ وُجِدَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَمَنْ عَظَّمَ المَخْلُوقَ وَاتَّخَذَهُ رَبّاً فِي الأُمَمِ السَّابِقَةِ فَقَدْ وُجِدَ مَنْ وَقَعَ مِنْهُ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ، وَهَكَذَا كُلُّ مُخَالَفَةٍ وَقَعَتْ فِي الأُمَمِ السَّابِقَةِ فَإِنَّهَا وَاقِعَةٌ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ لَا مَحَالَةَ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَعْظَمَ مِنْهُ، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ.

لِذَلِكَ عُلِّمْنَا أَنْ نَقُولَ شَيْئاً قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ:

١١١ - قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبْزَىٰ -رضي الله عنه-: كَانَ النَّبِيُّ -ﷺ- إِذَا أَصْبَحَ قَالَ:

«أَصْبَحْنَاعَلَىٰ فِطْرَةِ الإِسْلَامِ، وَعَلَىٰ كَلِمَةِ الإِخْلَاصِ، وَعَلَىٰ دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ -ﷺ- وَعَلَىٰ مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ».[1]

إِذاً: فَإِنَّ أَمْرَ الشِّرْكِ وَاقِعٌ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ، وَهُوَ لَيْسَ أَمْراً خَيَالِيّاً لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ كَمَا يُصَوِّرُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ زَمَانِنَا، بَلْ مُشْرِكِي زَمَانِنَا وَقَعَ مِنْهُمْ مِنَ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ مَا لَمْ يَقَعْ مِنَ المُشْرِكِينَ الأَوَائِلِ، فَأُولَئِكَ المُشْرِكُونَ الذِينَ كَرَهُمُ النَّبِيُّ -ﷺ- وَقَاتَلَهُمْ مَا وَصَلُوا إِلَىٰ بَعْضِ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ

---

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ -رحمه الله- (٣ / ٤٠٧)، وَابْنُ السُّنِّيِّ فِي عَمَلِ اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ (٣٤).

المُشْرِكُونَ المُتَأَخِّرُونَ.

فَأُولَئِكَ الأَوَّلُونَ كَانَ أَحَدُهُمْ يَقُولُ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ.

وَهَذَا شِرْكٌ بِاللهِ لَكِنَّ المُشْرِكَ رَغْمَ شِرْكِهِ يَعْتَقِدُ أَنَّ مَعْبُودَهُ الذِي أَشْرَكَ بِهِ حَقِيرٌ صَغِيرٌ أَمَامَ عَظَمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَلِذَا يَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَ يَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، وَكَانُوا فِي الشِّدَّةِ يُخْلِصُونَ دُعَاءَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَىٰ فَلَا يَدْعُونَ إِلَّا اللهَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٦٥].

فَإِذَا نَظَرَ المَرْءُ فِي شِرْكِ المُتَأَخِّرِينَ عَلِمَ عَلَىٰ وَجْهِ اليَقِينِ أَنَّ شِرْكَهُمْ فَاقَ شِرْكَ الأَوَّلِينَ وَذَلِكَ لِعِدَّةِ أُمُورٍ:

أَوَّلًا: أَنَّ المُشْرِكِينَ الأَوَائِلَ كَانُوا يَدْعُونَ اللهَ -ﷻ- مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَيُوَحِّدُونَهُ، وَذَلِكَ فِي حَالِ الخَوْفِ فَلْيَتَجِئُونَ إِلَىٰ اللهِ، وَفِي حَالِ الرَّخَاءِ يَدْعُونَ غَيْرَ اللهِ تَعَالَىٰ فَقَالَ اللهُ عَنْهُمْ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٦٥] أَمَّا المُتَأَخِّرُونَ فَإِنَّهُمْ لَا تَشْتَدُّ دَعْوَتُهُمْ لِغَيْرِ اللهِ إِلَّا فِي حَالَةِ الخَوْفِ فَهَؤُلَاءِ يَسْتَغِيثُونَ بِغَيْرِ اللهِ وَلَا تَأْتِي عِنْدَهُمُ التَّضَرُّعَاتُ وَالاسْتِغَاثَاتُ وَالنُّذُورُ وَنَحْوُهَا إِلَّا فِي حَالِ الشَّدَائِدِ.

ثَانِيًا: أَنَّ الأَوَّلِينَ يَدْعُونَ أَقْوَامًا صَالِحِينَ فَاللَّاتُ رَجُلٌ صَالِحٌ، وَوَدٌّ وَسُوَاعٌ رِجَالٌ صَالِحُونَ، أَمَّا المُتَأَخِّرُونَ فَيَدْعُونَ صَالِحِينَ وَغَيْرَهُمْ أَمْثَالَ ابْنِ عَرَبِيٍّ الكَافِرِ وَالبَدَوِيِّ رَجُلٌ رَافِضِيٌّ خَبِيثٌ.

ثَالِثًا: أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنَا وَقَعُوا فِي شِرْكِ الرُّبُوبِيَّةِ مَعَ الشِّرْكِ فِي الأُلُوهِيَّةِ فَزَعَمُوا أَنَّ الأَوْلِيَاءَ يَخْلُقُونَ وَيَرْزُقُونَ وَيَمْلِكُونَ وَيُدَبِّرُونَ وَيَتَصَرَّفُونَ وَيَعْلَمُونَ الغَيْبَ، أَمَّا الأَوَّلُونَ فَكَانُوا مُقِرِّينَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ فِي الجُمْلَةِ.

رَابِعًا: أَنَّ المُشْرِكِينَ الأَوَائِلَ كَانُوا يَعْلَمُونَ مَعْنَىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَالمُتَأَخِّرُونَ لَا يَعْلَمُونَ مَعْنَاهَا.

خَامِسًا: وُجُودُ مَنْ يُنْكِرُ وُجُودَ اللهِ مِنْ مُشْرِكِي زَمَانِنَا.

سَادِسًا: وُجِدَ مَنْ يَعْبُدُ الشَّيْطَانَ مِنْ مُشْرِكِي زَمَانِنَا.

سَابِعًا: مِنَ المُشْرِكِينَ المُتَأَخِّرِينَ مَنْ يَقُولُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ هُوَ اللهُ وَأَنَّهُ حَلَّ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

وَمِنْ تِلْكَ الأُمُورِ احْتِفَالُ كَثِيرٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ بِمَوْلِدِ النَّبِيِّ -ﷺ-، وَمُبَالَغَتُهُمْ فِي مَدْحِهِ،

وَإِيصَالِهِ إِلَىٰ أُمُورٍ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ قَائِلِهِمْ:

يَا أَكْرَمَ الخَلْقِ مَالِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ ... سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ العَمَمِ
إِنْ لَمْ تَكُنْ فِي مَعَادِي آخِذاً بِيَدِي ... فَضْلاً وَإِلَّا فَقُلْ يَا زَلَّةَ القَدَمِ

وَقَوْلُهُ:

فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا ... وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالقَلَمِ.

وَقَالَ النَّبْهَانِيُّ:

سَيِّدِي أَبَا البَتُولِ أَغِثْنِي ... أَنْتَ أَدْرَىٰ بِمَا حَوَاهُ الضَّمِيرُ

يَقُولُ القَسْطَلَّانِيُّ: فَهُوَ خِزَانَةُ السِّرِّ، وَمَوْضِعُ نُفُوذِ الأَمْرِ، فَلَا يَنْفُذُ أَمْرٌ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا يُنْقَلُ خَيْرٌ إِلَّا عَنْهُ، وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

أَلَا بِأَبِي مَنْ كَانَ مَلِكاً وَسَيِّداً ... وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ وَاقِفٌ
إِذَا رَامَ أَمْراً لَا يَكُونُ خِلَافُهُ ... وَلَيْسَ لِذَاكَ الأَمْرِ فِي الكَوْنِ صَارِفٌ

وَذَكَرَ النَّبْهَانِيُّ عَنْ بَعْضِ أَسَاطِينِهِمْ أَنَّهُ قَالَ:

يَا مَلَاذِي يَا مُنْجِدِي يَا مُنَائِي ... يَا مَعَاذِي يَا مَقْصِدِي يَا رَجَائِي
يَا نَصِيرِي يَا عُمْدَتِي يَا مُجْبِرِي ... يَا خَفِيرِي يَا عُدَّتِي يَا شِفَائِي
أَدْرِكْ أَدْرِكْ أَغِثْ أَغِثْ يَا شَفِيعِي ... عِنْدَ رَبِّي وَاعْطِفْ وَجُدْ بِالرِّضَاءِ
أَنْتَ عَوْنِي وَمَلْجَئِي وَغِيَاثِي ... وَجَلَا كُرْبَتِي وَأَنْتَ غِنَائِي

وَقَالَ أَيْضاً: إِنَّ المُسْلِمِينَ... مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ ـ وَهُمْ جُمْهُورُ الأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ يَعْتَقِدُونَ فِيهِ -ﷺ-: أَنَّهُ يَعْلَمُ الغَيْبَ، وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيَقْضِي حَوَائِجَ السَّائِلِينَ، وَيُفَرِّجُ كُرُبَاتِ المَكْرُوبِينَ، وَأَنَّهُ يَشْفَعُ فِيمَنْ يَشَاءُ، وَيُدْخِلُ الجَنَّةَ مَنْ يَشَاءُ.

وَيَقُولُ البَرِيلَوِيُّ: إِنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- يَقْضِي كُلَّ قِسْمٍ مِنَ الحَاجَاتِ، إِنَّ جَمِيعَ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فِي اخْتِيَارِهِ.

وَيَقُولُ آخَرُ: مَاذَا فِي كِفَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ سِوَىٰ الوَحْدَةِ؟ إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ شَيْئاً فَاطْلُبْهُ مِنْ مُحَمَّدٍ -ﷺ-.

وَأَيْضاً يَقُولُ البَرِيلَوِيُّ: إِنَّ مَفَاتِيحَ الكَوْنِ كُلَّهَا فِي يَدِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-، وَهُوَ مَالِكُ الكُلِّ،

وَأَنَّهُ النَّائِبُ الأَكْبَرُ لِلْقَادِرِ، وَهُوَ الذِي يَمْلِكُ كَلِمَةَ (كُنْ).

وَيَقُولُ أَيْضاً: كُلُّ مَا ظَهَرَ فِي العَالَمِ فَإِنَّمَا يُعْطِيهِ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ -ﷺ- الذِي بِيَدِهِ المَفَاتِيحُ، فَلَا يَخْرُجُ مِنَ الخَزَائِنِ الإِلَهِيَّةِ شَيْءٌ إِلَّا عَلَىٰ يَدَيْهِ، وَإِنَّهُ -ﷺ- إِذَا أَرَادَ شَيْئاً لَا يَكُونُ خِلَافُهُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لِأَمْرِهِ صَارِفٌ فِي الكَوْنِ.

وَيَقُولُ أَيْضاً فِي دِيبَاجَةِ كِتَابِهِ: (الأَمْنُ وَالعُلَىٰ لِنَاعِتِي المُصْطَفَىٰ): (وَصَلَّىٰ رَبُّنَا وَسَلَّمَ عَلَىٰ دَافِعِ البَلَاءِ وَالوَبَاءِ وَالقَحْطِ وَالمَرَضِ وَالأَلَمِ، سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا وَمَالِكِنَا وَمَأْوَانَا مُحَمَّدٍ مَالِكِ الأَرْضِ وَرِقَابِ الأُمَمِ ... قَالَ الفَقِيرُ المُسْتَدْفِعُ البَلَاءَ، مِنْ فَضْلِ نَبِيِّهِ العَلِيِّ الأَعْلَىٰ، صَلَّىٰ عَلَيْهِ اللهُ تَعَالَىٰ، عَبْدُ المُصْطَفَىٰ أَحْمَدُ رِضَا، المُحَمَّدِيُّ الحَنَفِيُّ القَادِرِيُّ البَرَكَاتِيُّ البَرِيلَوِيُّ، دَفَعَ بِنَبِيِّهِ البَلَاءَ، وَمَنَحَ قَلْبَهُ النُّورَ وَالجَلَاءَ).

وَقَالَ: إِنَّ الرَّسُولَ -ﷺ- هُوَ المُبْرِئُ مِنَ السَّقَمِ وَالآلَامِ وَالكَاشِفُ عَنِ الأُمَّةِ كُلَّ خَطْبٍ، وَهُوَ المُحْيِي، وَهُوَ الدَّافِعُ لِلْمُعْضِلَاتِ وَالنَّافِعُ لِلْخَلْقِ، وَالرَّافِعُ لِلرَّاتِبِ، وَهُوَ الحَافِظُ النَّاصِرُ، وَهُوَ دَافِعُ البَلَاءِ، وَهُوَ الذِي بَرَّدَ عَلَىٰ الخَلِيلِ النَّارَ، وَهُوَ الذِي يَهَبُ وَيُعْطِي وَحُكْمُهُ نَافِذٌ، وَأَمْرُهُ جَارٍ فِي الكَوْنَيْنِ.

وَقَالَ: (مِنْهُ الرَّجَاءُ مِنْهُ العَطَاءُ مِنْهُ المَدَدُ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالأُخْرَىٰ لِلْأَبَدِ).

وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- خَلِيفَةُ اللهِ الأَعْظَمُ، وَإِنَّهُ مُتَصَرِّفٌ فِي الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

وَقَالُوا: المُعَامَلَةُ كُلُّهَا بِيَدِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-، يُعْطِي مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ مِنْ جُودِهِ، وَعِلْمُ اللَّوْحِ وَالقَلَمِ مِنْ عُلُومِهِ، فَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَأْتُوا إِلَىٰ بَابِهِ، ثُمَّ اطْلُبُوا مَا شِئْتُمْ.

وَقَالُوا: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ مَكَّنَ النَّبِيَّ -ﷺ- مِنْ إِعْطَاءِ كُلِّ مَا أَرَادَ مِنْ خَزَائِنِ الحَقِّ، وَمِنْ خَصَائِصِهِ -ﷺ- أَنْ يَخُصَّ مَنْ شَاءَ بِمَا يَشَاءُ، وَمِنْ خَصَائِصِهِ -ﷺ- أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَقْطَعَهُ أَرْضَ الجَنَّةِ يُعْطِي مِنْهَا مَا يَشَاءُ مَنْ يَشَاءُ.

وَقَالُوا: إِنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- مَالِكُ الأَرَضِينَ وَمَالِكُ النَّاسِ، وَمَالِكُ الأُمَمِ، وَمَالِكُ الخَلَائِقِ، بِيَدِهِ مَفَاتِيحُ النَّصْرِ وَالمَدَدِ، وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَهُوَ يَكُونُ صَاحِبَ القُدْرَةِ وَالاخْتِيَارِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَيَكْشِفُ الكُرُوبَ وَيَدْفَعُ البَلَاءَ، وَهُوَ حَافِظٌ لِلْأَمَانَةِ وَنَاصِرٌ لَهَا، وَإِلَيْهِ تُرْفَعُ الأَيْدِي لِلِاسْتِنْجَادِ.

وَقَالُوا: إِنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- نَائِبٌ مُطْلَقٌ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَالعَالَمُ كُلُّهُ تَحْتَ تَصَرُّفِهِ، فَهُوَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيُعْطِي مَا يَشَاءُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَسْلُبُ مَا يَشَاءُ مَنْ يَشَاءُ؛ لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ فِي العَالَمِ كُلِّهِ، وَالعَالَمُ كُلُّهُ مَحْكُومٌ لَهُ، وَهُوَ مَالِكٌ لِجَمِيعِ بَنِي آدَمَ، وَالأَرْضُ كُلُّهَا وَالجَنَّةُ كُلُّهَا مِلْكُهُ.

وَمَلَكُوتُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ تَحْتَ أَمْرِهِ، وَمَفَاتِيحُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي يَدِهِ، وَالرِّزْقُ وَالخَيْرُ وَكُلُّ قِسْمٍ مِنَ العَطَاءِ يُوَزَّعُ مِنْ عِنْدِهِ، إِنَّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ حِصَّةٌ مِنْ عَطَائِهِ.

وَقَالُوا: قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا مُحَمَّدُ، كُلُّهُمْ يَطْلُبُونَ رِضَايَ، وَأَنَا أَطْلُبُ رِضَاكَ، وَجَعَلْتُ مُلْكِي كُلَّهُ مِنَ العَرْشِ إِلَىٰ الفَرْشِ فِدَاءً لَكَ، حُكْمُكَ جَارٍ عَلَىٰ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ؛ لَا يَطْلُعُ الشَّمْسُ حَتَّىٰ تُسَلِّمَ عَلَىٰ ابْنِكَ الجِيلَانِيِّ غَوْثِ الثَّقَلَيْنِ وَغَيْثِ الكَوْنَيْنِ.

فَمَنْ يَنْظُرْ فِي حَالِ الصُّوفِيَّةِ وَالشِّيعَةِ اليَوْمَ يَجِدْ أَنَّ بَيْنَهُمْ شَبَهًا كَبِيراً يَرْبِطُهُمْ بِمُشْرِكِي العَرَبِ قَبْلَ الإِسْلَامِ، مَعَ فَارِقٍ يَسِيرٍ لِصَالِحِ مُشْرِكِي العَرَبِ، فَمُشْرِكُو العَرَبِ قَبْلَ الإِسْلَامِ كَانُوا يَحُجُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ هُوَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ -عليه السلام-، وَكَذَلِكَ مُشْرِكُو الصُّوفِيَّةِ وَالشِّيعَةِ، يَحُجُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَيُصَلُّونَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ هُوَ مِلَّةُ مُحَمَّدٍ -ﷺ-.

وَمُشْرِكُو العَرَبِ كَانُوا يَدْعُونَ المَلَائِكَةَ وَالجِنَّ وَالأَصْنَامَ وَالأَوْثَانَ مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَىٰ وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِمْ وَيَسْتَعِيذُونَ بِهِمْ وَيَسْأَلُونَهُمْ قَضَاءَ حَوَائِجِهِمْ، وَالصُّوفِيَّةُ وَالشِّيعَةُ يَفْعَلُونَ نَفْسَ الشَّيْءِ مَعَ الأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، بِزَعْمِ أَنَّهُمْ وُسَطَاءُ وَشُفَعَاءُ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ، مَعَ اعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُونَ، وَلَا يَضُرُّونَ.

بَيْدَ أَنَّ مُشْرِكِي العَرَبِ كَانَ إِذَا حَزَبَهُمْ أَمْرٌ أَخْلَصُوا الدُّعَاءَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، أَمَّا الصُّوفِيَّةُ وَالشِّيعَةُ فَإِذَا حَزَبَهُمْ أَمْرٌ أَخْلَصُوا الدُّعَاءَ لِشُرَكَائِهِمْ مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَهُمْ أَشَدُّ كُفْراً، وَشِرْكًا.

أَسْبَابُ الوُقُوعِ فِي الشِّرْكِ:

أَوَّلاً: الغُلُوُّ فِي المَخْلُوقِينَ.

تَعْظِيمُ المَخْلُوقِينَ فَالغُلُوُّ فِي المَخْلُوقِ مِنْ جِهَةِ تَعْظِيمِهِ وَرَفْعِهِ فَوْقَ مَنْزِلَتِهِ التِي أَنْزَلَهُ اللهُ إِيَّاهَا هُوَ أَصْلُ الشِّرْكِ فِي بَنِي آدَمَ حَيْثُ تَلَاعَبَ الشَّيْطَانُ بِأَجْيَالٍ وَأَقْوَامٍ فَأَوْصَلَهُمْ إِلَىٰ الشِّرْكِ بِاللهِ تَعَالَىٰ مِنْ جِهَةِ تَعْظِيمِ الصَّالِحِينَ وَالمَخْلُوقِينَ فَصَوَّرُوا الأَصْنَامَ عَلَىٰ صُوَرِهِمْ وَعَبَدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ

تَعَالَىٰ، فَنُوحٌ -عليه السلام- عِنْدَمَا دَعَا قَوْمَهُ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ كَذَّبُوهُ وَرَدُّوا دَعْوَتَهُ ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة نوح: ٢٣].

١١٢ - **رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- مِنْ طَرِيقِ عَطَاءٍ-قَالَ:** صَارَتِ الأَصْنَامُ وَالأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ فَكَانَتْ لِكَلْبٍ بِدُومَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ فَكَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلَاعِ، وَكَانُوا أَسْمَاءَ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَىٰ الشَّيْطَانُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ: أَنِ انْصِبُوا إِلَىٰ مَجَالِسِهِمُ التِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِخَ العِلْمُ عُبِدَتْ.(١)

ثَانِيًا: التَّقْلِيدُ:

وَهُوَ سَبَبٌ كَبِيرٌ مِنْ أَسْبَابِ الشِّرْكِ وَعَقَبَةٌ وَقَفَتْ فِي طَرِيقِ التَّوْحِيدِ لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ وَشُبْهَةٌ اتَّفَقَتْ عَلَيْهَا جَمِيعُ الأُمَمِ لِتَرُدَّ بِهَا دَعَوَاتِ الرُّسُلِ -عليهم السلام-.

وَالتَّقْلِيدُ لَيْسَ مَذْمُومًا عَلَىٰ الإِطْلَاقِ بَلْ مِنْهُ مَا هُوَ مَحْمُودٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ مَذْمُومٌ فَمَا كَانَ تَقْلِيداً لِرُسُلِ اللهِ وَأَصْحَابِهِمْ وَأَئِمَّةِ الهُدَىٰ مِنَ المُسْلِمِينَ فَهُوَ تَقْلِيدٌ مُثَابٌ صَاحِبُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ.

فَإِنَّ تَقْلِيدَ الرُّسُلِ وَاتِّبَاعَهُمْ وَالاقْتِدَاءَ بِهِمْ فِي أَفْعَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ أَمْرٌ مَطْلُوبٌ بَلْ هُوَ وَاجِبٌ إِذْ هُمُ المُبَلِّغُونَ عَنِ اللهِ المَبْعُوثُونَ لِهِدَايَةِ البَشَرِ لِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ بِتَقْلِيدِهِمْ وَاتِّبَاعِهِمْ وَأَثْنَىٰ عَلَىٰ المُقْتَدِينَ بِهِمْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٢١] وَالأُسْوَةُ: القُدْوَةُ.

وَتَقْلِيدُ المُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ الصَّالِحِينَ أَمْرٌ مَحْمُودٌ مَمْدُوحٌ صَاحِبُهُ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ تَقْلِيدُهُمْ فِيمَا أَبَاحَتْهُ الشَّرِيعَةُ أَوْ أَمَرَتْ بِهِ أَوْ حَثَّتْ عَلَيْهِ أَيْ: مَا كَانَ مُوَافِقًا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الطور: ٢١].

١١٣ - **وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدِ بْنِ جَبْرٍ -رحمه الله- مِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ-فِي قَوْلِهِ:** ﴿وَٱجْعَلْنَا

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (٤٩٢٠).

لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الفرقان:٧٤]، قَالَ: نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا، وَنَكُونُ أَئِمَّةً لِمَنْ بَعْدَنَا.[1]

وَالتَّقْلِيدُ المَذْمُومُ:

مَا كَانَ تَقْلِيداً لِلْكُفَّارِ وَالمُشْرِكِينَ كَتَقْلِيدِ الآبَاءِ الضَّالِّينَ وَهُوَ الذِي تَمَسَّكَتْ بِهِ جَمِيعُ الأُمَمِ الشِّرْكِيَّةِ وَآثَرَتْهُ عَلَىٰ اتِّبَاعِ الرُّسُلِ وَاحْتَجَّتْ بِهِ وَتَمَسَّكَتْ بِهِ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهَا دَلِيلٌ صَحِيحٌ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالضَّلَالِ وَلِذَلِكَ أَنْكَرَ اللهُ عَلَيْهِمْ هَذَا التَّقْلِيدَ وَقَدْ حَكَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ المَقُولَةَ البَاطِلَةَ-مَقُولَةَ التَّقْلِيدِ-عَنْ بَعْضِ الأُمَمِ وَذَلِكَ فِي ثَنَايَا قَصَصِهِمْ مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ -عليهم السلام-.

فَقَدْ قَالَ قَوْمُ نُوحٍ -عليه السلام-: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٢٤].

وَقَالَ قَوْمُ هُودٍ -عليه السلام-: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [سورة الأعراف: ٧٠].

وَقَالَ قَوْمُ صَالِحٍ -عليه السلام-: ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [سورة هود: ٦٢].

وَقَالَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ -عليه السلام-: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الشعراء: ٧٤].

وَقَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ -عليه السلام-: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [سورة هود: ٨٧].

وَقَالَ قَوْمُ فِرْعَوْنَ لِمُوسَىٰ -عليه السلام-: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [سورة يونس: ٧٨].

وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِمُوسَىٰ -عليه السلام-: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [سورة طه: ٥١].

وَحَكَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ مُشْرِكِي العَرَبِ أَنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَىٰ اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَىٰ أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ مُكْتَفِينَ بِمَا وَرِثُوهُ عَنْ أَبَائِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ وَالضَّلَالِ المُبِينِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [سورة البقرة: ١٧٠].

وَمِنْ أَنْوَاعِ التَّقْلِيدِ المَذْمُومِ: تَقْلِيدُ الرُّؤَسَاءِ وَالسَّادَةِ الضَّالِّينَ وَهَذَا كَذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الشِّرْكِ فَإِنَّ النَّاسَ أَوْ كَثِيراً مِنْهُمْ يَحْرِصُ عَلَىٰ تَقْلِيدِ سَيِّدِهِ وَكَبِيرِ قَوْمِهِ وَمُشَابَهَتِهِ وَذَلِكَ لِمَا يَرْجُوهُ مِنَ

---

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ١٧/ ٥٣٣، وَإِسْحَاقُ البُسْتِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ص ٥٢٦.

المَطَامِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَكَثِيرٌ مِنَ الكُبَرَاءِ هَمُّهُمْ صَرْفُ النَّاسِ عَنِ الحَقِّ الذِي سَيَذْهَبُ بِدُنْيَاهُمْ فَتَرَاهُمْ يُحَارِبُونَ التَّوْحِيدَ وَيُضِلُّونَ أَتْبَاعَهُمْ بِذَلِكَ.

قَالَ تَعَالَىٰ عَنْ قَوْمِ نُوحٍ -عليه السلام-: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ [سورة نوح: ٢١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ عَنْ قَوْمِ هُودٍ -عليه السلام-: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة هود: ٥٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة هود: ٩٧].

ثَالِثًا: الجَهْلُ: الجَهْلُ سَبَبٌ كَبِيرٌ مِنْ أَسْبَابِ الشِّرْكِ فَمَنْ عَرَفَ اللهَ تَعَالَىٰ حَقَّ المَعْرِفَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ أَحداً مِنْ خَلْقِهِ وَإِنَّمَا وَقَعَ المُشْرِكُونَ فِي الشِّرْكِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا اللهَ حَقَّ المَعْرِفَةِ وَلَمْ يَقْدُرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ لَوْ عَرَفُوهُ وَقَدَرُوهُ وَعَظَّمُوهُ كَمَا يَنْبَغِي مَا وَقَعُوا فِيمَا وَقَعُوا مِنَ الإِثْمِ العَظِيمِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ المَصَائِبِ فِي زَمَانِنَا أَنَّ كَثِيراً مِنَ العِبَادِ وَالمُتَسَمِّينَ بِالعُلَمَاءِ لَا يَعْرِفُونَ تَوْحِيدَ المُرْسَلِينَ وَحَقِيقَةَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يَفْهَوُا التَّوْحِيدَ وَلَا حَتَّىٰ حَقِيقَةَ شِرْكِ الأَوَّلِينَ وَلَا لِمَ أُرْسِلَتِ الرُّسُلُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ﴾ [سورة العنكبوت: ٨]

١١٤ - **قَالَ السَّمْعَانِيُّ:** إِنَّمَا قَالَ هَذَا؛ لِأَنَّ الشِّرْكَ كُلَّهُ عَنْ جَهْلٍ، فَإِنَّ العَالِمَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ.

رَابِعًا: الخَوْفُ: مِمَّا لَا يَجُوزُ الخَوْفُ مِنْهُ فَيَدَعُ الْتِزَامَ الحَقِّ بِسَبَبِ هَذِهِ الخَشْيَةِ وَهَذَا مَا يَسْعَىٰ الشَّيْطَانُ لِحَشْوِ قُلُوبِ مَنِ اتَّبَعَهُ بِهَا.

خَامِسًا: حُبُّ الدُّنْيَا: وَيَدْخُلُ فِيهَا أُمُورٌ كَثِيرَةٌ، وَمِنْهَا حُبُّ المَالِ، وَالمَنْصِبِ، وَالنِّسَاءِ، وَقِسْ عَلَىٰ هَذَا فَكَمْ وَكَمْ صَرَفَتْ هَذِهِ عَنِ الحَقِّ.

وَمِنْ عَجَائِبِ مَا يُذْكَرُ فِي هَذَا الصَّارِفِ قِصَّةُ الأَعْشَىٰ مَيْمُونِ بْنِ قَيْسٍ، هُوَ مِنْ سَعْدِ بْنِ ضُبَيْعَةَ بْنِ قَيْسٍ.

وَكَانَ أَعْمَىٰ، وَيُكْنَىٰ أَبَا بَصِيرٍ.

وَكَانَ أَبُوهُ قَيْسٌ يُدْعَىٰ «قَتِيلَ الجُوعِ».

وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ فِي جَبَلٍ فَدَخَلَ غَاراً فَوَقَعَتْ صَخْرَةٌ مِنْ ذَلِكَ الجَبَلِ، فَسَدَّتْ فَمَ الغَارِ، فَمَاتَ فِيهِ جُوعاً، وَكَانَ جَاهِلِيّاً قَدِيماً، وَأَدْرَكَ الإِسْلَامَ فِي آخِرِ عُمْرِهِ، وَرَحَلَ إِلَىٰ النَّبِيِّ -ﷺ- لِيُسْلِمَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ يُحَرِّمُ الخَمْرَ وَالزِّنَا، فَقَالَ: أَتَمَتَّعُ مِنْهُمَا سَنَةً ثُمَّ أُسْلِمُ! فَمَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ بِقَرْيَةٍ بِاليَمَامَةِ.

وَقَالُوا: إِنَّ خُرُوجَهُ يُرِيدُ النَّبِيَّ -ﷺ- فِي صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ، فَسَأَلَهُ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ عَنْ وَجْهِهِ الذَىٰ يُرِيدُ؟

فَقَالَ: أُرِيدُ مُحَمَّداً.

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: إِنَّهُ يُحَرِّمُ عَلَيْكَ الخَمْرَ وَالزِّنَا وَالقِمَارَ، فَقَالَ: أَمَّا الزِّنَا، فَقَدْ تَرَكَنِىٰ وَلَمْ أَتْرُكْهُ، وَأَمَّا الخَمْرُ فَقَدْ قَضَيْتُ مِنْهَا وَطَراً، وَأَمَّا القِمَارُ فَلَعَلِّىٰ أُصِيبُ مِنْهُ خَلَفاً.

قَالَ: فَهَلْ لَّكَ إِلَىٰ خَيْرٍ؟ قَالَ وَمَا هُوَ؟

قَالَ: بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ هُدْنَةٌ، فَتَرْجِعُ عَامَكَ هَذَا وَتَأْخُذُ مِائَةَ نَاقَةٍ حَمْرَاءَ، فَإِنْ ظَهَرَ (بَعْدَ ذَلِكَ) أَتَيْتَهُ، وَإِنْ ظَفِرْنَا بِهِ كُنْتَ قَدْ أَصَبْتَ عِوَضاً مِنْ رِحْلَتِكَ، فَقَالَ: لَا أُبَالِي، فَانْطَلَقَ بِهِ أَبُو سُفْيَانَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ. وَجَمَعَ إِلَيْهِ أَصْحَابَهُ، وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! هَذَا أَعْشَىٰ قَيْسٍ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ شِعْرَهُ، وَلَئِنْ وَصَلَ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ لَيُضَرِّبَنَّ عَلَيْكُمُ العَرَبَ (قَاطِبَةً) بِشِعْرِهِ، فَجَمَعُوا لَهُ مِائَةَ نَاقَةٍ (حَمْرَاءَ)، فَانْصَرَفَ، فَلَمَّا صَارَ بِنَاحِيَةِ اليَمَامَةِ أَلْقَاهُ بَعِيرُهُ فَقَتَلَهُ.

سَادِساً: الكِبْرُ: الكِبْرُ عِلَّةٌ خَفِيَّةٌ وَبَلِيَّةٌ رَزِيَّةٌ مَتَىٰ مَا تَلَبَّسَ بِهَا الإِنْسَانُ تَجَبَّرَ وَتَغَطْرَسَ وَاخْتَالَ وَتَصَلَّفَ وَتَمَادَىٰ فِي الضَّلَالِ وَالغِوَايَةِ وَتَتَابَعَ فِي الجَهْلِ وَالعِيِّ وَآفَتُهُ عَظِيمَةٌ وَغَائِلَتُهُ هَائِلَةٌ وَكَيْفَ لَا تَعْظُمُ آفَتُهُ وَقَدْ قَالَ -ﷺ-: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ**».

وَإِنَّمَا صَارَ حِجَاباً دُونَ الجَنَّةِ لِأَنَّهُ يَحُولُ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ أَخْلَاقِ المُؤْمِنِينَ كُلِّهَا وَتِلْكَ الأَخْلَاقُ هِيَ أَبْوَابُ الجَنَّةِ وَالكِبْرُ وَعِزَّةُ النَّفْسِ يُغْلِقُ تِلْكَ الأَبْوَابَ كُلَّهَا وَلِذَلِكَ كَانَ سَبَباً كَبِيراً مِنْ أَسْبَابِ الشِّرْكِ وَعَائِقاً مَنِيعاً فِي طَرِيقِ التَّوْحِيدِ وَقَدْ أَخْبَرَنَا رَبُّنَا -ﷻ- عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الأُمَمِ أَنَّهُمْ رَفَضُوا التَّوْحِيدَ الذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَبَقُوا عَلَىٰ شِرْكِهِمْ عِنَاداً وَاسْتِكْبَاراً مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ:

فَقَالَ تَعَالَىٰ عَنْ قَوْمِ نُوحٍ عَلَىٰ لِسَانِ نُوحٍ -عليه السلام-: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ

فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧﴾ [سورة نوح: ٧].

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- عَنْ قَوْمِ صَالِحٍ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ۝٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٧٦﴾ [سورة الأعراف: ٧٥-٧٦].

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- عَنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿* قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝٨٨﴾ [سورة الأعراف: ٨٨].

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ۝٤٥ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ۝٤٦﴾ [سورة المؤمنون: ٤٥-٤٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ۝٧٥﴾ [سورة يونس: ٧٥].

وَقَالَ -جَلَّ وَعَلَا- عَنِ اليَهُودِ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ۝٨٧﴾ [سورة البقرة: ٨٧].

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- عَنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ۝٣٦﴾ [سورة الصافات: ٣٥-٣٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ۝٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ۝٢٣﴾ [سورة النحل: ٢٢-٢٣].

وَالكِبْرُ هُوَ سَبَبُ كُفْرِ ابْلِيسَ وَلَعْنَتِهِ وَاخْرَاجِهِ مِنَ الجَنَّةِ، فَهُوَ أَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ بِهِ، وَأَخْبَرَنَا رَبُّنَا أَنَّ النَّارَ هِيَ دَارُ المُتَكَبِّرِينَ، وَرَبُّنَا أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ يُبْغِضُهُمْ وَلَا يُحِبُّهُمْ، وَأَخْبَرَنَا -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بِأَنَّهُ يَصْرِفُ قُلُوبَ المُتَكَبِّرِينَ عَنْ فَهْمِ آيَاتِهِ وَذَكَّرَنَا رَبُّنَا بِمَبْدَأِ خَلْقِنَا لِيَنْهَانَا عَنِ الكِبْرِ، وَحُكِيَ عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ نَظَرَ إِلَىٰ المُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ يَسْحَبُهَا وَيَمْشِي الخُيَلَاءَ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، مَا هَذِهِ المِشْيَةُ التِي يُبْغِضُهَا اللهُ وَرَسُولُهُ؟ فَقَالَ المُهَلَّبُ: أَمَا تَعْرِفُنِي؟ فَقَالَ: بَلْ أَعْرِفُكَ، أَوَّلُكَ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ، وَآخِرُكَ جِيفَةٌ قَذِرَةٌ، وَحَشْوُكَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ بَوْلٌ وَعَذِرَةٌ.

وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الأَحَادِيثُ وَالآثَارُ وَأَقْوَالُ أَهْلِ العِلْمِ فِي ذَمِّ الكِبْرِ:

١١٥ - **قَالَ رَسُولُ اللهِ** -ﷺ-: «**العِزُّ إِزَارُهُ، وَالكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعْنِي عَذَّبْتُهُ**».[(١)]

وَالمُتَأَمِّلُ فِي حَالِ النَّاسِ يَجِدُ أَنَّ هَذَا الخُلُقَ الذَّمِيمَ لَا يَكَادُ يَسْلَمُ مِنْهُ إِلَّا الصَّفْوَةُ، عَافَانَا اللهُ مِنْهُ، وَالنَّاسُ مَا بَيْنَ مُقِلٍّ وَمُسْتَكْثِرٍ، وَيَتَجَلَّىٰ ذَلِكَ فِي مَظَاهِرَ كَثِيرَةٍ أَهَمُّهَا وَأَخْطَرُهَا التَّكَبُّرُ عَنْ قَبُولِ الحَقِّ وَالرُّجُوعِ عَنِ البَاطِلِ وَالاعْتِرَافِ بِالخَطَأِ، فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَأْنَفُ مِنْ قَبُولِ الحَقِّ وَالانْقِيَادِ لَهُ خَاصَّةً إِذَا صَدَرَ مِنْ شَخْصٍ أَصْغَرَ مِنْهُ سِنًّا أَوْ أَقَلَّ مِنْهُ عِلْمًا ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ الرُّجُوعَ إِلَىٰ الحَقِّ يُنْقِصُ وَيَحُطُّ مِنْ قَدْرِهِ، وَهَذَا سِرُّ بَقَاءِ كَثِيرٍ مِنَ الشِّرْكِيَّاتِ وَالعَقَائِدِ البَاطِلَةِ.

سَابِعًا: العُجْبُ: أَنْ يُعْجَبَ المَرْءُ بِنَفْسِهِ، فَيَقُودَهُ ذَلِكَ إِلَىٰ الانْصِرَافِ عَنِ الحَقِّ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [سورة غافر: ٨٣].

ثَامِنًا: الحَسَدُ: فَيَعْرِفُ الحَقَّ لَكِنَّهُ يَنْصَرِفُ عَنْهُ لِحَسَدٍ فِي نَفْسِهِ، فَلَا يَمْنَعُهُ مِنَ اتِّبَاعِ الحَقِّ إِلَّا الحَسَدُ.

وَمَا حَالُ اليَهُودِ بِبَعِيدٍ.

وَكَذَلِكَ مِمَّا يُرْوَىٰ فِي هَذَا البَابِ، مَا جَاءَ عَنْ عُمَيْرِ بْنِ طَلْحَةَ النَّمَرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ جَاءَ اليَمَامَةَ، فَقَالَ: أَيْنَ مُسَيْلِمَةُ؟ قَالُوا: مَهْ رَسُولُ اللهِ! فَقَالَ: لَا، حَتَّىٰ أَرَاهُ، فَلَمَّا جَاءَهُ، قَالَ: أَنْتَ مُسَيْلِمَةُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَنْ يَأْتِيكَ؟ قَالَ: رَحْمَنُ، قَالَ: أَفِي نُورٍ أَوْ فِي ظُلْمَةٍ؟ فَقَالَ: فِي ظُلْمَةٍ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ كَذَّابٌ، وَأَنَّ مُحَمَّداً صَادِقٌ، وَلَكِنْ كَذَّابُ رَبِيعَةَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ صَادِقِ مُضَرَ.

تَاسِعًا: الحَمِيَّةُ وَالتَّعَصُّبُ: فَتَجِدُهُ مُتَعَصِّبًا لِجَمَاعَتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ حَتَّىٰ يُؤَدِّيَ بِهِ هَذَا إِلَىٰ أَنْ يَتْرُكَ الحَقَّ.

عَاشِرًا: إِتِّبَاعُ الهَوَىٰ: الهَوَىٰ مَرَضٌ خَطِيرٌ وَدَاءٌ جَسِيمٌ مَتَىٰ مَا غَلَبَ عَلَىٰ الإِنْسَانِ انْطَمَسَ قَلْبُهُ وَعَمِيَتْ بَصِيرَتُهُ وَتَحَكَّمَتْ فِيهِ شَهْوَتُهُ وَقَدْ نَهَىٰ اللهُ عَنِ اتِّبَاعِ الهَوَىٰ أَشَدَّ النَّهْيِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [سورة النساء: ١٣٥] وَبَيَّنَ -ﷻ- أَنَّ مُتَّبِعَ الهَوَىٰ بِمَنْزِلَةِ عَابِدِ الوَثَنِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [سورة الفرقان: ٤٣] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ

---

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» (٨/ ٣٦).

﴿٢٣﴾ [سورة الجاثية: ٢٣].

وَشَبَّهَ اللهُ تَعَالَىٰ مُتَّبِعَ الهَوَىٰ بِأَخَسِّ الحَيَوَانَاتِ صُورَةً: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

وَأَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِالثَّوَابِ العَظِيمِ لِمَنْ نَهَىٰ النَّفْسَ عَنْ هَوَاهَا: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [سورة النازعات: ٤٠-٤١].

وَنَهَانَا اللهُ عَنْ طَاعَةِ أَهْلِ الأَهْوَاءِ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الكهف: ٢٨] وَبَيَّنَ أَنَّ اتِّبَاعَ الهَوَىٰ مِنَ الظُّلْمِ العَظِيمِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [سورة البقرة: ١٤٥] وَأَخْبَرَنَا أَنَّ مُتَّبِعَ الهَوَىٰ مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة القصص: ٥٠] وَكُلُّ شَرٍّ فِي الأَرْضِ هُوَ اتِّبَاعٌ لِلْهَوَىٰ وَكُلُّ مَنْ حَادَ عَنِ اتِّبَاعِ الشَّرِيعَةِ فَإِنَّهُ مُتَّبِعٌ لِهَوَاهُ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة القصص: ٥٠].

الحَادِي عَشَرَ: سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ -ﷻ- وَعَدَمُ تَقْدِيرِهِ -ﷻ- وَلَا مَعْرِفَةُ صِفَاتِهِ العَلِيَّةِ، فَالمُشْرِكُ يَقِيسُ رَبَّهُ الغَنِيَّ بِالمَخْلُوقِ الضَّعِيفِ الذِي يَحْتَاجُ لِوَاسِطَةٍ تُقَرِّبُ إِلَيْهِ وَتَشْفَعُ عِنْدَهُ وَذَلِكَ لِجَهْلِهِ وَعَجْزِهِ وَعَدَمِ رَحْمَتِهِ فَتُطْلَبُ الوَاسِطَةُ عِنْدَهُ، لِيَعْلَمَ بِوُزَرَائِهِ وَأَعْوَانِهِ وَشُرَكَائِهِ وَيَرْحَمَ بِهِمْ وَيَقْدِرَ بِهِمْ، فَأَيْنَ ذَلِكَ مِنَ اللهِ -ﷻ- العَالِمِ بِكُلِّ شَيْءٍ وَالذِي لَا يَغِيبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ مَعَ خَلْقِهِ أَيْنَمَا كَانُوا بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ، وَهُوَ القَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَالمَالِكُ وَحْدَهُ لِلنَّفْعِ وَالضُّرِّ وَغَيْرُهُ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَهُمُ الذِي يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ، وَهُوَ الرَّاحِمُ بِخَلْقِهِ المُتَكَفِّلُ بِأَرْزَاقِهِمُ الغَنِيُّ الحَمِيدُ الصَّمَدُ الذِي يَصْمُدُ الخَلْقُ إِلَيْهِ وَيَسْأَلُونَهُ حَوَائِجَهُمْ وَهُوَ الفُقَرَاءُ إِلَيْهِ وَاللهُ وَحْدَهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ.

وَصَدَقَ اللهُ تَعَالَىٰ حِينَ وَصَفَ حَالَ المُشْرِكِينَ فِي سُوءِ ظَنِّهِمْ بِاللهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُعَذِّبَ

﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ [سورة الفتح: ٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [سورة فصلت: ٢٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾ [سورة الصافات: ٨٦-٨٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧﴾ [سورة ص: ٢٧].

هَذَا هُوَ الشِّرْكُ وَهَذَا حَالُ صَاحِبِهِ أَسَاءَ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ وَعَدَمِ تَقْدِيرِهِ حَقَّ قَدْرِهِ وَتَشْبِيهِهِ بِخَلْقِهِ فَتَعَالَىٰ اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً.

وَمِنَ الأَسْبَابِ الأُخْرَىٰ: انْتِشَارُ البِدَعِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا بَرِيدُ الشِّرْكِ، وَانْتِشَارُ وَسَائِلِ الشِّرْكِ وَعَدَمُ مُحَارَبَتِهِ أَوِ التَّهْوِينُ مِنْ أَمْرِهِ، وَمُشَابَهَةُ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ وَالمَجُوسِ وَتَنَاقُلُ وَتَلَاقُحُ عَادَاتِهِمْ، وَوُجُودُ عُلَمَاءِ السُّوءِ وَانْتِشَارُ الرَّافِضَةِ وَالصُّوفِيَّةِ وَالأَشْعَرِيَّةِ وَتَبَنِّي كَثِيرٍ مِنَ الحُكُومَاتِ وَالدُّوَلِ لَهُمْ وَهُمْ مِنْ دُعَاةِ الشِّرْكِ وَالوَثَنِيَّةِ، وَمِنَ الأَسْبَابِ كَذَلِكَ انْتِشَارُ الرِّوَايَاتِ وَالأَخْبَارِ المَوْضُوعَةِ وَالمَكْذُوبَةِ وَالمَنَامَاتِ الفَاسِدَةِ وَالحِكَايَاتِ الكَاسِدَةِ وَالتِي هِيَ مِنْ وَضْعِ القُبُورِيَّةِ بِوَحْيِ إِبْلِيسَ، وَمِنَ الأَسْبَابِ كَذَلِكَ رِعَايَةُ الآثَارِ وَحِمَايَتُهَا وَتَعْظِيمُهَا، وَالجَهْلُ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَتَعْظِيمُ القُبُورِ وَالبِنَاءُ عَلَيْهَا وَإِسْرَاجُهَا وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا وَالتَّبَرُّكُ بِهَا وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الأَسْبَابِ التِي أَدَّتْ إِلَىٰ انْتِشَارِ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.

مَسْأَلَةٌ: لِمَاذَا الشِّرْكُ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ:

لِأَنَّ الشِّرْكَ حَقِيقَتُهُ تَمْثِيلُ الرَّبِّ الكَرِيمِ بِالمَخْلُوقِ الحَقِيرِ وَكَذَلِكَ تَمْثِيلُ المَخْلُوقِ الذَّلِيلِ بِاللهِ العَزِيزِ القَهَّارِ، وَجَعْلُهُمَا بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَيُّ كُفْرٍ وَذَنْبٍ بَعْدَ هَذَا الكُفْرِ، وَبَيَانُ ذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَوَّلاً: أَنَّ المُشْرِكَ يَسْلُبُ الرَّبَّ صِفَاتِهِ العُلَىٰ مِنْ عِلْمٍ وَإِحَاطَةٍ وَإِدْرَاكٍ وَرَحْمَةٍ وَكَرَمٍ وَقُدْرَةٍ، وَيَنْسُبُ ضِدَّهَا -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- مِنَ الجَهْلِ وَالعَجْزِ وَالبُخْلِ تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ، لِأَنَّ حَقِيقَةَ الشِّرْكِ يَسْتَلْزِمُ أَنَّ اللهَ لَا يَرْحَمُ إِلَّا بِالوَسَائِطِ وَالشُّفَعَاءِ وَلَا يَعْلَمُ بِأَحْوَالِ عِبَادِهِ إِلَّا بِهَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءِ وَلَا يَقْدِرُ إِلَّا بِهِمْ.

ثَانِيًا: ثُمَّ بَعْدَ وُقُوعِ المُشْرِكِ فِي تَنْقِيصِ اللهِ وَسُوءِ ظَنِّهِ بِهِ وَعَدَمِ تَقْدِيرِهِ، وَتَشْبِيهِ الرَّبِّ بِمُلُوكِ الأَرْضِ أَهْلِ الجَهْلِ وَالعَجْزِ وَالحَقَارَةِ وَالذِّلَّةِ وَالمَسْكَنَةِ فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ عِلْمًا.

فَانْظُرْ كَيْفَ يَقَعُ المُشْرِكُ فِي ضِدِّ ذَلِكَ وَيَعْكِسُ الآيَةَ، فَيُعَظِّمُ المَخْلُوقَ وَيَرْفَعُهُ عَنْ دَرَجَتِهِ وَمَكَانَتِهِ اللَّائِقَةِ بِهِ وَالتِي تُنَاسِبُ نَقْصَهُ وَضَعْفَهُ وَجَهْلَهُ وَعَجْزَهُ وَذِلَّتَهُ وَفَقْرَهُ وَقِلَّةَ رَحْمَتِهِ وَيَرْفَعُهُ إِلَىٰ دَرَجَةِ الإِلَهِ الخَالِقِ وَالرَّبِّ العَظِيمِ القَادِرِ وَيَجْعَلُهُ بِمَنْزِلَةٍ لَا تَلِيقُ بِأَحَدٍ سِوَىٰ مَلِكِ المُلُوكِ وَعَلَّامِ الغُيُوبِ القَاهِرِ العَزِيزِ.

فَهَلْ هُنَاكَ ذَنْبٌ أَعْظَمُ مِنْ تَسْوِيَةِ رَبِّ الأَرْبَابِ بِالمَخْلُوقِ مِنْ تُرَابٍ وَتَنْقِيصِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ وَتَعْظِيمِ المَخْلُوقِ الفَقِيرِ الذَّلِيلِ تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيراً.[1]

مَسْأَلَةٌ: حُكْمُ المُشْرِكِ:

الشِّرْكُ كُفْرٌ أَكْبَرُ مُخْرِجٌ مِنَ الإِسْلَامِ وَيُبِيحُ دَمَ صَاحِبِهِ وَيُخَلِّدُهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

وَالشِّرْكُ مِنْهُ الأَكْبَرُ وَهُوَ المُخْرِجُ مِنَ الإِسْلَامِ وَمِنْهُ الأَصْغَرُ الذِي هُوَ مِنْ جِنْسِ الكَبَائِرِ وَصَاحِبُهُ لَا يُخَلَّدُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

وَيَتَرَتَّبُ عَلَىٰ الشِّرْكِ جُمْلَةٌ مِنَ الأَحْكَامِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالأُخْرَوِيَّةِ وَمِنْهَا: التَّوَارُثُ وَالمُنَاكَحَةُ وَالتَّعَامُلُ وَالبَيْعُ وَاسْتِعْمَالُ أَوَانِيهِمْ وَمَلَابِسِهِمْ وَأَكْلُ ذَبِيحَتِهِمْ وَالزَّوَاجُ مِنْهُمْ وَتَزْوِيجُهُمْ وَالاسْتِعَانَةُ بِهِمْ.

وَالمُشْرِكُ الجَاهِلُ لَا عُذْرَ لَهُ بِجَهْلِهِ، فَلَا يُعَدُّ مُسْلِمًا فَإِنْ وَقَعَ فِي الشِّرْكِ الأَكْبَرِ حَتَّىٰ وَإِنْ كَانَ جَاهِلاً أَوْ مُقَلِّداً أَوْ مُتَأَوِّلاً، وَقَدْ أَخْطَأَ الكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ فَعَذَرُوا المُشْرِكَ لِجَاهِلٍ، قَالُوا عَنْهُ مُسْلِمٌ لِكَوْنِهِ يَنْطِقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَجَعَلُوا جَهْلَهُمْ وَتَأْوِيلَهُمْ وَتَقْلِيدَهُمْ مَانِعًا مِنْ تَكْفِيرِهِمْ.

مَسْأَلَةٌ: أَقْسَامُ وَأَنْوَاعُ الشِّرْكِ:

- شِرْكُ إِخْلَاصٍ وَإِرَادَةٍ وَنِيَّةٍ وَقَصْدٍ وَتَوَجُّهٍ وَتَوَكُّلٍ وَرَجَاءٍ وَتَعْظِيمٍ.
- شِرْكُ وَسَائِطَ وَشُفَعَاءَ وَدُعَاءٍ.
- شِرْكُ تَنَسُّكٍ بِالقِيَامِ وَالسُّجُودِ وَالطَّوَافِ.

---

(١) انْظُرْ هَذَا المَوْضِعَ بِطُولِهِ فِي «الدَّاءِ وَالدَّوَاءِ» (ص٢٩٥) فَإِنَّ فِيهِ كَلَامًا مُفَصَّلاً.

- شِرْكٌ وَلَايَةٍ وَمَحَبَّةٍ.
- شِرْكٌ فِي الحُكْمِ وَالطَّاعَةِ وَالانْقِيَادِ وَالتَّشْرِيعِ.
- شِرْكٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ: بِتَعْطِيلِ اللهِ عَنْهَا كَإِنْكَارِ الصِّفَاتِ، أَوِ اعْتِقَادِ وُجُودِ مَخْلُوقٍ يَسْتَحِقُّ شَيْئًا مِنْ أَفْعَالِ الرُّبُوبِيَّةِ وَإِثْبَاتِهَا كَعِلْمِ الغَيْبِ وَالقُدْرَةِ وَهُوَ شِرْكُ التَّمْثِيلِ.

وَالأَقْسَامُ الأَرْبَعَةُ الرَّئِيسِيَّةُ لِلشِّرْكِ:

- شِرْكُ المَحَبَّةِ.
- شِرْكُ الطَّاعَةِ.
- شِرْكُ الدَّعْوَةِ.
- شِرْكُ الإِرَادَةِ.

شِرْكُ المَحَبَّةِ: دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ١٦٥].

وَشِرْكُ الدَّعْوَةِ: دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٦٥].

وَشِرْكُ الطَّاعَةِ: دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: ٣١].

وَشِرْكُ الإِرَادَةِ: دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة هود: ١٥].

وَهَذِهِ الأَقْسَامُ الأَرْبَعَةُ لِلتَّمْثِيلِ لَا لِلْحَصْرِ فَأَنْوَاعُ الشِّرْكِ كَثِيرَةٌ بِالنِّسْبَةِ لِلْعِبَادَاتِ لَكِنَّ أَكْثَرَ الشِّرْكِ رَاجِعٌ إِلَىٰ هَذِهِ الأَرْبَعَةِ وَأَكْثَرُ المُشْرِكِينَ يَقَعُونَ فِيهَا.

❁❁❁

فَصْلٌ فِي: العواقب الحميدة للرسل وأتباعهم

وَالعَوَاقِبُ الوَخِيمَةُ لِلْمُشْرِكِينَ

أَوَّلاً: إِكْرَامُ اللهِ لِلرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمُ الذِينَ قَامُوا بِالتَّوْحِيدِ:

لَمَّا بَعَثَ اللهُ تَعَالَىٰ رُسُلَهُ لِلدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الشِّرْكِ، وَعَدَهُمْ بِالنَّصْرِ وَالتَّعْزِيزِ وَالتَّمْكِينِ لَهُمْ وَلِأَتْبَاعِهِمْ.

وَقَدْ قَصَّ اللهُ تَعَالَىٰ لَنَا فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ؛ أَنَّهُ أَكْرَمَ رُسُلَهُ وَأَتْبَاعَهُمْ وَنَصَرَهُمْ عَلَىٰ المُشْرِكِينَ المُعَانِدِينَ المُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ، وَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ النَّصْرَ المَوْعُودَ لَهُمْ يَكُونُ مِنْ طَرِيقَتَيْنِ:

الأُولَىٰ: إِنْجَاؤُهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ، وَمِنَ الهَلَاكِ إِذَا حَلَّ بِأَعْدَائِهِمُ العَذَابُ.

وَالثَّانِيَةُ: إِهْلَاكُ عَدُوِّهِمْ.

فَفِي إِكْرَامِ اللهِ تَعَالَىٰ لِلرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ؛ بِإِنْجَائِهِمْ وَنَصْرِهِمْ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ وَتَمْكِينِهِمْ فِي الأَرْضِ، دَلِيلٌ وَبُرْهَانٌ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا دَعَا إِلَيْهِ الرُّسُلُ أَقْوَامَهُمْ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، وَتَحْذِيرِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ وُجُوبِ تَوْحِيدِ اللهِ فِي الأُلُوهِيَّةِ وَالعِبَادَةِ.

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ أَرْسَلَ رُسُلَهُ لِلدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَوَعَدَهُمُ اللهُ بِالنَّصْرِ وَالنَّجَاةِ مِنْ إِيذَاءِ أَقْوَامِهِمُ المُكَذِّبِينَ بِهِمْ، وَالنَّجَاةِ مِنَ العَذَابِ عِنْدَ إِهْلَاكِ المُشْرِكِينَ، وَذَلِكَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ، مِنْهَا:

أَوَّلاً: وَعْدُ اللهِ لِلرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ بِالنَّصْرِ وَالنَّجَاةِ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩﴾ [سورة الأنبياء: ٧-٩].

بَيَّنَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ أَرْسَلَ رُسُلَهُ، وَوَعَدَهُمْ بِالنَّصْرِ، ثُمَّ صَدَقَهُمْ مَا وَعَدَهُمْ، لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ لَا يُخْلِفُ المِيعَادَ، وَالوَعْدُ الذِي وَعَدَهُمْ إِيَّاهُ هُوَ إِنْجَاؤُهُمْ مِنَ العَذَابِ عِنْدَ إِهْلَاكِ أَعْدَائِهِمْ، وَنَصْرُهُمْ عَلَيْهِمْ

عِنْدَ إِيذَائِهِمْ وَمُحَاوَلَةِ قَتْلِهِمْ، وَإِهْلَاكِ أُولَئِكَ الكَافِرِينَ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [سورة يوسف: ١١٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة غافر: ٥١-٥٢].

١١٦ - رُوِيَ عَنِ السُّدِّيِّ فِي قَوْلِ اللهِ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ «قَدْ كَانَتِ الأَنْبِيَاءُ وَالمُؤْمِنُونَ يُقْتَلُونَ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ مَنْصُورُونَ، وَذَلِكَ أَنَّ تِلْكَ الأُمَّةَ التِي تَفْعَلُ ذَلِكَ بِالأَنْبِيَاءِ وَالمُؤْمِنِينَ لَا تَذْهَبُ حَتَّىٰ يَبْعَثَ اللهُ قَوْمًا فَيَنْتَصِرَ بِهِمْ لِأُولَئِكَ الذِينَ قُتِلُوا مِنْهُمْ».(١)

فَبَيَّنَ أَنَّ نَصْرَ اللهِ لِأَوْلِيَائِهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالمُؤْمِنِينَ نَوْعَانِ:

الأَوَّلُ: النَّصْرُ الذِي يَكُونُ بِإِعْلَائِهِمْ وَإِظْهَارِ أَمْرِهِمْ.

وَالثَّانِي: مَا يَكُونُ بِإِنْجَائِهِمْ وَإِهْلَاكِ أَعْدَائِهِمْ، كَمَا فَعَلَ اللهُ بِأَكْثَرِ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ.

ثَانِيًا: سَبَقَتْ كَلِمَةُ اللهِ الكَوْنِيَّةُ بِنَصْرِ المُرْسَلِينَ وَأَتْبَاعِهِمْ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة الصافات: ١٧١-١٧٣].

وَالكَلِمَاتُ هُنَا هِيَ كَلِمَاتُ اللهِ القَدَرِيَّةُ الكَوْنِيَّةُ التِي لَا يَتَخَلَّفُ فِيهَا مُرَادُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهِيَ التِي كَتَبَهَا فِي الكِتَابِ الأَوَّلِ.

ثَالِثًا: كَتَبَ اللهُ الغَلَبَةَ لِلرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [سورة المجادلة: ٢١].

١١٧ - وَغَلَبَةُ الرُّسُلِ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ: مَنْ بُعِثَ مِنْهُمْ بِالحَرْبِ فَهُوَ غَالِبٌ بِالحَرْبِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِالحَرْبِ فَهُوَ غَالِبٌ بِالحُجَّةِ.(٢)

---

(١) **انْظُرْ:** مَعَانِيَ القُرْآنِ وَإِعْرَابَهُ لِلزَّجَّاجِ ٥/ ١٤١.

(٢) جَامِعُ البَيَانِ ٢٠/ ٣٤٤-٣٤٥.

رَابِعًا: جَعَلَ اللهُ نَصْرَ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ حَقًّا عَلَيْهِ:

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ نَصْرَ المُرْسَلِينَ وَالمُؤْمِنِينَ وَإِنْجَاءَهُمْ حَقًّا وَاجِبًا عَلَيْهِ، أَوْجَبَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَوَعَدَهُ لَهُمْ، فَهُوَ يَنْصُرُهُمْ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ فَيَغْلِبُونَ عَلَيْهِمْ بِالحُجَّةِ وَالبَيَانِ وَبِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الروم: ٤٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة يونس: ١٠٣].

فَبَيَّنَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ أَوْجَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ نَصْرَ المُؤْمِنِينَ الذِينَ آمَنُوا بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَاتِّبَعُوهُمْ فِي كُلِّ مَا جَاؤُوا بِهِ، وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ يُنَجِّيهِمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ وَمِنْ عِقَابِهِ إِذَا أَرَادَ إِهْلَاكَ أَعْدَائِهِمْ. وَهَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ تَتَنَاوَلَانِ الرُّسُلَ وَالمُؤْمِنِينَ بِهِمْ.

وَالإِنْجَاءُ يَكُونُ مِنَ العَذَابِ إِذَا حَلَّ بِالمُشْرِكِينَ، وَمِنْ إِيذَائِهِمْ لِلرُّسُلِ، كَمَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [سورة غافر: ٥].

فَبَيَّنَ تَعَالَىٰ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ حَرَصَتْ أَنْ تَأْخُذَ بِرَسُولِهَا لِيَنَالُوا مِنْهُ، إِمَّا بِالقَتْلِ أَوِ الحَبْسِ وَالتَّعْذِيبِ أَوِ الإِخْرَاجِ مِنَ البَلَدِ.[1]

خَامِسًا: وَعْدُ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ بِالاسْتِخْلَافِ فِي الأَرْضِ وَالتَّمْكِينِ:

وَقَدْ وَعَدَ اللهُ المُؤْمِنِينَ المُوَحِّدِينَ بِالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ، وَكَتَبَ لَهُمْ وِرَاثَةَ الأَرْضِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة النور: ٥٥].

فِي هَذِهِ الآيَةِ بَيَانُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ وَعَدَ المُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ وَالتَّأْيِيدِ وَالاسْتِخْلَافِ فِي الأَرْضِ مَا قَامُوا عَلَىٰ التَّوْحِيدِ وَالإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ وَأَنَّهُ سَبَبُ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الأَرْضِ.

---

(١) جَامِعُ البَيَانِ ٢٠/ ٢٨١.

سَادِسًا: كَتَبَ اللهُ فِي كُتُبِهِ أَنَّهُ يُورِثُ الأَرْضَ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٢٨].

فَتَبَيَّنَ أَنَّ العَاقِبَةَ المَحْمُودَةَ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالمُؤْمِنِينَ مِنْ سُنَنِهِ تَعَالَىٰ، التِي سَبَقَتْ بِهَا كَلِمَتُهُ الكَوْنِيَّةُ، وَكَذَلِكَ بَيَّنَهُ فِي كَلِمَاتِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَبُرْهَانٌ عَلَيْهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَكَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ وُجُوبِ تَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، كَمَا يَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِ رُسُلِهِ.

الأَمْرُ الثَّانِي: إِهْلَاكُ اللهِ المُشْرِكِينَ المُسْتَكْبِرِينَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ:

إِنَّ مِنْ نَصْرِ اللهِ لِرُسُلِهِ وَأَتْبَاعِهِمُ الذِي وَعَدَهُ لَهُمْ وَكَتَبَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ؛ إِهْلَاكَهُ المُشْرِكِينَ المُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ، الجَاحِدِينَ دَعْوَتَهُمْ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ.

كَمَا أَنَّ اللهَ وَعَدَ رُسُلَهُ وَأَتْبَاعَهُمْ بِالنَّصْرِ، كَذَلِكَ أَوْعَدَ المُشْرِكِينَ المُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ بِالهَلَاكِ وَالعَذَابِ العَظِيمِ فِي الآخِرَةِ، وَذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ، مَا يَدُلُّ عَلَىٰ تَحْرِيمِ الشِّرْكِ وَوُجُوبِ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

وَقَدْ أَهْلَكَ اللهُ المُشْرِكِينَ المُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ الجَاحِدِينَ لِمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَجَعَلَ ذَلِكَ آيَةً عَلَىٰ الإِيمَانِ بِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ، فَأَبْقَىٰ آثَارَهُمْ لِيَسِيرَ العِبَادُ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَتُهُمْ، فَيَكُونَ ذَلِكَ عِبْرَةً لَهُمْ وَآيَةً.

فَبَيَّنَ أَنَّ إِبْقَاءَ اللهِ آثَارَ إِهْلَاكِهِ لِلْمُشْرِكِينَ المُكَذِّبِينَ لِرُسُلِهِ آيَةٌ وَعِبْرَةٌ وَبُرْهَانٌ عَلَىٰ تَوْحِيدِهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ، لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ مَا اعْتَادَهُ النَّاسُ، لِأَنَّ الآيَةَ بِخِلَافِ الأَمْرِ المُعْتَادِ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ إِهْلَاكَ المُشْرِكِينَ آيَةٌ وَعَلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ أَدِلَّةٌ، مِنْهَا:

أَوَّلًا: الإِرْشَادُ إِلَىٰ السَّيْرِ فِي الأَرْضِ لِلنَّظَرِ فِي عَاقِبَةِ المُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ:

وَقَدْ أَرْشَدَ اللهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ -ﷺ- إِلَىٰ السَّيْرِ فِي الأَرْضِ لِيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَنْ قَبْلَهُمُ الذِينَ خَالَفُوا رُسُلَهُمْ بِالشِّرْكِ وَالتَّكْذِيبِ، وَقَدْ وَرَدَتْ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ بِذَلِكَ، مِنْهَا:

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ

وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الحج: ٤٢-٤٦].

أَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّ الأُمَمَ قَدْ كَذَّبَتْ رُسُلَهَا لَمَّا دَعَوْهُمْ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُخَاطِبًا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ -ﷺ- ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

١١٨ - **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:** «يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ: وَكَمْ يَا مُحَمَّدُ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْتُ أَهْلَهَا وَهُمْ ظَالِمُونَ؛ يَقُولُ: وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَ مَنْ يَنْبَغِي أَنْ يُعْبَدَ، وَيَعْصُونَ مَنْ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْصُوهُ».(١)

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿* أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة غافر: ٢١-٢٢].

قَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّ فِي إِهْلَاكِ المُشْرِكِينَ المُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ ذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ سَلِيمٌ.

وَهُنَاكَ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي ذَلِكَ.

ثَانِيًا: بَيَانُ إِهْلَاكِ اللهِ لِلْمُشْرِكِينَ:

وَرَدَتْ بِذَلِكَ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ، وَقَدْ قَصَّ اللهُ قَصَصَ الأَنْبِيَاءِ فِي كِتَابِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، وَفِي كُلِّهَا يُبَيِّنُ اللهُ أَنَّهُ أَهْلَكَ المُشْرِكِينَ المُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ.(٢)

وَمِنْ ذَلِكَ:

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ

---

(١) جَامِعُ البَيَانِ ٢٠/ ٢٨١.

(٢) ارْجِعْ إِلَىٰ ذَلِكَ مَثَلاً فِي سورة الأعراف، وسورة يونس، وسورة هود، وسورة إبراهيم، وسورة الأنبياء، وسورة الشعراء، وسورة العنكبوت، وسورة الصفات، وسورة القمر وَغَيْرِهَا.

مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [سورة إبراهيم: ١٣-١٤].

أَيْ لَمَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ أُمَمُهُمْ أَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ الرُّسُلِ أَنَّهُ لَا مَحَالَةَ لَيُهْلِكَنَّهُمْ، لِأَنَّهُمْ أَشْرَكُوا بِاللهِ فِي العِبَادَةِ، وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَإِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ.

١١٩ - **قَالَ الطَّبَرِيُّ:** «وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة إبراهيم: ١٣] الذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَأَوْجَبُوا لَهَا عِقَابَ اللهِ بِكُفْرِهِمْ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قِيلَ لَهُمُ: الظَّالِمُونَ لِعِبَادَتِهِمْ، مَنْ لَا تَجُوزُ عِبَادَتُهُ مِنَ الأَوْثَانِ وَالآلِهَةِ، فَيَكُونُ بِوَضْعِهِمُ العِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا إِذْ كَانَ ظُلْمًا سُمُّوا بِذَلِكَ».[(١)]

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة ق: ٣٦-٣٧].

فَبَيَّنَ تَعَالَىٰ أَنَّ إِهْلَاكَهُ لِلْمُشْرِكِينَ المُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ آيَةٌ وَبُرْهَانٌ وَاضِحٌ عَلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ لِمَنْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ سَلِيمٌ.

لِأَنَّ ذَلِكَ بُرْهَانٌ وَدَلِيلٌ حِسِّيٌّ مُبَاشِرٌ فِي دَلَالَتِهِ، يَدُلُّ إِلَىٰ المَدْلُولِ مُبَاشَرَةً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الفرقان: ٣٧].

وَكَمَا وَعَدَ اللهُ الرُّسُلَ وَأَتْبَاعَهُمْ بِالنَّجَاةِ كَذَلِكَ وَعَدَهُمْ بِإِهْلَاكِ أَعْدَائِهِمُ المُشْرِكِينَ المُكَذِّبِينَ بِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٧-٩].

فَبَيَّنَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ صَدَقَ رُسُلَهُ الوَعْدَ الذِي وَعَدُوهُمْ بِهِ، الذِي هُوَ الإِنْجَاءُ وَإِهْلَاكُ أَعْدَائِهِمُ المُشْرِكِينَ المُكَذِّبِينَ بِهِمْ وَبِمَا جَاءُوا بِهِمْ وَبِمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ.

١٢٠ - **قَالَ الطَّبَرِيُّ:** «يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ: ثُمَّ صَدَقْنَا رُسُلَنَا الذِينَ كَذَّبَتْهُمْ أُمَمُهُمْ وَسَأَلْتَهُمْ

---

(١) جَامِعُ البَيَانِ ١٣/ ٦١٣.

الآيَاتِ، فَأَتَيْنَاهُمْ مَا سَأَلُوهُ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ أَقَامُوا عَلَىٰ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهَا، وَأَصَرُّوا عَلَىٰ جُحُودِهِمْ نُبُوَّتَهَا بَعْدَ الذِي أَتَتْهُمْ بِهِ مِنْ آيَاتِ رَبِّهَا، وَعْدَنَا الذِي وَعَدْنَاهُمْ مِنَ الهَلَاكِ عَلَىٰ إِقَامَتِهِمْ عَلَىٰ الكُفْرِ بِرَبِّهِمْ بَعْدَ مَجِيءِ الآيَاتِ التِي سَأَلُوهَا وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [سورة المائدة: ١١٥] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة هود: ٦٤]، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ المَوَاعِيدِ التِي وَعَدَ الأُمَمَ مَعَ مَجِيءِ الآيَاتِ». (١)

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [سورة الشعراء: ٨-٩].

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّ إِهْلَاكَ اللهِ لِلْمُشْرِكِينَ المُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ دَلِيلٌ عَلَىٰ وُجُوبِ تَوْحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ وَتَرْكِ الشِّرْكِ، وَعَلَىٰ صِدْقِ رُسُلِهِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، لِأَنَّ اللهَ جَعَلَ ذَلِكَ آيَةً، أَيْ دَلِيلاً عَلَىٰ اسْتِحْقَاقِهِ لِلْأُلُوهِيَّةِ وَوُجُوبِ إِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ، وَتَحْرِيمِ الشِّرْكِ بِهِ، لِأَنَّ الأُمَمَ إِنَّمَا أُهْلِكَتْ بِسَبَبِ الشِّرْكِ بِاللهِ فِي العِبَادَةِ.

ثَالِثًا: إِخْبَارُ اللهِ عَنْ كَيْفِيَّةِ إِهْلَاكِ الأُمَمِ:

أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ كَيْفَ أَهْلَكَ الأُمَمَ المُكَذِّبَةَ لِلرُّسُلِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ وَاجْتِنَابِ الشِّرْكِ:

قَالَ تَعَالَىٰ يُخْبِرُ عَنْ قَوْمِ نُوحٍ -عليه السلام-: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة الأعراف: ٦٤].

فَبَيَّنَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ أَهْلَكَهُمْ بِالغَرَقِ، وَهُوَ الطُّوفَانُ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي قَوْمِ هُودٍ -عليه السلام-: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [سورة الحاقة: ٦-٧].

فَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّ عَاداً أُهْلِكُوا بِرِيحٍ وَمَعَهُ صَاعِقَةٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة فصلت: ١٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ عَنْ قَوْمِ صَالِحٍ -عليه السلام-: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ

---

(١) التَّفْسِيرُ ١٦/ ٢٣١.

﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة الأعراف: ٧٧-٧٨].

وَبَيَّنَ تَعَالَىٰ أَنَّ ثَمُودَ أُهْلِكُوا بِالصَّيْحَةِ، وَهِيَ الرَّجْفَةُ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي قَوْمِ لُوطٍ -عليه السلام-: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الحجر: ٧٣-٧٤].

وَأَمَّا قَوْمُ لُوطٍ فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ بِالصَّيْحَةِ وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي قَوْمِ شُعَيْبٍ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [سورة هود: ٩٤].

ثُمَّ أَجْمَلَ اللهُ ذِكْرَ الأُمَمِ المُشْرِكَةِ المُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ وَذَكَرَ عُقُوبَاتِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٣٨-٤٣].

فِي هَذِهِ الآيَاتِ إِخْبَارٌ مِنْهُ تَعَالَىٰ عَنْ كَيْفِيَّةِ إِهْلَاكِهِ لِلْأُمَمِ المُشْرِكَةِ المُكَذِّبَةِ لِرُسُلِهِمْ، كَيْ يَكُونَ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ، وَتَذْكِرَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَمَوْعِظَةً لِلْعَاقِلِينَ، وَآيَةً لِأُولِي الأَلْبَابِ.

وَالسَّبَبُ فِي إِهْلَاكِهِمْ هُوَ شِرْكُهُمْ بِاللهِ تَعَالَىٰ، وَتَكْذِيبُهُمْ لِرُسُلِهِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ عِنْدِهِ.

لِذَلِكَ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا فِي شِرْكِهِمْ بِالعَنْكَبُوتِ، وَأَنَّ آلِهَتَهُمْ كَمَثَلِ بَيْتِ العَنْكَبُوتِ فِي الضَّعْفِ وَالعَجْزِ، وَلِذَلِكَ كَانَتْ آلِهَتُهُمْ عَاجِزَةً عَنْ نُصْرَتِهِمْ لَمَّا جَاءَهُمُ العَذَابُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة

الأحقاف: ٢٧-٢٨].

فَهَذِهِ الآيَاتُ مِنْ أَعْظَمِ الآيَاتِ التِي تُبَيِّنُ دَلَالَةَ إِهْلَاكِ اللهِ الأُمَمَ الكَافِرَةَ عَلَىٰ تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ، بِحَيْثُ لَوْ كَانَتِ الآلِهَةُ مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً حَقًّا تَسْتَحِقُّ الأُلُوهِيَّةَ لَكَانَتْ قَادِرَةً وَقَوِيَّةً وَمُتَّصِفَةً بِصِفَاتِ الكَمَالِ مَا يَجْعَلُهَا تَنْصُرُ عَابِدِيهَا، فَعَدَمُ نُصْرَتِهَا لِعَابِدِيهَا دَلَّ عَلَىٰ بُطْلَانِ عِبَادَتِهَا.

رَابِعًا: السَّبَبُ الأَسَاسِيُّ لِإِهْلَاكِ الأُمَمِ وَأَخْذِهِمْ بِالعَذَابِ هُوَ الشِّرْكُ بِاللهِ:

قَدْ جَاءَ تَنْصِيصُ سَبَبِ إِهْلَاكِ الأُمَمِ فِي بَعْضِ الآيَاتِ، وَأَنَّهَا أُهْلِكَتْ بِسَبَبِ ظُلْمِهَا، وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ بِأَنَّ المُرَادَ بِالظُّلْمِ الذِي مِنْ أَجْلِهِ أَهْلَكَ اللهُ الأُمَمَ هُوَ الشِّرْكُ بِهِ فِي العِبَادَةِ(١)

لِأَنَّ الشِّرْكَ هُوَ الظُّلْمُ العَظِيمُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة لقمان: ١٣]، وَمِنْ ذَلِكَ:

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة هود: ١٠٢-١٠٣]،

بَيَّنَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ أَهْلَكَ القُرَىٰ فِي حَالِ كَوْنِهَا ظَالِمَةً، فَجَعَلَ هَذَا الظُّلْمَ هُوَ سَبَبَ الإِهْلَاكِ، وَالمُرَادُ بِالظُّلْمِ هُنَا هُوَ الشِّرْكُ، وَقَدْ جَعَلَ ذَلِكَ آيَةً لِمَنْ يَخَافُ عَذَابَ الآخِرَةِ، أَيْ أَنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ وُجُوبِ تَوْحِيدِ اللهِ بِالعِبَادَةِ، لِمَنْ يَخَافُ أَنْ يُصِيبَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَىٰ الشِّرْكِ بِاللهِ تَعَالَىٰ فِي عِبَادَتِهِ.

١٢١ - **قَالَ الطَّبَرِيُّ:** «يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ: وَكَمَا أَخَذْتُ أَيُّهَا النَّاسُ أَهْلَ هَذِهِ القُرَىٰ التِي اقْتَصَصْتُ عَلَيْكَ نَبَأَ أَهْلِهَا بِمَا أَخَذْتُهُمْ بِهِ مِنَ العَذَابِ، عَلَىٰ خِلَافِهِمْ أَمْرِي، وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلِي، وَجُحُودِهِمْ آيَاتِي، فَكَذَلِكَ أَخْذِي القُرَىٰ وَأَهْلَهَا إِذَا أَخَذْتُهُمْ بِعِقَابِي، وَهُمْ ظَلَمَةٌ لِأَنْفُسِهِمْ، بِكُفْرِهِمْ بِاللهِ، وَإِشْرَاكِهِمْ بِهِ غَيْرَهُ، وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُ».(٢)

١٢٢ - **وَقَالَ السَّمْعَانِيُّ:** «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ وَجْهُ التَّشْبِيهِ أَنَّ أَخْذَهُ هَؤُلَاءِ فِي حَالِ الظُّلْمِ وَالشِّرْكِ كَأَخْذِهِ أَهْلَ القُرَىٰ حِينَ كَانُوا فِي مِثْلِ حَالِهِمْ مِنَ

---

(١) وَقَدْ فَسَّرَ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ بِالكُفْرِ كَمَا هُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَيُفَسَّرُ الكُفْرُ بِالشِّرْكِ، لِأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ كُفْرِهِمْ، وَهُوَ الأَكْبَرُ، **انظر**: زاد المسير ٤/ ١٥٧، الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٤١٤).

(٢) جامع البيان ١٢/ ٥٧١، وانظر الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٠٨.

الظُّلْمِ وَالشِّرْكِ». (١)

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الحج: ٤٨].

وَكَذَلِكَ هُنَا بَيَّنَ تَعَالَىٰ أَنَّ سَبَبَ أَخْذِهِ لِلْقَرْيَةِ هُوَ الظُّلْمُ الذِي بِمَعْنَىٰ الشِّرْكِ.

١٢٣ - **قَالَ الطَّبَرِيُّ:** «يَقُولُ: أَمْهَلْتُهُمْ وَأَخَّرْتُ عَذَابَهُمْ، وَهُمْ بِاللهِ مُشْرِكُونَ وَلِأَمْرِهِ مُخَالِفُونَ وَذَلِكَ كَانَ ظُلْمَهُمُ الذِي وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فَلَمْ أُعَجِّلْ بِعَذَابِهِمْ». (٢)

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [سورة النحل: ١١٣].

وَكَذَلِكَ فِي هَذِهِ الآيَةِ، بَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ حَالَهُمْ لَمَّا أَخَذَهُمُ العَذَابُ، وَهُمْ فِي حَالَةِ كَوْنِهِمْ ظَالِمِينَ، وَالمُرَادُ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ.

١٢٤ - **قَالَ الطَّبَرِيُّ:** «﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ يَقُولُ: وَهُمْ مُشْرِكُونَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قُتِلَ عُظَمَاؤُهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ بِالسَّيْفِ عَلَىٰ الشِّرْكِ». (٣)

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة العنكبوت: ١٤].

وَكَذَلِكَ هُنَا بَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ أَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ، وَالمُرَادُ وَهُمْ مُشْرِكُونَ.

فَدَلَّتِ الآيَاتُ عَلَىٰ أَنَّ الشِّرْكَ بِاللهِ فِي العِبَادَةِ هُوَ السَّبَبُ الأَسَاسِيُّ لِإِهْلَاكِهِمْ وَأَخْذِهِمْ بِالعَذَابِ فِي الدُّنْيَا كَيْ يَكُونَ ذَلِكَ آيَةً وَعِبْرَةً وَدَلِيلًا عَلَىٰ وُجُوبِ تَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَىٰ بِالعِبَادَةِ، وَتَحْرِيمِ الشِّرْكِ بِهِ.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ فِيمَا قَصَّهُ اللهُ تَعَالَىٰ لَنَا فِي كِتَابِهِ مِنْ أَخْبَارِ رُسُلِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ وَأَخْبَارِ أُمَمِهِمُ الذِينَ كَذَّبُوهُمْ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ دَلِيلٌ وَاضِحٌ وَبُرْهَانٌ قَاطِعٌ، عَلَىٰ وُجُوبِ تَوْحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ وَاجْتِنَابِ الشِّرْكِ، لِأَنَّ عَاقِبَةَ أَهْلِ التَّوْحِيدِ مَحْمُودَةٌ، وَأَنَّ عَاقِبَةَ المُشْرِكِينَ سَيِّئَةٌ

---

(١) تفسير القرآن للسمعاني ٢/ ٤٥٧.

(٢) جامع البيان ١٦/ ٥٩٩.

(٣) المصدر السابق ١٤/ ٣٨٧.

مَذْمُومَةٌ، وَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَواْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ [سورة يوسف: ١٠٩-١١١].

❁❁❁

فَصْلٌ فِي: أقسام التوحيد الثلاثة

الإِيمَانُ بِاللهِ -ﷻ- هُوَ أَهَمُّ أُصُولِ الإِيمَانِ، وَأَعْظَمُهَا شَأْنًا، وَأَعْلَاهَا قَدْرًا، بَلْ هُوَ أَصْلُ أُصُولِ الإِيمَانِ، وَأَسَاسُ بِنَائِهِ، وَقِوَامُ أَمْرِهِ، وَبَقِيَّةُ الأُصُولِ مُتَفَرِّعَةٌ مِنْهُ، رَاجِعَةٌ إِلَيْهِ، مَبْنِيَّةٌ عَلَيْهِ.

وَالإِيمَانُ بِاللهِ -ﷻ- هُوَ الإِيمَانُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ -ﷻ- فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَأُلُوهِيَّتِهِ، وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَهَذِهِ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ يَقُومُ عَلَيْهَا الإِيمَانُ بِاللهِ، بَلْ إِنَّ الإِسْلَامَ الحَنِيفَ إِنَّمَا سُمِّيَ تَوْحِيدًا لِأَنَّ مَبْنَاهُ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ فِي مُلْكِهِ وَأَفْعَالِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ لَا نَظِيرَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي أُلُوهِيَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ لَا نِدَّ لَهُ.

١٢٥ - **قَالَ ابْنُ بَطَّةَ -رحمه الله- (ت: ٣٨٧هـ):** «أَنَّ أَصْلَ الإِيمَانِ بِاللهِ الذِي يَجِبُ عَلَىٰ الخَلْقِ اعْتِقَادُهُ فِي إِثْبَاتِ الإِيمَانِ بِهِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَعْتَقِدَ العَبْدُ آنِيَّتَهُ لِيَكُونَ بِذَلِكَ مُبَايِنًا لِمَذْهَبِ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الذِينَ لَا يُثْبِتُونَ صَانِعًا.

الثَّانِي: أَنْ يَعْتَقِدَ وَحْدَانِيَّتَهُ، لِيَكُونَ مُبَايِنًا بِذَلِكَ مَذَاهِبَ أَهْلِ الشِّرْكِ الذِينَ أَقَرُّوا بِالصَّانِعِ وَأَشْرَكُوا مَعَهُ فِي العِبَادَةِ غَيْرَهُ.

وَالثَّالِثُ: أَنْ يَعْتَقِدَهُ مَوْصُوفًا بِالصِّفَاتِ التِي لَا يَجُوزُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَوْصُوفًا بِهَا مِنَ العِلْمِ وَالقُدْرَةِ وَالحِكْمَةِ وَسَائِرِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، إِذْ قَدْ عَلِمْنَا أَنْ كَثِيرًا مِمَّنْ يقربه وَيُوَحِّدُهُ بِالقَوْلِ المُطْلَقِ قَدْ يُلْحِدُ فِي صِفَاتِهِ، فَيَكُونُ إِلْحَادُهُ فِي صِفَاتِهِ قَادِحًا فِي تَوْحِيدِهِ، وَلِأَنَّا نَجِدُ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ خَاطَبَ عِبَادَهُ بِدُعَائِهِمْ إِلَىٰ اعْتِقَادِ كُلِّ وَاحِدَةٍ فِي هَذِهِ الثَّلَاثِ وَالإِيمَانِ بِهَا». (١)

وَبِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّ تَوْحِيدَ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ يَنْقَسِمُ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

الأَوَّلُ: الإِيمَانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ تَعَالَىٰ، أَيْ: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ: هُوَ الاعْتِقَادُ وَالإِقْرَارُ: بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَالِكُهُ، وَخَالِقُهُ، وَرَازِقُهُ، وَأَنَّهُ المُحْيِي وَالمُمِيتُ، النَّافِعُ، الضَّارُّ، المُتَفَرِّدُ بِإِجَابَةِ الدُّعَاءِ

(١) الإبانة الكبرىٰ لابن بطة ٢/ ١٤٩.

عِنْدَ الاضْطِرَارِ، الذِي لَهُ الأَمْرُ كُلُّهُ، وَبِيَدِهِ الخَيْرُ كُلُّهُ، القَادِرُ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ، لَيْسَ لَهُ فِي ذَلِكَ شَرِيكٌ، فَهِيَ افْرَادُ اللهِ تَعَالَىٰ بِأَفْعَالِهِ التِي لَا تَنْبَغِي لِغَيْرِهِ وَلَا تَصْلُحُ لِمَرْبُوبٍ مَخْلُوقٍ مَمْلُوكٍ مُدَبَّرٍ.

وَمَعْنَىٰ الرَّبِّ:

١٢٦ - **قَالَ الأَزْهَرِيُّ:** قَالَ ابْنُ الأَنْبَارِيِّ: الرَّبُّ يُطْلَقُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ مَعَانِي:

- المَالِكُ.
- السَّيِّدُ المُطَاعُ.
- المُصْلِحُ.

وَعَلَىٰ مَا تَقَدَّمَ فَالرُّبُوبِيَّةُ لَا تَخْرُجُ عَنْ ثَلَاثَةِ مَعَانِي: المُلْكُ، الأَمْرُ، التَّدْبِيرُ.

الأَوَّلُ: المَالِكُ.

الثَّانِي: الآمِرُ المُشَرِّعُ الحَاكِمُ وَالسَّيِّدُ المُطَاعُ وَالمُحَلِّلُ وَالمُحَرِّمُ.

الثَّالِثُ: المُدَبِّرُ الخَالِقُ المُصْلِحُ المُرَبِّي الرَّاعِي القَائِمُ عَلَىٰ غَيْرِهِ وَالمُتَصَرِّفُ فِيهِ.

أَسْمَاءُ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ:

تَوْحِيدُ أَفْعَالِ الرَّبِّ، لِأَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ حَقِيقَتَهَا أَفْعَالُ الرَّبِّ.

التَّوْحِيدُ الاعْتِقَادِيُّ: لِأَنَّ مَحَلَّهُ الاعْتِقَادُ فِي مُقَابِلِ العَمَلِيِّ الذِي هُوَ الأُلُوهِيَّةُ.

تَوْحِيدُ المَعْرِفَةِ وَالإِثْبَاتِ لِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِمَعْرِفَةِ اللهِ وَإِثْبَاتِ الكَمَالِ لَهُ.

أَفْعَالُ الرُّبُوبِيَّةِ وَالأَمْثِلَةُ لَهَا:

الخَلْقُ/ التَّدْبِيرُ وَالتَّصَرُّفُ فِي الأَمْرِ، المُلْكُ، النَّفْعُ وَالضُّرُّ، وَالإِحْيَاءُ وَالإِمَاتَةُ، وَالبَعْثُ وَالحِسَابُ، عِلْمُ الغَيْبِ، التَّصْوِيرُ وَالإِبْرَاءُ، وَالرِّزْقُ وَالنَّصْرُ وَالإِنْعَامُ وَالإِغْنَاءُ وَالمُعَافَاةُ وَإِنْزَالُ المَطَرِ، وَالقَضَاءُ وَالقَدَرُ وَالهِدَايَةُ وَالإِضْلَالُ، وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالحُكْمُ وَالتَّشْرِيعُ وَسَنُّ الدِّينِ وَالتَّحْلِيلُ وَالتَّحْرِيمُ.

وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِ اللهِ -ﷻ- التِي لَا يُحْصِيهَا إِلَّا هُوَ، وَالتِي مَرَدُّهَا لِصِفَةِ التَّدْبِيرِ التِي تَرْجِعُ فِيهَا مُعْظَمُ أَفْعَالِ الرَّبِّ -ﷻ-.

أَنْوَاعُ المُخَالَفَاتِ وَالقَوَادِحِ وَالشِّرْكِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ:

- إِنْكَارُ وُجُودِ الرَّبِّ -ﷻ- وَقَدْ حَصَلَ مِنَ الشَّوَاذِّ كَالفَلَاسِفَةِ المَلَاحِدَةِ.

- إِنْكَارُ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وَكَوْنِهِ خَالِقًا رَازِقًا وَذَلِكَ بِتَعْطِيلِهِ عَنْ أَفْعَالِهِ.
- إِثْبَاتُ رُبُوبِيَّةِ اللهِ مِنْ غَيْرِ تَوْحِيدٍ، فَيَعْتَرِفُ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ، وَلَكِنْ يَقَعُ فِي الشِّرْكِ فِي أَفْرَادِهَا فَيُثْبِتُ الرُّبُوبِيَّةَ لِلْمَخْلُوقِينَ، كَمَا عِنْدَ غُلَاةِ الصُّوفِيَّةِ الذِينَ يُثْبِتُونَ لِلْأَوْلِيَاءِ وَالرُّسُلِ عِلْمَ الغَيْبِ وَالنَّفْعَ وَالضُّرَّ وَالقُدْرَةَ بِكُلِّ شَيْءٍ.
- القَدْحُ فِي بَعْضِ أَفْعَالِ اللهِ مِثْلَ سَبِّ الدَّهْرِ أَوِ الرِّيحِ أَوِ التَّشَاؤُمِ أَوْ تَنَقُّصِ خَلْقِ اللهِ أَوِ الاعْتِرَاضِ عَلَىٰ قَدَرِ اللهِ وَالجَزَعِ بِهِ وَعَدَمِ الرِّضَا بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ.
- السِّحْرُ وَالتَّنْجِيمُ وَادِّعَاءُ عِلْمِ الغَيْبِ فِيهَا.
- إِنْكَارُ القَدَرِيَّةِ خَلْقَ أَفْعَالِ العِبَادِ وَإِنْكَارُ الجَبْرِيَّةِ الأَسْبَابَ.
- تَشْبِيهُ اللهِ تَعَالَىٰ بِخَلْقِهِ وَنِسْبَةُ النَّقَائِصِ لَهُ -ﷻ- مِثْلَ نِسْبَةِ الوَلَدِ إِلَيْهِ.

وُقُوعُ الشِّرْكِ الأَصْغَرِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ:

- مِثْلُ تَعْلِيقِ التَّمَائِمِ.
- سَبُّ الدَّهْرِ وَسَبُّ الرِّيحِ.
- الجَزَعُ وَالتَّسَخُّطُ عَلَىٰ القَدَرِ.
- قَوْلُ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ وَلَوْلَا اللهُ وَأَنْتَ.
- التَّطَيُّرُ وَالتَّشَاؤُمُ.
- نِسْبَةُ المَطَرِ لِلْكَوَاكِبِ وَالنَّوْءِ وَالنُّجُومِ وَالفُصُولِ كَالرَّبِيعِ نِسْبَةَ سَبَبٍ.
- التَّبَرُّكُ المُبْتَدَعُ بِآثَارِ الصَّالِحِينَ.
- التَّصْوِيرُ.

كُلُّ هَذِهِ شِرْكِيَّاتٌ عَمَلِيَّةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَهِيَ مِنَ الشِّرْكِ الأَصْغَرِ.

وَقَدْ دَلَّتِ الأَدِلَّةُ عَلَىٰ هَذَا التَّوْحِيدِ، مِنْهَا:

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [سورة الفاتحة: ٢]،

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢﴾ [سورة الزمر: ٦٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [سورة يس: ٨٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [سورة الذاريات: ٥٨]،

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة يونس: ٣١].

وَهَذَا التَّوْحِيدُ أَقَرَّ بِهِ المُشْرِكُونَ الذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ -ﷺ-، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٦١]،

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٦٣].

كَمَا أَقَرَّتْ بِهِ سَائِرُ الأُمَمِ إِمَّا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، أَوْ بَاطِنًا فَقَطْ، كَحَالِ فِرْعَوْنَ حَيْثُ قَالَ تَعَالَىٰ فِيهِ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة النمل: ١٤].

إِلَّا أَنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ لَا يَكْفِي فِي إِدْخَالِ العَبْدِ الإِسْلَامَ، وَلِذَلِكَ قَاتَلَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- مَنْ أَقَرَّ بِهِ وَصَرَفَ العِبَادَةَ لِغَيْرِ اللهِ.

وَالأَدِلَّةُ عَلَىٰ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ ظَاهِرَةٌ وَكَثِيرَةٌ، مِنْهَا: دَلِيلُ الفِطْرَةِ، وَالآيَاتُ: وَتَشْمَلُ: الآيَاتِ الآفَاقِيَّةَ، وَالآيَاتِ الخَلْقِيَّةَ، وَكَذَلِكَ الآيَاتُ التِي أَظْهَرَهَا اللهُ عَلَىٰ أَيْدِي أَنْبِيَائِهِ، وَغَيْرُهَا.(١)

---

(١) أَدِلَّةُ وُجُودِ اللهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ الأَدِلَّةُ عَلَىٰ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وَوُجُودِهِ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ:

أَوَّلًا: الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ.

وَثَانِيًا: الدَّلِيلُ الفِطْرِيُّ.

وَثَالِثًا: الدَّلِيلُ الحِسِّيُّ.

وَرَابِعًا: الدَّلِيلُ العَقْلِيُّ.

أَوَّلًا: الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ.

كِتَابُ اللهِ وَسُنَّةُ نَبِيِّهِ كِلَاهُمَا مَلِيءٌ بِالأَدِلَّةِ التِي دَلَّتْ عَلَىٰ أَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ لِلهِ سُبْحَانَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهَا، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٤]، وَكَلِمَةُ (كُلٌّ) تَدُلُّ عَلَىٰ العُمُومِ، يَعْنِي: لَفْظٌ مِنْ أَلْفَاظِ العُمُومِ، صِيغَةٌ مِنْ صِيَغِ العُمُومِ، وَبِالتَّالِي فَإِنَّ رُبُوبِيَّةَ اللهِ ثَابِتَةٌ لِجَمِيعِ الأَشْيَاءِ لَا لِبَعْضِهَا، اللهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَىٰ هَذَا أَدِلَّةٌ كَثِيرَةٌ فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ.

الدَّلِيلُ الثَّانِي: الدَّلِيلُ الفِطْرِيُّ.

الفِطْرَةُ هِيَ: الجِبِلَّةُ التِي جُبِلَ النَّاسُ عَلَيْهَا، وَهَذَا يَرْجِعُ إِلَىٰ نَشْأَتِهِمْ، فِي أَصْلِ نَشْأَتِهِمْ كَانَ العِلْمُ بِاللهِ، العِلْمُ وَالإِقْرَارُ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَإِذَا ثَبَتَتْ رُبُوبِيَّتُهُ فَبِالضَّرُورَةِ ثَبَتَ وُجُودُهُ، يَعْنِي: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتُ وُجُودِهِ وَلِذَا إِثْبَاتُ رُبُوبِيَّتِهِ يُرَدُّ بِهِ

عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ وَلَيْسَ عَلَىٰ طَائِفَةٍ وَاحِدَةٍ، يُرَدُّ بِهِ عَلَى المُشْرِكِينَ فِي الرُّبُوبِيَّةِ الذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ و شَرِيكًا فِي الرُّبُوبِيَّةِ، كَالذِينَ يَعْتَقِدُونَ فِي السَّادَاتِ وَالأَوْلِيَاءِ أَوِ الأَنْبِيَاءِ أَنَّهُمْ يُدَبِّرُونَ شُؤُونَ هَذَا الكَوْنِ مَعَ اللهِ لَهُ، فَهَذَا شِرْكٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ.

وَالصِّنْفُ الآخَرُ: هُمُ المَلَاحِدَةُ الذِينَ يُنْكِرُونَ وُجُودَ اللهِ بِالكُلِّيَّةِ، وَهَؤُلَاءِ الفِتْنَةُ بِهِمْ عَظِيمَةٌ فِي هَذَا العَصْرِ، وَلَمْ يَكُنِ الأَمْرُ كَذَلِكَ فِي السَّابِقِ.

هَذَا المَذْهَبُ مَذْهَبٌ مُضَادٌّ لِلْفِطْرَةِ، وَلِذَلِكَ المَلَايِينُ مِنَ البَشَرِ، بَلْ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ مَضَوْا وَانْتَهَوْا وَمَا عَرَفُوا شَيْئًا أَوْ سَمِعُوا شَيْئًا عَنْ إِنْكَارِ الخَالِقِ؛ لِأَنَّ هَذَا مُضَادٌّ لِلْفِطْرَةِ التِي فَطَرَ اللهُ الخَلْقَ عَلَيْهَا؛ **قَالَ النَّبِيُّ** -ﷺ-: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُولَدُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**».

ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ-رَاوِي الحَدِيثِ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [سورة الروم: ٣٠].

إِذًا: مَسْأَلَةُ الإِقْرَارِ بِوُجُودِ اللهِ، وَأَنَّ هَذَا الكَوْنَ لَهُ خَالِقٌ يُدَبِّرُهُ وَيُصَرِّفُ شُؤُونَهُ، هَذَا أَمْرٌ مُسْتَقِرٌّ فِي فِطَرِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَلِذَا تَظْهَرُ هَذِهِ الفِطْرَةُ جَلِيَّةً فِي حَالِ الشَّدَائِدِ، حَتَّىٰ فِي حَالِ هَؤُلَاءِ الذِينَ يُعْلِنُونَ إِنْكَارَ اللهِ، وَإِنَّهُ وَاجِدُهُمْ وَلَابُدَّ فِي حَالِ الشِّدَّةِ وَالكَرْبِ يَعْتَرِفُونَ بِاللهِ وَيَلْجَؤُونَ إِلَىٰ اللهِ، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [سورة يونس: ١٢]، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [سورة الزمر: ٨].

حَتَّىٰ هَؤُلَاءِ الذِينَ يُعْلِنُونَ صَبَاحَ مَسَاءَ إِنْكَارَ وُجُودِ اللهِ، فِي اللَّحَظَاتِ الحَرِجَةِ عِنْدَ الاضْطِرَارِ تَجِدُ نُفُوسَهُمْ تَتَّجِهُ إِلَىٰ الخَالِقِ مُذْعِنِينَ وَمُقِرِّينَ، هَذَا شَيْءٌ كَامِنٌ فِي نُفُوسِهِمْ، وَرُبَّمَا أَظْهَرُوهُ فِي الدُّنْيَا وَسَيَظْهَرُ فِي الآخِرَةِ، فَالكَافِرُ يُخْفِي مَا لَا يُظْهِرُ، وَلِذَا يَقُولُ اللهُ عَنْهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ [سورة الأنعام: ٢٨].

إِذًا: هُنَاكَ أَشْيَاءُ يَكْتُمُونَهَا، وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الفِطْرَةُ التِي فَطَرَ اللهُ النَّاسَ عَلَيْهَا فِي وُجُودِهِ وَفِي رُبُوبِيَّتِهِ ثُمَّ فِي أُلُوهِيَّتِهِ، أَمَّا هَذَا الإِنْكَارُ فَإِنَّهُ إِنْكَارٌ بِالظَّاهِرِ وَلَكِنَّ الحَقِيقَةَ أَنَّهُمْ يُقِرُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ، لَكِنَّهَا المُكَابَرَةُ.

وَلِذَا انْظُرْ إِلَىٰ أَعْظَمِ هَؤُلَاءِ المُنْكِرِينَ لِوُجُودِ اللهِ وَهُوَ فِرْعَوْنُ، انْظُرْ مَاذَا قَالَ فِي حَقِّهِ مُوسَىٰ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ۝١٠٢﴾ [سورة الإسراء: ١٠٢].

إِذًا: كَانَ يُقِرُّ وَلَكِنَّهُ يَجْحَدُ عَنْ عِلْمٍ ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٣٣].

إِذًا: الكُفَّارُ الذِينَ يُنَازِعُونَ فِي هَذَا الأَمْرِ المُسَلَّمِ فِطْرَتُهُمْ تُكَذِّبُهُمْ، وَعِنْدَ الشَّدَائِدِ يَظْهَرُ ذَلِكَ، وَلِذَا انْظُرْ إِلَىٰ أَمْرٍ آخَرَ يَتَجَلَّىٰ فِيهِ ظُهُورُ هَذِهِ الفِطْرَةِ، كَيْفَ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ إِذَا وُلِدَ فَإِنَّهُ يَكُونُ مَفْطُورًا عَلَىٰ أَنَّ لِكُلِّ حَادِثٍ مُحْدِثًا، وَعَلَىٰ أَنَّ لِكُلِّ أَثَرٍ مُؤَثِّرًا، وَعَلَىٰ أَنَّ كُلَّ مَصْنُوعٍ لَهُ صَانِعٌ، وَعَلَىٰ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ لَهُ فَاعِلٌ.

وَلِذَا تَجِدُ طِفْلًا صَغِيرًا لَوْ ضُرِبَ مِنَ الخَلْفِ خُلْسَةً مَاذَا يَصْنَعُ؟ يَلْتَفِتُ صَارِخًا قَائِلًا: مَنْ ضَرَبَنِي؟ هَلْ دَرَسَ قَانُونَ السَّبَبِيَّةِ؟ وَعَلِمَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ حَادِثٍ لَابُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ؟

الجَوَابُ: لَا، مَا الذِي جَعَلَهُ يَلْتَفِتُ وَيَنْظُرُ وَيَقُولُ: مَنْ ضَرَبَنِي؟

إِنَّهَا الفِطْرَةُ، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [سورة الروم: ٣٠].

وَلِذَا لَوْ تَخَيَّلْتَ-يَا رَعَاكَ اللهُ-أَنِّي أَمْشِي مَعَكَ فِي صَحْرَاءَ قَاحِلَةٍ، ثُمَّ وَجَدْنَا أَمَامَنَا قَصْرًا مُشَيَّدًا جَمِيلًا كَبِيرًا، فَإِذَا

الْتَفَتَّ إِلَيْكَ قُلْتَ: انْظُرْ إِلَىٰ هَذَا القَصْرِ كَيْفَ وُجِدَ صُدْفَةً بِدُونِ بَانٍ، بِدُونِ أَنْ يَصْنَعَهُ صَانِعٌ، إِذَا الْتَفَتَّ إِلَيْهِ مَاذَا سَتَقُولُ؟

تَقُولُ: هَذَا ضَرْبٌ مِنَ الجُنُونِ، كَيْفَ يُوجَدُ هَذَا القَصْرُ المُشَيَّدُ هَكَذَا بِلَا سَبَبٍ وَبِلَا صَانِعٍ صَنَعَهُ؟

هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ جُنُونٌ مُخَالِفٌ لِلْعَقْلِ.

إِذًا: هَذَا الكَوْنُ كُلُّهُ بِمَا فِيهِ وَمَنْ فِيهِ، أَيُعْقَلُ عِنْدَ أَغْبَىٰ النَّاسِ وَأَجْهَلِهِمْ أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا هَكَذَا صُدْفَةً بِلَا خَالِقٍ، بَلْ وَخَالِقٍ مُتَّصِفٍ بِصِفَاتٍ بَالِغَةٍ فِي الحُسْنِ وَالعَظَمَةِ، الغَايَةَ، لَابُدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا الكَوْنَ قَدْ خَلَقَهُ خَالِقٌ بَلَغَ الغَايَةَ فِي القُدْرَةِ وَالعِلْمِ وَالحِكْمَةِ وَالعِزَّةِ.

إِذًا: فِطْرَةُ اللهِ لَا شَكَّ وَلَا رَيْبَ أَنَّهَا قَائِمَةٌ عَلَىٰ الإِقْرَارِ بِوُجُودِ اللهِ بَلْ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَلِذَا كَانَ وُجُودُ اللهِ أَجْلَىٰ لِلْعُقُولِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَظْهَرُ لِلْأَبْصَارِ مِنَ الشَّمْسِ لِلْأَبْصَارِ، فَكُلُّ شَيْءٍ دَلِيلٌ عَلَىٰ وُجُودِ اللهِ.

فَالعِبَادُ مَفْطُورُونَ عَلَىٰ وُجُودِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَعَلَىٰ رُبُوبِيَّتِهِ جَلَّ رَبُّنَا وَعَزَّ وَوَحْدَانِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ.

وَلِأَجْلِ هَذَا رُسُلُ اللهِ قَالُوا فِي حَقِّ المُنْكِرِينَ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠]، الشَّكُّ إِنَّمَا يَرِدُ فِيمَا يُمْكِنُ حُصُولُ الرَّيْبِ فِي شَأْنِهِ، أَمَّا عَنِ اللهِ وَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَوْضَحُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الدَّلِيلُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ ثَمَّةَ شَكٌّ فِي ثُبُوتِ رُبُوبِيَّتِهِ؟

وَهَاهُنَا قَدْ يَرِدُ سُؤَالٌ وَهُوَ: إِذَا كَانَ الشَّأْنُ فِي وُجُودِ اللهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ أَنَّهُ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ كَثِيرِ بَحْثٍ وَاسْتِدْلَالٍ، فَلِمَ جَاءَ فِي الأَدِلَّةِ ذِكْرُ هَذَا الأَمْرِ وَبَيَانُهُ وَالاسْتِدْلَالُ عَلَيْهِ وَحِكَايَةُ المُنَاظَرَةِ فِيهِ مَعَ الشُّذَّاذِ المُنْكِرِينَ مَعَ أَنَّ المَوْضُوعَ فِطْرِيٌّ؟

وَالجَوَابُ:

أَوَّلًا: أَنَّ زِيَادَةَ الأَدِلَّةِ زِيَادَةٌ فِي الطُّمَأْنِينَةِ، الشَّيْءُ إِذَا ثَبَتَ بِدَلِيلٍ أَوْ دَلِيلَيْنِ فَإِنَّهُ قَدْ يُفِيدُ اليَقِينَ، لَكِنَّهُ إِذَا ثَبَتَ بِعِشْرِينَ أَوْ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ دَلِيلًا فَإِنَّ اليَقِينَ وَالطُّمَأْنِينَةَ بِهِ تَكُونُ أَعْظَمَ، وَبِالتَّالِي هَذَا مِنْ بَابِ تَكْثِيرِ الأَدِلَّةِ زِيَادَةً فِي الطُّمَأْنِينَةِ وَاليَقِينِ، وَالمَقَامُ لَا شَكَّ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ.

الأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ الأَمْرَ قَدْ يَكُونُ فِطْرِيًّا: نَعَمْ، وَلَكِنْ ثَمَّةَ نَوَازِعَ تُؤَثِّرُ فِيهِ، الفِطْرَةُ قَدْ يَعْرِضُ لَهَا مَا يُغَيِّرُهَا.

أَوْ يُضْعِفُهَا، وَهَذِهِ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَبِمَا فِيهَا مِنْ نَشَاطِ الشَّيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ فَإِنَّهُمْ قَدْ يَنْشَطُونَ فِي بَثِّ الشُّبَهِ التِي تُؤَثِّرُ فِي قَضَايَا الفِطْرَةِ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ الاسْتِدْلَالُ عَلَىٰ هَذَا الأَمْرِ نَافِعًا لِلْعَبْدِ فِي حَالِ الضَّعْفِ، فِي حَالِ وُرُودِ الشُّبْهَةِ، فِي حَالِ أَنْ لُبِّسَ عَلَيْهِ مُلَبِّسٌ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ فَإِنَّهُ سَيَجِدُ مِنَ الأَدِلَّةِ مَا يُعِينُهُ عَلَىٰ الرُّجُوعِ إِلَىٰ الفِطْرَةِ التِي فَطَرَهُ اللهُ عَلَيْهَا.

وَأَمْرٌ ثَالِثٌ وهو: أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، فَعَلِمَ بِعِلْمِهِ الوَاسِعِ الشَّامِلِ أَنَّ ثَمَّةَ أُنَاسًا سَتَرْتَكِسُ فِطَرُتُهُمْ، وَتَضِلُّ عُقُولُهُمْ وَأَفْهَامُهُمْ، يُنْكِرُونَ وُجُودَ اللهِ.

وَهَذَا مَا كَانَ فِي هَذَا الزَّمَانِ المُتَأَخِّرِ، هَذَا العَصْرُ الحَدِيثُ الذِي نَعِيشُ فِيهِ فِتْنَةَ الإِلْحَادِ فِيهِ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ لَا تُوَازِيهَا فِتْنَةٌ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، التَّيَّارُ الإِلْحَادِيُّ تَيَّارٌ يُدْعَىٰ إِلَيْهِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الدِّعَايَاتِ وَالوَسَائِلِ وَالأَسَالِيبِ، فَمِنَ الأَهَمِّيَّةِ بِمَكَانٍ أَنْ

يَكُونَ عِنْدَ الْمُسْلِمِ لَا سِيَّمَا عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَطَلَبَةِ العِلْمِ مِنَ الأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ مَا يَتَسَلَّحُونَ بِهِ، وَمَا يَكُونَ عَوْنًا لَهُمْ بِتَوْفِيقِ اللهِ- عَلَىٰ الوُقُوفِ أَمَامَ هَذِهِ الفِتْنَةِ التِي عَمَّتْ.

إِذًا: هَذَا المَوْضُوعُ لَمْ تَخْلُ الآيَاتُ وَالأَحَادِيثُ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَيْهِ وَمِنَ الاسْتِدْلَالِ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ لِمَا قَدْ عَلِمْتَ مِنْ هَذِهِ الفَوَائِدِ وَغَيْرِهَا.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: الدَّلِيلُ العَقْلِيُّ

وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ، وَالكَلَامُ فِيهِ كَثِيرٌ، لَكِنْ سَنَكْتَفِي بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ شَرْعِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ المُسَمَّىٰ بِدَلِيلِ الخَلْقِ، أَوْ بِدَلِيلِ الأَثَرِ، دَلِيلُ الأَثَرِ عَلَىٰ المُؤَثِّرِ، قَدْ يُعَبِّرُونَ بِدَلِيلِ الخَلْقِ، وَقَدْ يُعَبِّرُونَ بِدَلِيلِ الأَثَرِ عَلَىٰ المُؤَثِّرِ.

وَهَذَا الدَّلِيلُ قَدْ جَاءَ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ فِي كِتَابِ اللهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [سورة الطور: ٣٥]، هَذَا المَقَامُ الاحْتِمَالَاتُ المُمْكِنَةُ بِالسَّبْرِ الصَّحِيحِ تَرْجِعُ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ احْتِمَالَاتٍ لَا رَابِعَ لَهَا.

أَوَّلًا: أَنْ يَكُونُوا قَدْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، خُلِقُوا مِنَ العَدَمِ، هَذَا الاحْتِمَالُ الأَوَّلُ، وَهُوَ احْتِمَالٌ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ العَدَمَ لَا شَيْءٌ، وَفَاقِدُ الشَّيْءِ لَا يُعْطِيهِ، العَدَمُ يَعْنِي عَدَمَ وُجُودٍ، لَا وُجُودَ، فَكَيْفَ يُوجَدُ اللَّاوُجُودُ وُجُودًا وَهُوَ غَيْرُ مَوْجُودٍ؟

إِذًا: كَوْنُهُمْ وُجِدُوا مِنْ لَا شَيْءٍ قَضِيَّةٌ مَرْفُوضَةٌ عَقْلًا، العَقْلُ يَمْتَنِعُ عَنْ أَنْ يَقْبَلَ ذَلِكَ.

إِذًا: هَذَا الاحْتِمَالُ الأَوَّلُ.

الاحْتِمَالُ الثَّانِي: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾: يَعْنِي: هُمْ خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ، وَهَذَا احْتِمَالٌ بَاطِلٌ عَقْلًا أَيْضًا؛ لِأَنَّ المَخْلُوقَ لَا يَكُونُ خَالِقًا، المَخْلُوقُ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ مَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ حَيِّزِ العَدَمِ إِلَىٰ الوُجُودِ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ بِالحِسِّ وَالمُشَاهَدَةِ الضَّرُورِيَّةِ أَنَّهُ وُجِدَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا، ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [سورة الإنسان: ١] الإِنْسَانُ لَمْ يَكُنْ، غَيْرُ مَوْجُودٍ، لَوْ كَانَ وُجُودُكَ ذَاتِيًّا لَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مَوْجُودًا قَبْلَ ثَلَاثِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ وَثَلَاثَةِ آلَافٍ وَثَلَاثَةِ مَلَايِينِ سَنَةٍ، لَكِنْ لَمَّا وُجِدَ الإِنْسَانُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا دَلَّ هَذَا عَلَىٰ أَنَّهُ مُفْتَقِرٌ إِلَىٰ مَنْ يُوجِدَهُ.

إِذًا: لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَوْجَدَ نَفْسَهُ، لِأَنَّهُ سَيَكُونُ حِينَهَا مَخْلُوقًا وَخَالِقًا، وَعَقْلًا المَخْلُوقُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا.

إِذًا: مَا بَقِيَ عِنْدَنَا إِلَّا الاحْتِمَالُ الثَّالِثُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ خَالِقٌ قَدْ خَلَقَ هَذَا الخَلْقَ وَهُوَ اللهُ، وَلَمْ يَذْكُرِ اللهُ هَذَا الاحْتِمَالَ فِي الآيَةِ لِوُضُوحِهِ، حَتَّىٰ تَضْطَرَّ العُقُولُ إِلَىٰ الإِذْعَانِ بِهِ.

هَذَا الدَّلِيلُ يَتَفَرَّعُ عِنْدَ العُلَمَاءِ إِلَىٰ عِدَّةِ دَلَالَاتٍ.

أَوَّلًا: دَلَالَةُ الاخْتِرَاعِ.

وَهَذَا كُلُّهُ رَاجِعٌ إِلَىٰ دَلِيلِ الأَثَرِ عَلَىٰ المُؤَثِّرِ أَوْ دَلِيلِ الخَلْقِ.

الاخْتِرَاعُ يَعْنِي الإِيجَادَ مِنَ العَدَمِ، وَهُوَ أَنَّ هُنَاكَ أَشْيَاءَ مَعْدُومَةً لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً ثُمَّ وُجِدَتْ أُنَاسٌ، حَيَوَانَاتٌ، نَبَاتَاتٌ، مِيَاهٌ، رَعْدٌ، بَرْقٌ، أَمْطَارٌ، أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ كَانَتْ مَعْدُومَةً ثُمَّ وُجِدَتْ، وُجُودُهَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ

هُنَاكَ خَالِقًا خَلَقَهَا، وَهَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِدَلَالَةِ الاخْتِرَاعِ، وَهَذَا الأَمْرُ فِيهِ وَاضِحٌ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يُذْعِنُ بِأَنَّ المَعْدُومَ إِذَا وُجِدَ فَلَابُدَّ مِنْ مَوْجُودٍ أَوْجَدَهُ، لَابُدَّ لِلْأَثَرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مُؤَثِّرٌ.

لَوْ كُنْتُ أَمْشِي أَنَا وَإِيَّاكَ فِي طَرِيقٍ فَوَجَدْنَا بَعْرَةً سَاقِطَةً عَلَىٰ الأَرْضِ، مَاذَا سَنَقُولُ؟ سَنَقُولُ: ثَمَّةَ نَاقَةٌ مَرَّتْ مِنْ هُنَا نَحْنُ رَأَيْنَاهَا؟

مَا رَأَيْنَاهَا، كَيْفَ عَرَفْنَا؟

بِوُجُودِ الأَثَرِ.

إِذًا: الأَثَرُ دَلِيلٌ عَلَىٰ المُؤَثِّرِ وَالمَخْلُوقُ دَلِيلٌ عَلَىٰ خَالِقِهِ، المَصْنُوعُ دَلِيلٌ عَلَىٰ صَانِعِهِ.

وَلِذَلِكَ مَا أَحْسَنَ مَا قَالَ ذَاكَ الأَعْرَابِيُّ، قِيلَ لَهُ:

كَيْفَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟

قَالَ: البَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ البَعِيرِ، وَالرَّوْثُ يَدُلُّ عَلَىٰ الحَمِيرِ، وَأَثَرُ السَّيْرِ يَدُلُّ عَلَىٰ المَسِيرِ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَأَرْضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ، وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ، أَفَلَا تَدُلُّ عَلَىٰ العَلِيمِ الخَبِيرِ؟ بَلَىٰ وَاللهِ!

إِذًا: كُلُّ مَا تَرَاهُ عَيْنُكَ فَإِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَىٰ وُجُودِ اللهِ، لِأَنَّ كُلَّ مَا تَرَاهُ مِنْ هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ دَلِيلٌ مُفْصِحٌ عَنْ خَالِقِهِ، كُلُّ مَا فِي هَذَا الكَوْنِ إِنَّمَا هِيَ رَسَائِلُ مُوَجَّهَةٌ لَكَ-يَا عَبْدَ اللهِ-مَكْتُوبٌ فِيهَا: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلٌ.

كُلُّهَا تُذْعِنُ وَتَشْهَدُ وَتَنْطِقُ بِلِسَانِ حَالِهَا أَنَّ رَبًّا عَظِيمًا خَلَقَهَا.

ثَانِيًا: دَلَالَةُ العِنَايَةِ: الأَمْرُ أَكْبَرُ مِنْ مُجَرَّدِ خَلْقٍ، بَلْ هُنَاكَ خَلْقٌ وَعِنَايَةٌ بِالخَلْقِ أَيْضًا، لَيْسَ الأَمْرُ خَلْقًا عَشْوَائِيًّا، أَوْ كَمَا يَقُولُونَ: خَلْقٌ كَيْفَمَا اتَّفَقَ، لَا، إِنَّمَا هُنَاكَ

خَلْقٌ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الخَالِقَ لَهُ مِنَ العِنَايَةِ وَالرِّعَايَةِ بِهَذَا المَخْلُوقِ مَا دَلَّ عَلَىٰ وُجُودِهِ بَلْ عَلَىٰ رُبُوبِيَّتِهِ، فَإِنَّ النَّاظِرَ فِي هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ يَجِدُ أَنَّهَا قَدْ خُلِقَتْ بِعِنَايَةٍ، يَجِدُ أَنَّ المَخْلُوقَ خُلِقَ لِيَكُونَ مُنَاسِبًا لِلْحَيَاةِ، وَالحَيَاةُ مُنَاسِبَةٌ لِهَذَا المَخْلُوقِ، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة: ٢٩]، كُلُّ شَيْءٍ وُجِدَ فِي الإِنْسَانِ وُجِدَ لِيُؤَدِّيَ الوَظِيفَةَ التِي خُلِقَ لِأَجْلِهَا، لَا تَجِدُ شَيْئًا مَخْلُوقًا عَبَثًا، إِنَّمَا تَجِدُ العِنَايَةَ العَجِيبَةَ، تَجِدُ أَنَّ العَيْنَ خُلِقَتْ بِعِنَايَةٍ لِتُؤَدِّيَ الوَظِيفَةَ، تَجِدُ أَنَّ الأُذُنَ بِهَذَا التَّجْوِيفِ العَجِيبِ خُلِقَتْ لِتُؤَدِّيَ وَظِيفَةً، لَيْسَ الأَمْرُ سَبَهْلَلَةً، تَجِدُ أَنَّ اليَدَيْنِ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الأَصَابِعِ وَمَا فِيهِمَا مِنَ السَّلَامَةِ فِي اليَدَيْنِ وَفِي جَمِيعِ الجَسَدِ، كُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ بِعِنَايَةٍ، كَذَلِكَ تَجِدُ أَنَّ اللهَ خَلَقَ البَحْرَ لِيَكُونَ مُنَاسِبًا لِحَيَاةِ الأَسْمَاكِ، تَجِدُ أَنَّ اللهَ خَلَقَ الشَّمْسَ لِتَكُونَ مُنَاسِبَةً لِحَيَاةِ الأَرْضِ، تَجِدُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ القَمَرَ لِيَكُونَ مُنَاسِبًا لِلْحَيَاةِ عَلَىٰ الأَرْضِ.

قَالَ ابْنُ شُبْرُمَةَ: دَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو حَنِيفَةَ عَلَىٰ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، فَسَلَّمْتُ، وَكُنْتُ لَهُ صَدِيقًا، ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَلَىٰ جَعْفَرٍ، فَقُلْتُ لَهُ: أَمْتَعَ اللهُ بِكَ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ، لَهُ فِقْهٌ وَعِلْمٌ.

فَقَالَ لِي جَعْفَرٌ: لَعَلَّهُ الَّذِي يَقِيسُ الدِّينَ بِرَأْيِهِ.

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ، فَقَالَ: هُوَ النُّعْمَانُ بْنُ ثَابِتٍ؟ قَالَ: وَلَمْ أَعْرِفِ اسْمَهُ إِلَّا ذَلِكَ الْيَوْمَ.

قَالَ: فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: نَعَمْ، أَصْلَحَكَ اللهُ، فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: اتَّقِ اللهَ وَلا تَقِسِ الدِّينَ بِرَأْيِكَ، فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ قَاسَ إِبْلِيسُ، إِذْ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالسُّجُودِ لآدَمَ، فَقَالَ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الأعراف:

١٢] ثُمَّ قَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: هَلْ تُحْسِنُ أَنْ تَقِيسَ رَأْسَكَ مِنْ جَسَدِكَ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْمُلُوحَةِ فِي الْعَيْنَيْنِ، وَعَنِ الْمَرَارَةِ فِي الأُذُنَيْنِ، وَعَنِ الْمَاءِ فِي الْمِنْخَرَيْنِ، وَعَنِ الْعُذُوبَةِ فِي الشَّفَتَيْنِ لأَيِّ شَيْءٍ جُعِلَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لَا أَدْرِي.

قَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: إِنَّ اللهَ -ﷻ- خَلَقَ الْعَيْنَيْنِ فَجَعَلَهُمَا شَحْمَتَيْنِ، وَجَعَلَ الْمُلُوحَةَ فِيهِمَا مَنًّا مِنْهُ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ، وَلَولا ذَلِكَ لَذَابَتَا فَذَهَبَتَا، وَجَعَلَ الْمَرَارَةَ فِي الأُذُنَيْنِ مَنًّا مِنْهُ عَلَيْهِ، وَلَولا ذَلِكَ لَهَجَمَتِ الدَّوَابُّ فَأَكَلَتْ دِمَاغَهُ.

وَجَعَلَ الْمَاءَ فِي الْمِنْخَرَيْنِ لِيَصْعَدَ مِنْهُ النَّفَسُ وَيَنْزِلَ، وَيَجِدَ مِنْهُ الرِّيحَ الطَّيِّبَةَ مِنَ الرِّيحِ الرَّدِيَّةِ.

وَجَعَلَ الْعُذُوبَةَ فِي الشَّفَتَيْنِ لِيَجِدَ ابْنُ آدَمَ لَذَّةَ مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ.

ثُمَّ قَالَ لِأَبِي حَنِيفَةَ: أَخْبِرْنِي عَنْ كَلِمَةٍ أَوَّلُهَا شِرْكٌ وَآخِرُهَا إِيمَانٌ مَا هِيَ؟ قَالَ: لَا أَدْرِي.

قَالَ: قَوْلُ الرَّجُلِ «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فَلَوْ قَالَ: «لَا إِلَهَ»، ثُمَّ أَمْسَكَ كَانَ مُشْرِكًا، فَهَذِهِ كَلِمَةٌ أَوَّلُهَا شِرْكٌ وَآخِرُهَا إِيمَانٌ.

ثُمَّ قَالَ: وَيْحَكَ أَيُّمَا أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ، قَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ أَمِ الزِّنَا؟ قَالَ: لَا بَلْ قَتْلُ النَّفْسِ.

قَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ اسْمُهُ قَدْ رَضِيَ وَقَبِلَ فِي قَتْلِ النَّفْسِ بِشَاهِدَيْنِ، وَلَمْ يَقْبَلْ فِي الزِّنَا إِلَّا أَرْبَعَةً، فَكَيْفَ يَقُومُ لَكَ قِيَاسٌ؟ ثُمَّ قَالَ: أَيُّمَا أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ، الصَّوْمُ أَمِ الصَّلَاةُ؟ قَالَ: لَا بَلِ الصَّلَاةُ.

قَالَ: فَمَا بَالُ الْمَرْأَةِ إِذَا حَاضَتْ تَقْضِي الصِّيَامَ وَلا تَقْضِي الصَّلَاةَ؟ اتَّقِ اللهَ يَا عَبْدَ اللهِ وَلَا تَقِسْ، نَقِفْ نَحْنُ غَدًا وَأَنْتَ وَمَنْ خَالَفَنَا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ -ﷻ-، فَنَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ، قَالَ اللهُ -ﷻ-، وَتَقُولُ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ: سَمِعْنَا وَرَأَيْنَا، فَيُعْمَلُ بِنَا وَبِكُمْ مَا يَشَاءُ. الموفقيات لزُبَير بن بكّار (ص١٩ و٢٠)

وَهَكَذَا تَجِدُ أَنَّ الأَمْرَ أَعْظَمُ وَأَدَقُّ مِنْ مُجَرَّدِ خَلْقٍ، هَاهُنَا عِنَايَةٌ.

الدَّلَالَةُ الثَّالِثَةُ: دَلَالَةُ الإِتْقَانِ: لَيْسَ الأَمْرُ خَلْقًا عَشْوَائِيًّا، لَيْسَتِ المَسْأَلَةُ فَقَطْ أَنَّ مَصْنُوعًا دَلَّ عَلَىٰ صَانِعِهِ،

وَأَنَّ مَخْلُوقًا دَلَّ عَلَىٰ خَالِقِهِ، لَا، كُلُّ مَخْلُوقٍ خَلَقَهُ اللهُ فَقَدْ أَبْدَعَ فِي خَلْقِهِ وَصُنْعِهِ، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة النمل: ٨٨] ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [سورة السجدة: ٧] ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [سورة الملك: ٣]

إِذًا: هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ وُجُودِ الخَالِقِ العَظِيمِ، بَلْ عَلَىٰ اتِّصَافِهِ بِالعِلْمِ وَالحِكْمَةِ وَالقُدْرَةِ وَالقُوَّةِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ اللهِ، كُلُّ شَيْءٍ فِي غَايَةِ الإِبْدَاعِ فِي غَايَةِ الإِتْقَانِ هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ أَتْقَنَ، وَأَنَّ هُنَاكَ مَنْ أَحْسَنَ.

الدَّلَالَةُ رَابِعَةً: وَهِيَ المَخْلُوقَاتُ وَالمَصْنُوعَاتُ.

فَهِيَ آيَاتٌ تَشْهَدُ عَلَىٰ خَالِقِهَا وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهَا مُدَبَّرَةٌ مُسَخَّرَةٌ، إِذًا ثَمَّةَ مَنْ هُوَ يُدَبِّرُ وَيُسَخِّرُ، وَيَقْضِي بِمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَهُوَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ هَذَا الكَوْنُ بِمَا فِيهِ وَتَمْضِي فِيهِ الأَيَّامُ وَاللَّيَالِي، وَتَسِيرُ أَحْوَالُ النَّاسِ، تَشْرُقُ شَمْسٌ وَتَغْرُبُ، وَيَظْهَرُ قَمَرٌ وَيَحْتَجِبُ، وَتَأْتِي الرِّيَاحُ وَالأَمْطَارُ وَتَمْتَنِعُ وَتَحْصُلُ هَذِهِ الأُمُورُ العَجِيبَةُ فِي هَذَا المَلَكُوتِ أَوْ فِي أَحْوَالِ النَّاسِ دُونَ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَنْ يُدَبِّرُ وَيُيَسِّرُ وَيُسَخِّرُ بِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

وَلِذَلِكَ قِيلَ: مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ.

مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ، تَأَمَّلَ فِي حَالِ نَفْسِهِ فَسَتَكُونُ النَّتِيجَةُ أَنَّهُ سَيُقِرُّ بِاللهِ.

فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَىٰ أَحْوَالِ النَّاسِ فِي مَعَاشِهِمْ وَرِزْقِهِمْ أَدْرَكْتَ ذَلِكَ، فَلَا المُجِدُّ مَرْزُوقٌ دَائِمًا وَلَا الكَسُولُ مَمْنُوعٌ مِنَ

مَسْأَلَةٌ: لَوَازِمُ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ:

- تَوْحِيدُ اللهِ فِي أُلُوهِيَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَلِذَلِكَ كَثُرَ الاسْتِدْلَالُ عَلَىٰ المُشْرِكِينَ فِي عِبَادَةِ اللهِ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَخَلْقِهِ لَهُمْ.
- مُوَالَاةُ أَوْلِيَاءِ اللهِ وَمُعَادَاةُ أَعْدَاءِ اللهِ، فَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ لَوَازِمِ الرُّبُوبِيَّةِ وَمَحَبَّةُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ.
- الحُكْمُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَالتَّحَاكُمُ لِشَرْعِهِ وَالرِّضَا بِهِ.
- طَاعَةُ اللهِ وَإِجْلَالُهُ وَتَعْظِيمُهُ وَمَهَابَتُهُ وَالخَوْفُ مِنْهُ وَتَرْكُ مَعَاصِيهِ.
- الإِيمَانُ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ وَالصَّبْرُ عَلَيْهِ وَالرِّضَا بِهِ.
- مُتَابَعَةُ رَسُولِهِ -ﷺ- وَالانْقِيَادُ لَهُ وَالإِذْعَانُ لِأَمْرِهِ وَالاسْتِسْلَامُ لِشَرْعِهِ وَالتَّسْلِيمُ وَالرِّضَا بِهِ وَبِدِينِهِ.

كَمَا يَتَضَمَّنُ الإِيمَانُ بِاللهِ:

الإِيمَانُ بِأُلُوهِيَّتِهِ -ﷻ- وَهُوَ: تَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ: وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ تَعَالَىٰ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ العِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، قَوْلًا وَعَمَلًا، وَنَفْيُ العِبَادَةِ عَنْ كُلِّ مَا سِوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ كَائِنًا مَنْ كَانَ.

فَالأُلُوهِيَّةُ صِفَةٌ لِلهِ تَعَالَىٰ، فَهُوَ ذُو الأُلُوهِيَّةِ وَالعُبُودِيَّةِ عَلَىٰ خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ.

الرِّزْقِ دَائِمًا.

هَلْ دَائِمًا المُجِدُّ مَرْزُوقٌ وَالكَسْلَانُ فَقِيرٌ؟

هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يُدَبِّرُ الأُمُورَ وَيُصَرِّفُ الأَرْزَاقَ كَيْفَمَا شَاءَ.

فَإِنَّ تَدْبِيرَ شُئُونِ الخَلَائِقِ فِي هَذَا الكَوْنِ دَلِيلٌ عَلَىٰ الخَالِقِ الرَّازِقِ المُحْيِي المُمِيتِ المُدَبِّرِ وَمَا ذُكِرَ إِنَّمَا هُوَ غَيْضٌ مِنْ فَيْضٍ، وَهُوَ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرٍ، وَإِلَّا فَالمَقَامُ مَقَامٌ وَاسِعٌ، وَهَذَا المَقَامُ مَقَامٌ عَجِيبٌ وَرَحْبٌ وَوَاسِعٌ، كُلَّمَا تَأَمَّلَ الإِنْسَانُ فِيمَا عَلَيْهِ عَيْنُهُ أَوْ يَطْرُقُ سَمْعَهُ فَإِنَّهُ سَيَجِدُ الدَّلِيلَ عَلَىٰ الخَالِقِ، وَالخُلَاصَةُ فِي قَوْلِ اللهِ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠].

لَا يَرِدُ الشَّكُّ عَلَىٰ وُجُودِ مَنْ وُجُودُهُ أَظْهَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، مَتَىٰ مَا كَانَ هُنَاكَ شَكٌّ فِي وُجُودِ اللهِ فَالشَّكُّ فِي وُجُودِ غَيْرِهِ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ، بَلْ لَا يَثْبُتُ وُجُودُ شَيْءٍ لَوْ لَمْ يَكُنِ اللهُ مَوْجُودًا، فَالأَشْيَاءُ وُجِدَتْ؛ لِأَنَّهُ مَوْجُودٌ أَوْجَدَهَا: وَالحَقَائِقُ مَا حَقَّتْ إِلَّا لِأَنَّهُ أَحَقَّهَا.

أَمَّا الدَّلِيلُ الحِسِّيُّ فَهَذَا قَدْ تَبَيَّنَ لَنَا مِنْ خِلَالِ مَا سَبَقَ مِنَ الأَمْثِلَةِ وَالقَصَصِ التِي ذُكِرَتْ وَهِيَ دَلِيلٌ وَشَاهِدٌ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَكَمَا قُلْنَا كُلُّ شَيْءٍ تَرَاهُ أَوْ تَسْمَعُ بِهِ فَإِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَىٰ وُجُودِ اللهِ.

فَهُوَ إِلَهُهُمْ وَمَعْبُودُهُمُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ، لِأَنَّهُ خَالِقُهُمْ وَرَبُّهُمُ الذِي لَا رَبَّ لَهُمْ سِوَاهُ.

فَكَمَا أَنَّهُ وَحْدَهُ هُوَ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ لَمْ يُشْرِكْهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، فَكَذَلِكَ هُوَ وَحْدَهُ إِلَهُهُمْ وَمَعْبُودُهُمْ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَجْعَلُوا مَعَهُ شَرِيكًا فِي إِلَهِيَّتِهِ، كَمَا لَا شَرِيكَ مَعَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَمُلْكِهِ.(١)

فَالأُلُوهِيَّةُ صِفَةٌ لَازِمَةٌ وَثَابِتَةٌ لِلهِ تَعَالَىٰ، وَهِيَ مِنْ خَصَائِصِهِ تَعَالَىٰ فَلَا يُشْرِكُهُ أَحَدٌ فِيهَا، لِأَنَّهُ هُوَ الذِي اسْتَحَقَّ العُبُودِيَّةَ لِتَفَرُّدِ بِصِفَاتِ الكَمَالِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة البقرة: ١٦٣].

أَسْمَاءُ تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ:

- **تَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ وَالإِلَهِيَّةِ.**
- **تَوْحِيدُ العِبَادَةِ:** وَالأُلُوهِيَّةُ هِيَ العُبُودِيَّةُ التِي أَمَرَ اللهُ بِهَا وَلَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ.
- **تَوْحِيدُ العِبَادِ:** لِكَوْنِهِ مُتَعَلِّقًا بِأَفْعَالِ العِبَادِ المَخْلُوقِينَ وَتَعَبُّدِهِمْ.
- **تَوْحِيدُ الإِرَادَةِ وَالقَصْدِ وَالنِّيَّةِ وَالطَّلَبِ:** لِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِإِرَادَةِ العَبْدِ وَتَوَجُّهِهِ.
- **التَّوْحِيدُ الطَّلَبِيُّ القَصْدِيُّ:** لِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَىٰ طَلَبِ العَبْدِ وَقَصْدِهِ رَبَّهُ.
- **تَوْحِيدُ العَمَلِ وَالفِعْلِ أَوِ التَّوْحِيدُ العَمَلِيُّ الفِعْلِيُّ:** لِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِأَعْمَالِ العَبْدِ.
- **تَوْحِيدُ الشَّرْعِ وَالأَمْرِ وَالنَّهْيِ:** لِكَوْنِهِ مُتَعَلِّقًا بِأَمْرِ اللهِ لِلْعِبَادِ وَتَشْرِيعِهِ.

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٧٧٩.

الأُلُوهِيَّةُ: فِي اللُّغَةِ مَصْدَرُ أَلَهَ يَأْلَهُ إِلَاهَةً وَأُلُوهِيَّةً، وَمَعْنَاهُ التَّعَبُّدُ وَالعُبُودِيَّةُ.

قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: "الهَمْزَةُ وَاللَّامُ وَالهَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ، فَالإِلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ مَعْبُودٌ، وَيُقَالُ تَأَلَّهَ الرَّجُلُ، إِذَا تَعَبَّدَ، قَالَ رُؤْبَةُ:

لِلَّهِ دَرُّ الغَانِيَاتِ المُدَّهِ ... سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِي.

ديوان رؤبة بن العجاج، ص: ١٦٥.

فَالأُلُوهِيَّةُ هِيَ العُبُودِيَّةُ، وَالتَّأَلُّهُ التَّعَبُّدُ، وَالإِلَاهَةُ العِبَادَةُ، وَالتَّأْلِيهُ التَّعْبِيدُ.

قَالَ الخَلِيلُ: "وَيُسَمُّونَ الأَصْنَامَ التِي يَعْبُدُونَهَا آلِهَةً، وَيُسَمُّونَ الوَاحِدَ إِلَاهًا افْتِرَاءً عَلَىٰ اللهِ وَيُقْرَأُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [سورة الأعراف: ١٢٧]: وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ أَيْ: عِبَادَتَكَ، كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ٤/ ٩١.

○ **تَوْحِيدُ الغَايَةِ:** الغَايَةُ التِي مِنْ أَجْلِهِ خُلِقْنَا وَيُقَابِلُ تَوْحِيدَ الوَسِيلَةِ الرُّبُوبِيَّةَ.

وَهَذَا التَّوْحِيدُ تَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ هُوَ أَصْلُ الإِسْلَامِ وَأَسَاسُ المِلَّةِ، وَهُوَ حَقِيقَةُ دِينِ الإِسْلَامِ الذِي أَرْسَلَ اللهُ بِهِ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ بِهِ الكُتُبَ، وَهُوَ الحِكْمَةُ مِنْ خَلْقِ الخَلْقِ كُلِّهِمْ.

وَقَدْ دَلَّتِ الأَدِلَّةُ عَلَىٰ وُجُوبِ إِخْلَاصِ الدِّينِ لِلهِ فِي عِبَادَتِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء: ٣٦]، وَقَالَ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [سورة البينة: ٥]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٢٥]، وَغَيْرُهَا مِنَ الأَدِلَّةِ.

وَلَا يَدْخُلُ فِي الإِسْلَامِ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِهَذَا التَّوْحِيدِ فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنَ النَّاسِ يُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- هُوَ الخَالِقُ المَالِكُ المُدَبِّرُ لِجَمِيعِ الأُمُورِ، وَأَنَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- المُسْتَحِقُّ لِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، لَكِنْ يَعْبُدُ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ، لَمْ يَنْفَعْهُ إِقْرَارُهُ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

وَلِذَا يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة يوسف: ١٠٦]، وَالمَعْنَىٰ أَيْ: مَا يُقِرُّ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ رَبًّا وَخَالِقًا وَرَازِقًا وَمُدَبِّرًا -وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ- إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ مَعَهُ فِي عِبَادَتِهِ غَيْرَهُ مِنَ الأَوْثَانِ وَالأَصْنَامِ التِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُعْطِي وَلَا تَمْنَعُ.

وَبِهَذَا المَعْنَىٰ لِلْآيَةِ قَالَ المُفَسِّرُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- وَالتَّابِعِينَ.

١٢٧ - **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: «مِنْ إِيمَانِهِمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ، وَمَنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَمَنْ خَلَقَ الجِبَالَ؟ قَالُوا: اللهُ وَهُمْ مُشْرِكُونَ».

١٢٨ - **وَقَالَ عِكْرِمَةُ:** «تَسْأَلُهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ وَمَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فَيَقُولُونَ اللهُ فَذَلِكَ إِيمَانُهُمْ بِاللهِ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ».

١٢٩ - **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** -رَحِمَهُ اللهُ-: «إِيمَانُهُمْ قَوْلُهُمْ: اللهُ خَالِقُنَا وَيَرْزُقُنَا وَيُمِيتُنَا فَهَذَا إِيمَانٌ مَعَ شِرْكٍ عِبَادَتِهِمْ غَيْرَهُ».

١٣٠ - **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ بْنِ زَيْدٍ:** «لَيْسَ أَحَدٌ يَعْبُدُ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ إِلَّا وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِاللهِ وَيَعْرِفُ أَنَّ اللهَ رَبُّهُ، وَأَنَّ اللهَ خَالِقُهُ وَرَازِقُهُ، وَهُوَ يُشْرِكُ بِهِ، أَلَا تَرَىٰ كَيْفَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة

الشعراء: ٧٥-٧٧]»).

وَالنُّصُوصُ عَنِ السَّلَفِ فِي هَذَا المَعْنَىٰ كَثِيرَةٌ، بَلْ لَقَدْ كَانَ المُشْرِكُونَ زَمَنَ النَّبِيِّ -ﷺ- مُقِرِّينَ بِاللهِ رَبًّا خَالِقًا رَازِقًا مُدَبِّرًا، وَكَانَ شِرْكُهُمْ بِهِ مِنْ جِهَةِ العِبَادَةِ حَيْثُ اتَّخَذُوا الأَنْدَادَ وَالشُّرَكَاءَ يَدْعُونَهُمْ وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِمْ وَيُنْزِلُونَ بِهِمْ حَاجَاتِهِمْ وَطَلَبَاتِهِمْ.

وَقَدْ دَلَّ القُرْآنُ الكَرِيمُ فِي مَوَاطِنَ عَدِيدَةٍ مِنْهُ عَلَىٰ إِقْرَارِ المُشْرِكِينَ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ مَعَ إِشْرَاكِهِمْ بِهِ فِي العِبَادَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ؛

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٦١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٦٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة الزخرف:٨٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة المؤمنون:٨٤-٨٩].

فَلَمْ يَكُنِ المُشْرِكُونَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الأَصْنَامَ هِيَ التِي تُنْزِلُ الغَيْثَ وَتَرْزُقُ العَالَمَ وَتُدَبِّرُ شُؤُونَهُ، بَلْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِ الرَّبِّ -ﷻ-، وَيُقِرُّونَ أَنَّ أَوْثَانِهِمْ التِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَخْلُوقَةٌ لَا تَمْلِكُ لِأَنْفُسِهَا وَلَا لِعَابِدِيهَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا اسْتِقْلَالًا وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا، وَلَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ، وَيُقِرُّونَ أَنَّ اللهَ هُوَ المُتَفَرِّدُ بِذَلِكَ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَيْسَ إِلَيْهِمْ وَلَا إِلَىٰ أَوْثَانِهِمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ -ﷻ- الخَالِقُ وَمَا عَدَاهُ مَخْلُوقٌ وَالرَّبُّ وَمَا عَدَاهُ مَرْبُوبٌ، غَيْرَ أَنَّهُمْ جَعَلُوا لَهُ مِنْ خَلْقِهِ شُرَكَاءَ وَوَسَائِطَ، يَشْفَعُونَ لَهُمْ بِزَعْمِهِمْ عِنْدَ اللهِ وَيُقَرِّبُونَهُمْ إِلَيْهِ زُلْفَىٰ؛ وَلِذَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر: ٣]، أَيْ لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَ اللهِ فِي نَصْرِهِمْ وَرِزْقِهِمْ وَمَا يَنُوبُهُمْ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا.(١)

---

(١) **وَمِنَ الأَدِلَّةِ عَلَىٰ أَنَّ المشركين كَانُوا مُقِرِّينَ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ -ﷻ- فِي الجُمْلَةِ:**

أَوَّلًا: الأَدِلَّةُ التي فِيهَا تَصْرِيحُهُمْ بِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ اللهَ -ﷻ- مُنْفَرِدٌ بِالخَلْقِ وَالمُلْكِ وَالتَّدْبِيرِ وَالهِدَايَةِ وَالإِحْيَاءِ وَالإِمَاتَةِ؛ وَالأَدِلَّةُ عَلَىٰ هَذَا كَثِيرَةٌ.

ثَانِيًا: أَنَّهُمْ فِي الشَّدَائِدِ يَتَضَرَّعُونَ إِلَىٰ اللهِ -ﷻ- وَحْدَهُ؛ وَهَذَا جَاءَ فِي مَوَاضِعَ فِي كِتَابِ اللهِ -ﷻ-؛ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٥].

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾[سورة لقمان: ٣٢].

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الإسراء: ٦٧]، وَذَلِكَ فِي أَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ.

وَالسُّؤَالُ: لِمَاذَا مَا دَعَوْا مَعْبُودَاتِهِمُ التِي يَعْبُدُونَهَا مَعَ اللهِ؟

لِمَاذَا مَا قَالُوا: يَا هُبَلُ، يَا عُزَّىٰ، يَا سُوَاعُ؟

لِمَاذَا مَا فَعَلُوا هَذَا؟

أَكَانُوا يُبْغِضُونَهُمْ؟

الجَوَابُ: لَا بِالتَّأْكِيدِ، بَلْ كَانُوا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ.

هَلْ كَانُوا لَا يُعَظِّمُونَهُمْ؟

الجَوَابُ: بَلَىٰ، كَانُوا يُعَظِّمُونَهُمْ.

إِذًا: لِمَاذَا مَا كَانُوا يَسْأَلُونَهُمْ فِي الشَّدَائِدِ؟

الجَوَابُ: لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ لَنْ يَنْفَعُوهُمْ، وَأَنَّ الذِي بِيَدِهِ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ الذِي بِيَدِهِ مُلْكُ كُلِّ شَيْءٍ؛ وَهُوَ اللهُ -ﷻ-، فَالمَقَامُ مَقَامُ شِدَّةٍ، وَيَحْتَاجُونَ إِلَىٰ مَنْ يُنْجِي وَمَنْ يُسْعِفُهُمْ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ بِيَدِهِ القُوَّةُ وَلِمَنْ بِيَدِهِ التَّدْبِيرُ وَهُوَ -ﷻ-، فَلِأَجْلِ ذَلِكَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ وَهُمْ فِي الرَّخَاءِ، وَصَارُوا يَلْجَؤُونَ إِلَىٰ اللهِ -ﷻ- وَحْدَهُ.

إِذًا: هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَ الرُّبُوبِيَّةَ فِي آلِهَتِهِمْ وَمَعْبُودَاتِهِمْ.

ثَالِثًا: إِقْرَارُهُمْ بِعَجْزِ آلِهَتِهِمْ؛ ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة لقمان: ٣٢]، هَذِهِ الأَدِلَّةُ نَسْتَفِيدُ مِنْهَا وَجْهَيْنِ لِلدَّلَالَةِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أَنَّهُمُ اعْتَقَدُوا انْفِرَادَ اللهِ -ﷻ-، وَلِذَا دَعَوْهُ.

الوَجْهُ الثَّانِي: كَوْنُهُمْ يَدْعُونَ اللهَ وَيَتْرُكُونَ دَعْوَةَ هَؤُلَاءِ؛ هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ العَجْزَ فِي آلِهَتِهِمْ، وَالعَاجِزُ لَا يَكُونُ رَبًّا، الرَّبُّ الذِي يَمْلِكُ وَيُقَدِّرُ وَيَخْلُقُ وَيُحْيِي وَيُمِيتُ وَيَرْزُقُ هَذَا لَابُدَّ أَنْ يَكُونَ قَوِيًّا، وَهَؤُلَاءِ بِاعْتِرَافِهِمْ وَبِلِسَانِ حَالِهِمْ مُقِرُّونَ بِأَنَّ الآلِهَةَ آلِهَةٌ عَاجِزَةٌ.

رَابِعًا: أَنَّهُمْ يُقَرِّرُونَ أَنَّ هَذِهِ الآلِهَةَ لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ شُفَعَاءَ عِنْدَ اللهِ -ﷻ-، وَلَوْ اعْتَقَدُوا فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ لَبَيَّنُوا؛ لِأَنَّهُمْ يُحِبُّونَ هَذِهِ الآلِهَةَ وَيُعَظِّمُونَهَا، فَلَوْ كَانَ الأَمْرُ يَتَجَاوَزُ أَوْ يَزِيدُ عَلَىٰ كَوْنِهَا مُجَرَّدَ

شُفَعَاءَ عِنْدَ اللهِ -ﷻ- لَبَيَّنُوا ذَلِكَ وَتَكَلَّمُوا، لَكِنَّ القَوْمَ قَالُوا: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [سورة الزمر: ٣]، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾[سورة يونس: ١٨]، هَذَا الحَدُّ هُوَ أَقْصَىٰ دَرَجَةٍ يَصِلُ إِلَيْهَا هَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءُ، فَلَوْ كَانَ ثَمَّةَ شَيْءٌ أَكْبَرُ لَقَالُوهُ.

إِذًا: هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُمْ مَا اعْتَقَدُوا فِي آلِهَتِهِمُ الرُّبُوبِيَّةَ أَوْ أَنَّهُمْ مُشَارِكُونَ اللهَ -ﷻ- فِي رُبُوبِيَّتِهِ.

خَامِسًا: أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ هَذِهِ الآلِهَةَ مَمْلُوكَةٌ لِلهِ لَا تَمْلِكُ، وَمَنْ هَذِهِ حَالُهُ لَا يَكُونُ رَبًّا.

رُوِيَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٤/ ٨): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -ﷺ- قَالَ: «كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: (لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ) قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- «وَيْلَكُمْ قَدْ قَدْ» فَيَقُولُونَ: (إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ) يَقُولُونَ هَذَا، وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ».

سَادِسًا: أَنَّ اللهَ -ﷻ- أَثْبَتَ لِلْمُشْرِكِينَ إِيمَانًا وَشِرْكًا؛ أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ اللهِ -ﷻ- عَنْهُمْ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة يوسف: ١٠٦]، فَسَّرَ هَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ -ﷺ- وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ؛ كَقَتَادَةَ وَعِكْرِمَةَ وَغَيْرُهُمَا مِنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ؛ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ إِذَا سُئِلُوا: مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَمَنْ خَلَقَ الأَرْضَ، وَمَنْ خَلَقَ الجِبَالَ؟

يَقُولُونَ: اللهُ، وَهُمْ مُشْرِكُونَ؛ يَعْنِي فِي العِبَادَةِ.

إِذًا: القَوْمُ كَانَ عِنْدَهُمْ إِيمَانٌ يَتَعَلَّقُ بِالرُّبُوبِيَّةِ؛ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾ [سورة يوسف: ١٠٦]، إِذَنِ الإِيمَانُ حَاصِلٌ، لَكِنْ مَعَ هَذَا يَقَعُ مِنْهُمُ الشِّرْكُ، وَهُوَ الشِّرْكُ فِي الأُلُوهِيَّةِ، إِذَنِ الرُّبُوبِيَّةُ مَا كَانُوا يُشْرِكُونَ فِيهَا مَعَ اللهِ -ﷻ-.

سَابِعًا: أَنَّ مَنْ تَتَبَّعَ كِتَابَ اللهِ -ﷻ- وَسُنَّةَ رَسُولِهِ -ﷺ- يَخْلُصُ مِنْهَا النَّاظِرُ إِلَىٰ أَنَّهُ مَا جَاءَ فِي القُرْآنِ أَمْرُ هَؤُلَاءِ بِأَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ -ﷻ- فِي الخَلْقِ وَفِي الرِّزْقِ وَفِي التَّدْبِيرِ؛ لَا نَجِدُ خِطَابَ هَؤُلَاءِ اعْتَقَدُوا أَنَّ اللهَ هُوَ الخَالِقُ وَحْدَهُ، لَكِنَّنَا نَجِدُ فِي كِتَابِ اللهِ خِطَابَهُمْ وَأَمْرَهُمْ بِإِفْرَادِ اللهِ بِالعِبَادَةِ؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [سورة البقرة: ٢١]، نَجِدُ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٢]؛ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

إِذًا: هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ القَوْمَ مُقِرُّونَ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ -ﷻ-.

ثَامِنًا: أَدِلَّةُ القُرْآنِ التِي احْتَجَّتْ عَلَيْهِمْ فِي شَأْنِ الأُلُوهِيَّةِ بِإِقْرَارِهِمْ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَهَذِهِ مِنْ أَوْضَحِ الأَدِلَّةِ، مَنْ نَظَرَ فِي طَرِيقَةِ القُرْآنِ يَجِدُ أَنَّهُ يَحْتَجُّ عَلَىٰ المُشْرِكِينَ فِي شِرْكِهِمْ بِاللهِ -ﷻ- فِي العِبَادَةِ بِكَوْنِهِمْ يُقِرُّونَ بِكَوْنِهِ الخَالِقَ الرَّازِقَ المُدَبِّرَ، تَجِدُ مَثَلًا قَوْلَ اللهِ -ﷻ-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة البقرة: ٢١]، كَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ: وَمَا الدَّلِيلُ، وَلِمَاذَا؟

قَالَ-انْظُرِ الحُجَّةَ وَالدَّلِيلَ عَلَىٰ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة البقرة: ٢١-٢٢]؛

وَمِنَ الأَدِلَّةِ عَلَىٰ اعْتِرَافِ مُشْرِكِي العَرَبِ بِتَفَرُّدِ الرَّبِّ بِالنَّفْعِ وَالضُّرِّ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة يونس: ١٨]

وَمَعَ هَذَا الإِقْرَارِ العَامِّ مِنَ المُشْرِكِينَ لِلهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلَامِ، بَلْ حَكَمَ اللهُ فِيهِمْ بِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ كَافِرُونَ، وَتَوَعَّدَهُمْ بِالنَّارِ وَالخُلُودِ فِيهَا، وَاسْتَبَاحَ رَسُولُهُ -ﷺ- دِمَاءَهُمْ

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ: «وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الذِي خَلَقَ تِلْكَ الأَشْيَاءَ»؛ هَذِهِ عَقِيدَةٌ تَعْلَمُونَهَا، وَتَعْتَقِدُونَهَا وَتُقِرُّونَ بِهَا، إِذَنْ عَلَيْكُمْ أَنْ تَلْتَزِمُوا لَازِمَ ذَلِكَ.

الذِي حَصَلَ مِنَ المُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ فَصَلُوا بَيْنَ اللَّازِمِ وَالمَلْزُومِ، يَلْزَمُهُمْ فِي اعْتِقَادِهِمْ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ -ﷻ- أَنْ يَتَوَجَّهُوا لَهُ بِالعِبَادَةِ وَحْدَهُ، وَالذِي يَتَأَمَّلُ فِي كِتَابِ اللهِ يَجِدُ أَنَّ جُلَّ أَدِلَّةِ الرُّبُوبِيَّةِ فِي القُرْآنِ إِنَّمَا كَانَتْ عَلَىٰ سَبِيلِ الاحْتِجَاجِ عَلَىٰ المُشْرِكِينَ وَإِلْزَامِهِمْ، أَقْرَرْتُمْ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ، إِذَنْ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، تَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكُمْ، إِذَنْ مَا الذِي يَبْقَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ تَتَوَجَّهُوا لَهُ بِالعِبَادَةِ، خَلَقَكُمْ وَحْدَهُ، إِذًا عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، رَزَقَكُمْ وَحْدَهُ، إِذَنْ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ.

إِذًا هَذِهِ مِنَ الأَدِلَّةِ الوَاضِحَةِ الجَلِيَّةِ عَلَىٰ أَنَّ القَوْمَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِالرُّبُوبِيَّةِ.

تَاسِعًا: اعْتِرَافُهُمْ بِالشِّرْكِ فِي العِبَادَةِ دُونَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهَذَا مَلْحَظٌ دَقِيقٌ؛ تَأَمَّلْ مَثَلًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [سورة الأنعام: ١٤٨]، إِثْبَاتُهُمْ مَشِيئَةَ اللهِ -ﷻ- دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُمْ يُقِرُّونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَأَنَّ التَّصَرُّفَ وَالتَّدْبِيرَ وَأَنَّ التَّقْدِيرَ إِنَّمَا هُوَ اللهُ -ﷻ-، وَكُلُّ هَذَا إِيمَانُهُمْ بِالرُّبُوبِيَّةِ، لَكِنَّهُمْ فِي الشِّقِّ الآخَرِ مُشْرِكُونَ بِاعْتِرَافِهِمْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا، إِذًا مَا كَانَ شِرْكُهُمْ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، لِأَنَّهُمْ يُثْبِتُونَ مَشِيئَةَ اللهِ -ﷻ-، وَهَذَا مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ، لَكِنَّهُمْ يُشْرِكُونَ فِي الشِّقِّ الآخَرِ وَهُوَ فِي الأُلُوهِيَّةِ، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَيَعْتَرِفُونَ أَنَّ شِرْكَهُمْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا بَلْ كَانَ فِي شَيْءٍ آخَرَ وَهُوَ فِي عِبَادَةِ اللهِ -ﷻ-، هَذِهِ بَعْضُ الأَدِلَّةِ التِي تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ المُشْرِكِينَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ -ﷻ- فِي الجُمْلَةِ.

وَيَنْبَغِي أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ مَا يُقَرِّرُهُ عُلَمَاءُ التَّوْحِيدِ مِنْ أَنَّ المُشْرِكِينَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِالرُّبُوبِيَّةِ لَيْسَ مَدْحًا لَهُمْ، بَلْ هَذَا إِزْرَاءٌ عَلَيْهِمْ وَتَوْبِيخٌ لَهُمْ، فَكَوْنُهُمْ مُقِرِّينَ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ وَمَعَ ذَلِكَ يُشْرِكُونَ مَعَهُ فِي الأُلُوهِيَّةِ، إِثْبَاتُ هَذَا فِيهِ أَعْظَمُ الذَّمِّ لِهَؤُلَاءِ المُشْرِكِينَ، لَيْسَ المَقَامُ مَقَامَ مَدْحٍ، بَلْ هَذَا فِيهِ مُبَالَغَةٌ فِي ذَمِّهِمْ.

وَحِينَمَا نَقُولُ المُشْرِكُونَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِالرُّبُوبِيَّةِ هَذَا فِي الغَالِبِ، وَإِلَّا فَثَمَّةَ شُذُوذٌ عَنْ هَذَا الأَصْلِ، وَهُوَ وَاقِعٌ مِنَ العَرَبِ الذِينَ كَانُوا عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-، فَالنَّصَارَىٰ كَانُوا مُشْرِكِينَ فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَبَعْضُ قَبَائِلِ العَرَبِ كَانَتْ مُتَنَصِّرَةً وَبَعْضُ قَبَائِلِ العَرَبِ ذَهَبَتْ إِلَىٰ مَقَالَةِ المَجُوسِ وَهُمْ مُشْرِكُونَ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، بَلْ بَعْضُ العَرَبِ كَانُوا مُعَطِّلَةً مُنْكِرِينَ اللهَ أَصْلًا كَالدَّهْرِيَّةِ.

إِذًا: نَحْنُ نَتَكَلَّمُ عَنْ حُكْمٍ أَغْلَبِيٍّ، لَيْسَ القَصْدُ أَنْ نُنَزِّهَ المُشْرِكِينَ عَنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ هُوَ مُشْرِكٌ بِاللهِ -ﷻ- فِي الرُّبُوبِيَّةِ، إِنَّمَا المَقْصُودُ أَنَّ القَوْمَ فِي الغَالِبِ كَانُوا عَلَىٰ هَذَا الاعْتِقَادِ كَمَا بَيَّنَ رَبُّنَا -ﷻ- فِي كِتَابِهِ.

انظر شروح كشف الشبهات» (ص ٥٩).

وَأَمْوَالَهُمْ لِكَوْنِهِمْ لَمْ يُحَقِّقُوا لَازِمَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَهُوَ تَوْحِيدُ اللهِ فِي العِبَادَةِ.

فَالمُشْرِكُ قَدْ يَشْهَدُ بِالتَّوْحِيدِ فِي حَالَاتٍ:

- يَشْهَدُ بِنَوْعٍ مِنَ التَّوْحِيدِ وَهُوَ الرُّبُوبِيَّةُ فِي الجُمْلَةِ.
- قَدْ يُوَحِّدُ المُشْرِكُ فِي حَالِ الشِّدَّةِ وَالخَوْفِ وَيُشْرِكُ فِي الرَّخَاءِ وَالأَمْنِ.
- التَّوْحِيدُ فِي بَعْضِ العِبَادَاتِ، فَقَدْ تَجِدُ شَخْصًا يُشْرِكُ فِي جَانِبٍ وَيُوَحِّدُ فِي جَانِبٍ، فَيُوَحِّدُ فِي العِبَادَةِ وَيُشْرِكُ فِي الطَّاعَةِ.

لَكِنَّ إِقْرَارَهُمْ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ لَا يَعْنِي عَدَمَ وُجُودِ بَعْضِ المُخَالَفَاتِ فِي تَوْحِيدِهِمُ الرُّبُوبِيَّةَ وَالقَوَادِحِ فِي تَفَاصِيلِهِ:

- اعْتِقَادُ بَعْضِهِمْ شَيْئًا مِنَ النَّفْعِ وَالضُّرِّ فِي الآلِهَةِ ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ [سورة هود: ٥٤].
- إِنْكَارُ الرِّسَالَةِ وَالإِرْسَالِ وَهُوَ مِنْ رُبُوبِيَّةِ اللهِ.
- إِنْكَارُ البَعْثِ وَهُوَ مِنْ أَفْعَالِ الرُّبُوبِيَّةِ.
- التَّحْلِيلُ وَالتَّحْرِيمُ وَالتَّشْرِيعُ.
- عَدَمُ الْتِزَامِهِمْ بِلَازِمِ الرُّبُوبِيَّةِ الذِي هُوَ تَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ وَعِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ.
- اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ السَّحَرَةَ وَالكُهَّانَ وَالمُنَجِّمِينَ يَعْلَمُونَ الغَيْبَ.
- تَشْبِيهُ اللهِ -ﷻ- بِخَلْقِهِ وَتَنَقُّصُهُ مِثْلَ نِسْبَةِ الوَلَدِ إِلَيْهِ أَوِ النَّوْمِ وَالتَّعَبِ.
- وُقُوعُهُمْ فِي سَبِّ اللهِ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ.
- التَّشَاؤُمُ وَالتَّطَيُّرُ وَلُبْسُ الحَلْقَةِ وَالتَّمَائِمِ وَالرُّقَى وَاعْتِقَادُ تَأْثِيرِهَا وَنَفْعِهَا وَالاسْتِقْسَامُ بِالأَزْلَامِ وَالتَّبَرُّكُ بِالأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ وَالاسْتِمْطَارُ بِالنَّوْءِ.

فَتَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ لَمْ يُنَازِعْ فِي أَصْلِهِ أَحَدٌ، وَإِنَّمَا نَازَعُوا فِي تَفَاصِيلِهِ، فَالإِثْبَاتُ هُوَ لِلْأَصْلِ مَعَ شَيْءٍ مِنَ الضَّلَالِ فِي تَفَاصِيلِهِ.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ الإِقْرَارَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَحْدَهُ دُونَ الإِتْيَانِ بِلَازِمِهِ تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ لَا يَكْفِي وَلَا يُنْجِي مِنْ عَذَابِ اللهِ، بَلْ هُوَ حُجَّةٌ بَالِغَةٌ عَلَىٰ الإِنْسَانِ تَقْتَضِي إِخْلَاصَ الدِّينِ لِلهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَسْتَلْزِمُ إِفْرَادَ اللهِ وَحْدَهُ بِالعِبَادَةِ، فَإِذَا لَمْ يَأْتِ بِذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ حَلَالُ الدَّمِ وَالمَالِ.

فَتَحْقِيقُ هَذَا التَّوْحِيدِ إِنَّمَا يَكُونُ بِإِفْرَادِ اللهِ تَعَالَىٰ بِالعِبَادَةِ، فَلَا نَصْرِفُ شَيْئًا مِنَ العِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ -ﷻ-، وَنَتَبَرَّأُ مِنْ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ -ﷻ- وَهَذَا هُوَ مُقْتَضَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وَالعِبَادَةُ التِي يَجِبُ أَلَّا تُصْرَفَ إِلَّا لِلهِ وَحْدَهُ تَشْمَلُ: كُلَّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، فَتَشْمَلُ: الصَّلَاةَ وَالدُّعَاءَ وَالذَّبْحَ وَالنَّذْرَ وَالاسْتِعَانَةَ وَالاسْتِعَاذَةَ وَالخَوْفَ وَالرَّجَاءَ وَغَيْرَهَا.

وَلَقَدْ تَضَافَرَتِ النُّصُوصُ وَتَظَاهَرَتِ الأَدِلَّةُ عَلَىٰ وُجُوبِ إِفْرَادِ اللهِ بِالأُلُوهِيَّةِ، وَتَنَوَّعَتْ فِي دَلَالَتِهَا عَلَىٰ ذَلِكَ:

تَارَةً بِالأَمْرِ بِهِ:

كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة البقرة: ٢١]، وَقَوْلِهِ: ﴿* وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء: ٣٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿* وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: ٢٣]، وَنَحْوُهَا مِنَ الآيَاتِ.

وَتَارَةً بِبَيَانِ أَنَّهُ الأَسَاسُ لِوُجُودِ الخَلِيقَةِ وَالمَقْصُودُ مِنْ إِيجَادِ الثَّقَلَيْنِ:

تَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ هُوَ حِكْمَةُ إِيجَادِ الخَلْقِ كُلِّهِمْ، فَمِنْ أَجْلِهِ خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالسَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَغَيْرِهَا مِنَ المَخْلُوقَاتِ.

وَإِنَّمَا خَلَقَ اللهُ الجِنَّ وَالإِنْسَ لِيَعْبُدُوهُ وَيُطِيعُوا أَمْرَهُ، وَيَتَّبِعُوا رُسُلَهُ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الذاريات: ٥٦].

فَبَيَّنَ تَعَالَىٰ أَنَّ الحِكْمَةَ مِنْ خَلْقِ بَنِي الإِنْسِ وَالجِنِّ هِيَ عِبَادَتُهُ وَتَوْحِيدُهُ بِالعِبَادَةِ.

فَخَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ الجِنَّ وَالإِنْسَ وَأَرَادَ مِنْهُمْ شَرْعًا عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لِأَنَّهُ الأَمْرُ الذِي أُوجِدُوا مِنْ أَجْلِهِ.

وَكُلُّ المَخْلُوقَاتِ إِنَّمَا خَلَقَهَا اللهُ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الحِكْمَةِ العَظِيمَةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الأنعام: ٧٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [سورة يونس: ٥].

وَتَارَةً بِبَيَانِ أَنَّهُ المَقْصُودُ مِنْ بِعْثَةِ الرُّسُلِ:

إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَرْسَلَ رُسُلَهُ إِلَىٰ أَقْوَامِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لِأَنَّهَا الغَايَةُ مِنْ خَلْقِهِمْ، وَذَلِكَ لَمَّا وَقَعَ الشِّرْكُ فِي النَّاسِ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، فَبُعِثَتِ الرُّسُلُ لِيُذَكِّرُوهُمْ بِالغَايَةِ العُظْمَىٰ مِنْ خَلْقِهِمْ، وَهِيَ تَوْحِيدُهُ بِالعِبَادَةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [سورة البقرة: ٢١٣]، وَمَا مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا وَبَعَثَ اللهُ فِيهَا رَسُولًا يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَالكُفْرِ بِالمَعْبُودَاتِ مِنْ دُونِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة النحل: ٣٦]، فَأَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ بَعَثَ رَسُولًا فِي كُلِّ أُمَّةٍ لِيَدْعُوَهُمْ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالكُفْرِ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٢٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [سورة البقرة: ١٣٦-١٣٨].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿* شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الشورى: ١٣].

فَالرُّسُلُ كُلُّهُمْ بُعِثُوا بِتَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ، وَأَنَّ رِسَالَتَهُمْ وَاحِدَةٌ، -وَإِنِ اخْتَلَفُوا فِي الشَّرَائِعِ- اتَّفَقُوا فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ، لِكَوْنِهِ أَصْلَ دَعْوَةِ كُلِّ رَسُولٍ أُرْسِلَ.

وَتَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ: هُوَ مِحْوَرُ الخُصُومَةِ بَيْنَ الرُّسُلِ وَأُمَمِهِمْ:

تَقَدَّمَ أَنَّ تَوْحِيدَ العِبَادَةِ هُوَ مُفْتَتَحُ دَعَوَاتِ الرُّسُلِ جَمِيعِهِمْ، فَمَا مِنْ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَّا وَكَانَ أَوَّلَ مَا يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَيْهِ هُوَ تَوْحِيدُ اللهِ، وَلِذَا كَانَتِ الخُصُومَةُ بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ وَأَقْوَامِهِمْ فِي ذَلِكَ،

فَالأَنْبِيَاءُ يَدْعُونَهُمْ إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ وَإِخْلَاصِ العِبَادَةِ لَهُ، وَالأَقْوَامُ يُصِرُّونَ عَلَىٰ البَقَاءِ عَلَىٰ الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ إِلَّا مِنْ هَدَاهُ اللهُ مِنْهُمْ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ قَوْمِ نُوحٍ -عليه السلام-: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة نوح: ٢٣-٢٤]، وَقَالَ عَنْ قَوْمِ هُودٍ -عليه السلام-: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الأحقاف: ٢٢]، ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة هود: ٥٣].

وَقَالَ عَنْ قَوْمِ صَالِحٍ -عليه السلام-: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة هود: ٦٢].

وَقَالَ عَنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ -عليه السلام-: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة هود: ٨٧].

وَقَالَ عَنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ [سورة ص: ٤-٧].

وَقَالَ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الفرقان: ٤١-٤٤].

فَهَذِهِ النُّصُوصُ وَمَا جَاءَ فِي مَعْنَاهَا تَدُلُّ أَوْضَحَ دَلَالَةٍ أَنَّ المُعْتَرَكَ وَالخُصُومَةَ بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ وَأَقْوَامِهِمْ إِنَّمَا كَانَ حَوْلَ تَوْحِيدِ العِبَادَةِ وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ إِخْلَاصِ الدِّينِ لِلهِ.

١٣١- **وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ** -صلى الله عليه وسلم- **قَالَ**: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ».(١)

---

(١) البخاري (٥٢) مسلم (٢٢).

١٣٢- وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ».(١)

وَتَارَةً بِبَيَانِ أَنَّهُ المَقْصُودُ مِنْ إِنْزَالِ الكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ:

قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ اللهَ بَعَثَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا، وَأَنَّ الحِكْمَةَ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ هُوَ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ.

وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ مَعَهُمُ الكُتُبَ لِبَيَانِ مَا أُرْسِلُوا بِهِ، وَهُوَ تَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ، وَهُوَ أَصْلُ رِسَالَةِ كُلِّ رَسُولٍ.

فَلِذَلِكَ كَانَ إِنْزَالُ الكُتُبِ عَلَىٰ الرُّسُلِ مِنْ أَجْلِ بَيَانِ تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ وَحُقُوقِهِ.

فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَرْسَلَ رُسُلَهُ يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ، فَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكُتُبَ لِبَيَانِ هَذَا الأَمْرِ العَظِيمِ الذِي أُرْسِلُوا مِنْ أَجْلِهِ، فَكَانَتْ جَمِيعُ كُتُبِ اللهِ المُنَزَّلَةِ عَلَىٰ رُسُلِهِ مُتَضَمِّنَةً لِهَذَا التَّوْحِيدِ، وَهُوَ أَعْظَمُ مَا احْتَوَتْهُ هَذِهِ الكُتُبُ.

وَقَدْ جَاءَتْ نُصُوصٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ كُتُبَهُ لِبَيَانِ حَقِّهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ الذِي هُوَ تَوْحِيدُهُ فِي عِبَادَتِهِ؛

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ [سورة النحل: ٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [سورة الأنبياء: ٢٥].

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُوحِي إِلَىٰ رُسُلِهِ بِتَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ وَالإِنْذَارِ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ مَضْمُونَ الرِّسَالَةِ هُوَ تَوْحِيدُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي عِبَادَتِهِ، وَأَنَّ مَضْمُونَ الوَحْيِ المُنَزَّلِ عَلَىٰ الرُّسُلِ هُوَ الأَمْرُ بِتَوْحِيدِهِ فِي عِبَادَتِهِ، وَالإِنْذَارُ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ [سورة هود: ١-٢].

---

(١) صحيح مسلم (٢٣).

فَأَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ فَصَّلَ آيَاتِ القُرْآنِ المُنَزَّلِ عَلَىٰ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ -ﷺ- بِبَيَانِ أَنْ لَا يُعْبَدَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

١٣٣- **قَالَ الطَّبَرِيُّ:** «يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ: ثُمَّ فُصِّلَتْ بِأَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَخْلَعُوا الآلِهَةَ وَالأَنْدَادَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ -ﷺ-: قُلْ يَا مُحَمَّدُ، لِلنَّاسِ ﴿إِنَّنِي لَكُمْ﴾، مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴿نَذِيرٌ﴾ يُنْذِرُكُمْ عِقَابَهُ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ وَعِبَادَةِ الأَصْنَامِ ﴿وَبَشِيرٌ﴾، يُبَشِّرُكُمْ بِالجَزِيلِ مِنَ الثَّوَابِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ وَإِخْلَاصِ العِبَادَةِ وَالأُلُوهِيَّةِ لَهُ».(١)

وَالنُّصُوصُ الوَارِدَةُ فِي بَيَانِ إِنْزَالِ الكِتَابِ بِالحَقِّ كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا أُنْزِلَتْ لِبَيَانِ حَقِّ اللهِ الذِي هُوَ تَوْحِيدُهُ وَطَاعَتُهُ، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة البقرة: ١٧٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة البقرة: ٢١٣]، فَبَيَّنَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ أَنْزَلَ الكُتُبَ مَعَ رُسُلِهِ بِالحَقِّ الذِي هُوَ بَيَانُ حَقِّهِ الذِي هُوَ تَوْحِيدُهُ بِالعِبَادَةِ، وَاجْتِنَابُ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، وَحُقُوقُ ذَلِكَ الذِي هُوَ شَرْعُهُ.

وَتَارَةً بِبَيَانِ عَظِيمِ ثَوَابِ أَهْلِهِ وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ أُجُورٍ عَظِيمَةٍ وَنِعَمٍ كَرِيمَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ:

كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الأنعام: ٨٢].

وَتَارَةً بِالتَّحْذِيرِ مِنْ ضِدِّهِ، وَبَيَانِ خُطُورَةِ مُنَاقَضَتِهِ، وَذِكْرِ مَا أَعَدَّ -ﷻ- مِنْ عِقَابٍ أَلِيمٍ لِمَنْ تَرَكَهُ:

كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة المائدة: ٧٢].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الإسراء: ٣٩].

وَتَارَةً بِبَيَانِ أَنَّ التَّوْحِيدَ أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَىٰ المُكَلَّفِ:

إِنَّ أَوَّلَ مَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَىٰ المُكَلَّفِ هُوَ الإِقْرَارُ بِتَوْحِيدِهِ فِي الأُلُوهِيَّةِ، وَأَنَّهُ المُسْتَحِقُّ بِأَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ.

---

(١) التفسير ١٢/ ٣١٢.

فَلِهَذَا كَانَ أَوَّلَ مَا يُؤْمَرُ بِهِ الإِنْسَانُ إِذَا دَخَلَ فِي الإِسْلَامِ هُوَ الإِقْرَارُ لِلهِ بِتَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ.

وَهُوَ أَوَّلُ مَا يُدْعَىٰ إِلَيْهِ النَّاسُ عِنْدَ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ.

١٣٤ - **فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ -ﷺ- مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَىٰ نَحْوِ أَهْلِ اليَمَنِ قَالَ لَهُ:** «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَىٰ، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ».[(١)]

فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ -ﷺ- بِأَنْ يَبْدَأَ فِي دَعْوَتِهِمْ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ فِي أُلُوهِيَّتِهِ، وَيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لِأَنَّهُ هُوَ أَوَّلُ الوَاجِبَاتِ، لِذَلِكَ أَمَرَهُ بِأَنْ يَبْدَأَ بِهِ عِنْدَ دَعْوَتِهِمْ.

وَتَارَةً بِبَيَانِ أَنَّ التَّوْحِيدَ مِنْ أَجْلِهِ شُرِعَ الجِهَادُ:

إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَمَرَ بِالجِهَادِ لِإِقَامَةِ التَّوْحِيدِ، وَلِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، وَهِيَ كَلِمَةُ الإِخْلَاصِ، وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۖ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [سورة التوبة: ٥]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ﴾ [سورة الأنفال: ٣٩]، وَالفِتْنَةُ هِيَ الشِّرْكُ.

فَأَمَرَ اللهُ بِقِتَالِ الكُفَّارِ حَتَّىٰ يَدْخُلُوا فِي دِينِ الإِسْلَامِ، وَذَلِكَ بِالتَّوْبَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ.

وَأَمَرَ بِالقِتَالِ حَتَّىٰ لَا يَكُونَ الشِّرْكُ فِي الأَرْضِ، وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ تَعَالَىٰ.

١٣٥ - **وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ:** «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ».[(٢)]

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري ٤/ ٣٧٨ (ح: ٧٣٧٢)، وصحيح مسلم ص: ٨٤ (ح: ١٢٣).

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري ١/ ٢٤، (ح: ٢٥)، وصحيح مسلم ص: ٨٥، (ح: ١٢٩).

فَبَيَّنَ النَّبِيُّ -ﷺ- أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِقِتَالِ المُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُقِرُّوا لِلهِ بِالتَّوْحِيدِ فِي أُلُوهِيَّتِهِ وَيَقُومُوا بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّهُمْ بِذَلِكَ يَعْصِمُونَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ.

إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الأَدِلَّةِ المُشْتَمِلَةِ عَلَىٰ تَقْرِيرِ التَّوْحِيدِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَالتَّنْوِيهِ بِفَضْلِهِ وَبَيَانِ ثَوَابِ أَهْلِهِ وَعِظَمِ خُطُورَةِ مُخَالَفَتِهِ.

وَالسُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ كَذَلِكَ مَلِيئَةٌ بِالأَدِلَّةِ عَلَىٰ هَذَا التَّوْحِيدِ وَأَهَمِّيَّتِهِ، مِنْ ذَلِكَ:

١٣٦- **مَا رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ؟ قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ»**.(١)

١٣٧- **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنه- قَالَ: لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ -ﷺ- مُعَاذًا نَحْوَ اليَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَىٰ فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ»**.(٢)

١٣٨- **وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ»**.(٣)

١٣٩- **وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»**.(٤)

مَسْأَلَةٌ: الفَرْقُ بَيْنَ تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ:

○ أَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ مُتَعَلِّقَةٌ بِأَفْعَالِ الرَّبِّ مِثْلَ الخَلْقِ وَالإِحْيَاءِ فَهِيَ فِعْلُهُ وَصِفَتُهُ، وَالأُلُوهِيَّةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِأَفْعَالِ المَخْلُوقِ كَالخَوْفِ وَالسُّجُودِ فَهِيَ فِعْلُ العَبْدِ وَصِفَتُهُ.

○ أَنَّ تَوْحِيدَ الأُلُوهِيَّةِ مُتَضَمِّنٌ لِلرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ مُسْتَلْزِمٌ لِلْأُلُوهِيَّةِ وَلَيْسَ مُتَضَمِّنًا

---

(١) صحيح البخاري (٧٣٧٣).

(٢) صحيح البخاري (٧٣٧٢).

(٣) صحيح البخاري (٤٤٩٧).

(٤) صحيح مسلم (٩٣).

لَهَا.

○ أَنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ مُتَعَلِّقٌ فِي الجُمْلَةِ فِي الاعْتِقَادِ وَالقَوْلِ، وَالأُلُوهِيَّةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِالعَمَلِ: عَمَلِ القَلْبِ وَالجَوَارِحِ.

○ أَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ تَوْحِيدُهَا مَعْرِفَةٌ وَإِثْبَاتٌ، وَالأُلُوهِيَّةُ إِرَادَةٌ وَطَلَبٌ وَقَصْدٌ.

○ أَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ مُتَعَلِّقَةٌ بِالأُمُورِ الكَوْنِيَّةِ القَدَرِيَّةِ كَالخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالتَّدْبِيرِ، وَالأُلُوهِيَّةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِالشَّرْعِ وَالأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالمَحَبَّةِ وَالرِّضَا.

○ أَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الرَّبِّ وَهُوَ السَّيِّدُ المُرَبِّي المُتَصَرِّفُ، وَالأُلُوهِيَّةُ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الإِلَهِ وَهُوَ المَعْبُودُ.

○ أَنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ مُتَضَمِّنٌ لِلْإِيمَانِ بِاللهِ وَأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ وَمَلِيكُهُ وَالمُتَصَرِّفُ فِيهِ، وَتَوْحِيدَ الأُلُوهِيَّةِ مُتَضَمِّنٌ لِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَنَبْذِ كُلِّ مَا سِوَاهُ.

○ أَنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ لَا يُدْخِلُ مَنْ آمَنَ بِهِ الإِسْلَامَ بِعَكْسِ تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ، فَإِنَّ مَنْ آمَنَ بِهِ يَدْخُلُ فِي الإِسْلَامِ.

○ أَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ دَلِيلٌ عَلَىٰ الأُلُوهِيَّةِ، وَالأُلُوهِيَّةُ مَدْلُولُ الرُّبُوبِيَّةِ.

❁❁❁

فَصْلٌ فِي: معنى لا إله إلا الله

الكُفْرُ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانُ بِاللهِ

اعْلَمْ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ هِيَ الكَلِمَةُ الفَارِقَةُ بَيْنَ الكُفْرِ وَالإِسْلَامِ وَالشِّرْكِ وَالتَّوْحِيدِ وَهِيَ كَلِمَةُ التَّقْوَىٰ وَالعُرْوَةُ الوُثْقَىٰ وَالدِّينُ الوَاصِبُ وَهِيَ المَعْرُوفُ الأَكْبَرُ وَهِيَ كَلِمَةُ الإِخْلَاصِ وَالكَلِمَةُ السَّوَاءُ وَالكَلِمَةُ العُلْيَا وَالحَنِيفِيَّةُ وَهِيَ الحُسْنَىٰ وَالعَدْلُ وَالحَسَنَةُ وَهِيَ الكَلِمَةُ الصَّوَابُ وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ وَهِيَ الإِيمَانُ وَالنِّعْمَةُ الكُبْرَىٰ وَهِيَ الشَّهَادَةُ وَهِيَ الإِحْسَانُ وَهِيَ كَلِمَةُ الحَقِّ وَالكَلِمَةُ الصَّوَابُ وَهِيَ العَهْدُ وَالمِيثَاقُ وَهِيَ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالقَوْلُ الثَّابِتُ وَهِيَ المَثَلُ الأَعْلَىٰ وَالكَلِمَةُ البَاقِيَةُ وَالدِّينُ الخَالِصُ وَهِيَ الصِّدْقُ وَالذِّكْرُ وَهِيَ شَهَادَةُ الحَقِّ وَهِيَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾

[سورة الأنبياء: ٢٥].

١٤٠ - **وَقَالَ رَسُولُ اللهِ** -ﷺ-: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

١٤١ - **وَقَالَ رَسُولُ اللهِ** -ﷺ-: «إِنَّ نَبِيَّ اللهِ نُوحًا -عليه السلام- لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ، آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ: آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ، لَوْ وُضِعْنَ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ لَرَجَحَتْ بِهِنَّ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً لَقَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنْهَاكَ عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ».

١٤٢ - **قَالَ رَسُولُ اللهِ** -ﷺ-: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ رُؤُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِيَ الحَافِظُونَ؟ يَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَىٰ، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ

السِّجِلَّاتِ؟ فَقَالَ: فَإِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ».

١٤٣ - **وَرُوِيَ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، قَالَ:** «مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَىٰ العِبَادِ نِعْمَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ عَرَّفَهُمْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: وَإِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ كَالمَاءِ فِي الدُّنْيَا».(١)

١٤٤ - **وَقَالَ كَمَا فِي «الحِلْيَةِ»:** يُقَالُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي الآخِرَةِ بِمَنْزِلَةِ المَاءِ فِي الدُّنْيَا، لَا يَحْيَىٰ شَيْءٌ فِي الدُّنْيَا إِلَّا عَلَىٰ المَاءِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠]، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ بِمَنْزِلَةِ المَاءِ فِي الدُّنْيَا، مَنْ لَمْ تَكُنْ مَعَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَهُوَ مَيِّتٌ، وَمَنْ كَانَتْ مَعَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَهُوَ حَيٌّ.(٢)

وَسَيُسْأَلُ العِبَادُ كُلُّهُمْ عَنْ هَذِهِ الكَلِمَةِ العَظِيمَةِ وَمَعْنَاهَا وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ: رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الحجر: ٩٢]، قَالَ: عَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.(٣)

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الخَيْرَ وَالفَضْلَ لِأَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بَعْدَ العِلْمِ بِمَعْنَاهَا، وَعَلَيْهِ فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ مَعْنَاهَا وَيَتَصَوَّرْهُ فَهُوَ كَالهَاذِي أَوِ النَّائِمِ الذِي لَا يَعْقِلُ مَا يَقُولُ.

فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ مَعْنَاهَا وَنَعْلَمَ مَعْنَاهَا وَنُعَلِّمَ ذَلِكَ أَوْلَادَنَا حَتَّىٰ يَكُونُوا عَلَىٰ بَصِيرَةٍ وَبَيِّنَةٍ بِمَعْنَىٰ هَذِهِ الكَلِمَةِ العَظِيمَةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [سورة الزخرف: ٨٦].

١٤٥ - **قَالَ الطَّبَرِيُّ:** «الذِينَ شَهِدُوا بِالحَقِّ، فَأَقَرُّوا بِهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ مَا شَهِدُوا بِهِ».(٤)

فَمِنْ آكَدِ مَا يَجِبُ عَلَىٰ المُسْلِمِ هُوَ العِنَايَةُ بِمَدْلُولِ هَذِهِ الكَلِمَةِ العَظِيمَةِ التِي شَهِدَ بِهَا وَفَهْمِهَا وَمَعْرِفَةِ مَدْلُولِهَا مَعْرِفَةً صَحِيحَةً فَأَيُّ عِلْمٍ يَنْفَعُهُ بَعْدَ إِذْ جَهِلَ مَعْنَىٰ مَا بِهِ نَجَاتُهُ وَفَلَاحُهُ.

وَتَتَأَكَّدُ الأَهَمِّيَّةُ هَذِهِ حِينَمَا يَفْحُشُ الانْحِرَافُ فِي فَهْمِهَا وَيَكْثُرُ الجُنُوحُ عَنِ الجَادَّةِ فِي شَرْحِهَا

---

(١) «الشكر لابن أبي الدنيا» (ص٣٤).

(٢) كما في «الحلية» (٧/ ٢٧٢).

(٣) ابن أبي شيبة في مصنفه -رحمه الله- (٣٤٦٥٠).

(٤) في «تفسيره» (٢٠/ ٦٦٢).

وَبَيَانِهَا فَكَمْ هِيَ تِلْكَ التَّفْسِيرَاتُ الخَاطِئَةُ التِي حُشِيَتْ بِهَا المُؤَلَّفَاتُ وَصَاحُوا بِهَا فِي المُحَاضَرَاتِ وَنَطَقَ بِهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ وَكَمْ تَرَتَّبَ عَلَىٰ ذَلِكَ مِن انْحِرَافَاتٍ عَظِيمَةٍ عَصَفَتْ بِدِينِ أَقْوَامٍ.

وَاعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللهُ أَنَّ المُصِيبَةَ الكُبْرَىٰ التِي حَلَّتْ بِالنَّاسِ اليَوْمَ وَأَشَدَّهَا وَقْعًا فِي أَحْوَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ هُوَ الجَهْلُ بِمَعْنَىٰ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وَالجَهْلُ وَالخِلَافُ فِي مَعْنَىٰ هَذِهِ الكَلِمَةِ التِي أُسِّسَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ عَلَيْهَا خِلَافٌ مَرْكَزِيٌّ أَسَاسِيٌّ لَا يَنْبَغِي إِهْمَالُهُ وَتَحْجِيمُهُ أَوْ تَقْدِيمُ شَيْءٍ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَهَابَهُ يَعْنِي ذَهَابَ الدِّينِ وَالإِسْلَامِ.

المَسْأَلَةُ الأُولَىٰ: (أَرْكَانُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)

اعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللهُ أَنَّ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ رُكْنَيْنِ: وَهُمَا النَّفْيُ وَالإِثْبَاتُ، فَالنَّفْيُ: وَهُوَ الرُّكْنُ الأَوَّلُ هُوَ (لَا إِلَهَ): وَهُوَ نَفْيُ الإِلَهِيَّةِ عَمَّا سِوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ مِنَ المَخْلُوقَاتِ وَالكُفْرُ بِالطَّوَاغِيتِ التِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَىٰ وَبِكُلِّ دِينٍ غَيْرِ مِلَّةِ الإِسْلَامِ الحَنِيفِ وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ.

١٤٦ - **رُوِيَ عَنْ يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ:** بَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- إِذْ سَمِعَ القَوْمُ وَهُمْ يَقُولُونَ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «**إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَحَجٌّ مَبْرُورٌ**» ثُمَّ سَمِعَ نِدَاءً فِي الوَادِي يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «**وَأَنَا أَشْهَدُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا يَشْهَدُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا بَرِئَ مِنَ الشِّرْكِ**».(١)

وَالإِثْبَاتُ: وَهُوَ الرُّكْنُ الثَّانِي مِنْ أَرْكَانِهَا (إِلَّا اللهُ): هُوَ إِثْبَاتُ الإِلَهِيَّةِ لِلهِ وَحْدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ فَهُوَ -ﷺ- المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ.

فَرُوحُ هَذِهِ الكَلِمَةِ وَسِرُّهَا: إِفْرَادُ الرَّبِّ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، وَتَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتَعَالَىٰ جَدُّهُ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ- بِالمَحَبَّةِ وَالإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ وَالخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَتَوَابِعِ ذَلِكَ: مِنَ التَّوَكُّلِ وَالإِنَابَةِ وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، فَلَا يُحِبُّ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَا كَانَ يُحِبُّ غَيْرُهُ فَإِنَّمَا يُحِبُّ تَبَعًا لِمَحَبَّتِهِ، وَكَوْنِهِ وَسِيلَةً إِلَىٰ زِيَادَةِ مَحَبَّتِهِ، وَلَا يَخَافُ سِوَاهُ، وَلَا يُرْجَىٰ سِوَاهُ، وَلَا يُتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا يُرْغَبُ إِلَّا

---

(١) أخرجه أحمد -رحمه الله- (٢٤١٩١) قال: حَدَّثَنَا هارون بن معروف (قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: وسمعتُه أنا مِنَ هارون)، و «النَّسَائي» فِي «الكبرىٰ» (٩٧٨٤) قال: أَخْبَرَنَا عَمرو بن منصور، قال: حَدَّثَنَا أصبغ بن فرج، و «ابن حِبَّان» (٤٥٩٥) قال: أَخْبَرَنَا عبد الله بن محمد بن سَلم، قال: حَدَّثَنَا حَرملة بن يحيىٰ.

إِلَيْهِ، وَلَا يُرْهَبُ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا يُحْلَفُ إِلَّا بِاسْمِهِ، وَلَا يُنْظَرُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يُتَابُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُطَاعُ إِلَّا أَمْرُهُ، وَلَا يُتَحَسَّبُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُسْتَغَاثُ فِي الشَّدَائِدِ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُلْتَجَأُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُسْجَدُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يُذْبَحُ إِلَّا لَهُ وَبِاسْمِهِ، وَيَجْتَمِعُ ذَلِكَ فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ: أَنْ لَا يُعْبَدَ إِلَّا إِيَّاهُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ، فَهَذَا هُوَ تَحْقِيقُ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.(١)

وَكُنْ عَلَىٰ يَقِينٍ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ إِسْلَامُ أَحَدٍ إِلَّا بِتَحْقِيقِ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَحْقِيقِ الأَمْرَيْنِ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ فَإِنَّ التَّوْحِيدَ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِهِمَا.

خَبَرُ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ لِأَبِي جِيفَةَ.

فَيَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّ العِبَادَةَ حَقٌّ لِلهِ، وَأَنْ تُؤَدِّيَهَا لَهُ وَحْدَهُ، وَأَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّ صَرْفَهَا لِغَيْرِهِ شِرْكٌ وَضَلَالٌ، هَذَا هُوَ الإِفْرَادُ وَهُوَ الجَمْعُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦].

وَ(مَنْ) أَدَاةُ شَرْطٍ وَجَوَابُ الشَّرْطِ: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ فَالمَعْنَىٰ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ إِسْلَامُ أَحَدٍ إِلَّا بِتَحْقِيقِ الكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانِ بِاللهِ، فَإِذَا اخْتَلَّ الشَّرْطُ انْتَقَضَتِ العِبَادَةُ كَالطَّهَارَةِ وَاسْتِقْبَالِ القِبْلَةِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ شُرُوطِ صِحَّةِ الصَّلَاةِ فَإِنْ نَقَصَ أَحَدُهَا أَوِ اخْتَلَّ بَطَلَتِ الصَّلَاةُ.

١٤٧ - وَرَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- **يَقُولُ:** «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ، وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ».(٢)

فَلَا يَكُونُ التَّلَفُّظُ بِهَا عَاصِمًا لِلدَّمِ وَالمَالِ إِلَّا بِتَحْقِيقِ الكُفْرِ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ.

فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يَكْفُرْ بِالأَدْيَانِ الأُخْرَىٰ وَيُكَفِّرْ عَابِدِيهَا لَا يَصِحُّ إِسْلَامُهُ وَلَا تَنْفَعُهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وَمَعْنَىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: لَا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ، فَاللهُ هُوَ المَعْبُودُ بِحَقٍّ وَكُلُّ مَا سِوَاهُ بَاطِلٌ وَهَذَا

---

(١) «الداء والدواء» (ص١٩٦).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٣٧).

يَقْتَضِي بُطْلَانَ آلِهَةِ المُشْرِكِينَ التِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَالبَرَاءَةُ وَتَكْفِيرُ مَنْ عَبَدَهَا.

وَقَدْ انْحَرَفَ فِي تَفْسِيرِ مَعْنَىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ جَمَاعَاتٌ وَفِرَقٌ وَقَدْ تَرَتَّبَ عَلَىٰ هَذَا الخَطَأِ فِي الفَهْمِ انْحِرَافَاتٌ عَظِيمَةٌ فِي الاعْتِقَادِ، بَلِ الوُقُوعُ فِيمَا يُنَاقِضُ مَعْنَاهَا، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُرَدِّدُهَا بِلِسَانِهِ، لَكِنَّهُ يَقَعُ فِيمَا مَنَعَتْهُ مِنَ الشِّرْكِ بِأَعْمَالِهِ، وَيُنْكِرُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الإِخْلَاصِ بِقَلْبِهِ، فَأَثْبَتَ مَا نَفَتْهُ، وَاعْتَقَدَ خِلَافَ مَا قَامَتْ عَلَيْهِ.

وَإِذَا أَرَدْتَ مِصْدَاقَ ذَلِكَ، فَدُونَكَ تِلْكَ المَقَامَاتِ الشَّاهِقَةَ، وَالقُبُورَ المُزَخْرَفَةَ، وَانْظُرْ إِلَىٰ العَاكِفِينَ عَلَيْهَا وَالسَّاجِدِينَ لَهَا وَالطَّائِفِينَ وَالمُتَمَسِّحِينَ بِهَا، وَاسْتَمِعْ إِلَىٰ تِلْكَ الهُتَافَاتِ وَالاسْتِغَاثَاتِ وَالدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهَا وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ هَذِهِ المُنْكَرَاتِ العَظِيمَةِ الخَطَأُ فِي فَهْمِهَا وَتَفْسِيرِ مَعْنَاهَا وَلَوْ أَنَّهُمْ فَهِمُوهَا حَقًّا وَاعْتَقَدُوا مَدْلُولَهَا صِدْقًا لَمْ يَقَعُوا فِي كَثِيرٍ مِنْ تِلْكَ الأَعْمَالِ الضَّالَّةِ.

مَتَىٰ تَنْفَعُ الكَلِمَةُ صَاحِبَهَا:

لَا تَنْفَعُ هَذِهِ الكَلِمَةُ العَظِيمَةُ صَاحِبَهَا إِلَّا إِذَا قَالَهَا بِلِسَانِهِ وَالْتَزَمَ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَطَاعَتِهِ وَالإِذْعَانُ لِأَمْرِهِ وَالانْقِيَادُ لِشَرْعِهِ وَالتَّسْلِيمُ لِرَسُولِهِ وَالكُفْرُ بِعِبَادَةِ كُلِّ مَا سِوَاهُ وَتَرْكُ كُلِّ العِبَادَاتِ المُبْتَدَعَةِ وَعَدَمُ صَرْفِ شَيْءٍ مِنَ العِبَادَاتِ لِغَيْرِ اللهِ وَالبَرَاءَةُ مِنَ المُشْرِكِينَ وَالكُفَّارِ وَمَعْبُودَاتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ.

الأَوَّلُ: العَمَلُ بِأَرْكَانِهَا: الإِيمَانُ بِاللهِ وَالكُفْرُ بِالطَّاغُوتِ وَتَرْكُ الشِّرْكِ قَصْدًا.

الثَّانِي: الإِتْيَانُ بِشُرُوطِهَا السَّبْعَةِ، وَسَتَأْتِي.

الثَّالِثُ: عَدَمُ الإِخْلَالِ بِهَا وَلَا الإِتْيَانُ بِنَاقِضٍ مِنْ نَوَاقِضِهَا.

بَيْنَمَا الفِرَقُ الضَّالَّةُ وَالمُنْحَرِفَةُ فَسَّرَتِ التَّوْحِيدَ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) بِمَا تَعْتَقِدُ مِنْ بَاطِلٍ:

فَالتَّوْحِيدُ عِنْدَ الاتِّحَادِيَّةِ وَأَهْلِ الوَحْدَةِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ عَيْنَ كُلِّ مَوْجُودٍ.

وَالتَّوْحِيدُ عِنْدَ الجَهْمِيَّةِ المُعَطِّلَةِ بِفِرَقِهَا الأَشْعَرِيَّةِ وَالمَاتُرِيدِيَّةِ: إِنْكَارُ صِفَاتِ اللهِ وَتَحْرِيفُهَا لِأَنَّ مَنْ أَثْبَتَ الصِّفَاتِ عِنْدَهُمْ يَكُونُ مُشْرِكًا، وَمَعْنَاهَا عِنْدَهُمْ لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ أَوْ لَا قَادِرَ عَلَىٰ الاخْتِرَاعِ إِلَّا اللهُ.

وَالتَّوْحِيدُ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ وَأَهْلِ الكَلَامِ: اعْتِقَادُ أَنَّ اللهَ هُوَ الخَالِقُ فَقَطْ أَوْ لَا قَادِرَ عَلَىٰ الاخْتِرَاعِ

إِلَّا اللهُ، وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمْ يَكُونُ بِاعْتِقَادِ أَنْ يَكُونَ المَخْلُوقُ لَهُ تَأْثِيرٌ وَاسْتِطَاعَةٌ.

وَقِيلَ مَعْنَاهَا لَا حَاكِمِيَّةَ إِلَّا لِلهِ: وَهَذَا جُزْءٌ مِنْ مَعْنَاهَا وَلَيْسَ مَعْنَاهَا الكُلِّيَّ.

وَمِمَّا أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الطَّوَائِفُ الصَّدُّ عَنِ التَّوْحِيدِ وَحَرْبُ أَهْلِهِ وَمُعَادَاتُهُمْ.

وَسَبَبُ الخَلَلِ وَالضَّلَالِ الحَاصِلِ عِنْدَ الفِرَقِ رَاجِعٌ إِلَىٰ الخَطَأِ فِي تَفْسِيرِ مَعْنَىٰ الإِلَهِ.

مَسْأَلَةٌ: مَعْنَىٰ الإِلَهِ:

إِنَّ مَعْرِفَةَ مَعْنَىٰ كَلِمَةِ إِلَهٍ رُكْنٌ أَسَاسِيٌّ فِي فَهْمِ مَعْنَىٰ التَّوْحِيدِ، وَبِسَبَبِ الخَطَأِ فِي فَهْمِ هَذِهِ الكَلِمَةِ يَحْصُلُ الخَطَأُ فِي فَهْمِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ فَالجَهْلُ بِمَعْنَىٰ الإِلَهِ هُوَ جَهْلٌ بِمَعْنَىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ فَسَّرُوا الإِلَهَ بِالمَعْبُودِ، وَهُوَ مَا تَقْتَضِيهِ اللُّغَةُ وَالشَّرْعُ، فَالإِلَهُ فِي اللُّغَةِ هُوَ المَعْبُودُ.

١٤٨ - **قَالَ الآجُرِّيُّ** -رَحِمَهُ اللهُ-: وَقَوْلُهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [سورة الزخرف: ٨٤]، فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ -جَلَّ ذِكْرُهُ- إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَإِلَهُ مَنْ فِي الأَرْضِ، هُوَ الإِلَهُ يُعْبَدُ فِي السَّمَاوَاتِ، وَهُوَ الإِلَهُ يُعْبَدُ فِي الأَرْضِ، هَكَذَا فَسَّرَهُ العُلَمَاءُ.

ثُمَّ ذَكَرَ مَا رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ فِي ذَلِكَ:

قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [سورة الزخرف: ٨٤] قَالَ: هُوَ إِلَهٌ يُعْبَدُ فِي السَّمَاءِ، وَإِلَهٌ يُعْبَدُ فِي الأَرْضِ.[(١)]

قُلْتُ: هَذَا إِجْمَاعٌ عَزِيزٌ فِي تَفْسِيرِ الإِلَهِ بِالمَعْبُودِ بِخِلَافِ مَنْ قَالَ مِنَ الفِرَقِ الضَّالَّةِ بِأَنَّ مَعْنَىٰ الإِلَهِ هُوَ الرَّبُّ.

وَتَرَتَّبَ عَلَىٰ تَفْسِيرِهِمْ مَعْنَىٰ الإِلَهِ انْحِرَافَاتٌ عَظِيمَةٌ فِي الاعْتِقَادِ بَلِ الوُقُوعُ فِيمَا يُنَاقِضُ مَعْنَاهَا.

١٤٩ - **وَقَالَ الزَّجَّاجُ:** وَمَعْنَىٰ قَوْلِنَا: إِلَهٌ إِنَّمَا هُوَ الذِي يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ، وَهُوَ تَعَالَىٰ المُسْتَحِقُّ لَهَا دُونَ مَنْ سِوَاهُ.[(٢)]

---

(١) «الشريعة» (٣/ ١١٠٥).

(٢) تفسير أسماء الله الحسنىٰ (ص: ٢٦).

١٥٠ - **وَقَالَ ابْنُ فَارِسٍ: (أَلَهَ)** الهَمْزَةُ وَاللَّامُ وَالهَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ، فَالإِلَهُ: اللهُ تَعَالَىٰ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ مَعْبُودٌ، وَيُقَالُ: تَأَلَّهَ الرَّجُلُ: إِذَا تَعَبَّدَ.(١)

١٥١ - **وَهُوَ شَرْعًا يُطْلَقُ عَلَىٰ المَعْبُودِ يَقُولُ الطَّبَرِيُّ:** لَا مَعْبُودَ يَسْتَحِقُّ عَلَيْكَ إِخْلَاصَ العِبَادَةِ لَهُ إِلَّا اللهُ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَىٰ.(٢)

١٥٢ - **وَقَالَ النَّحَّاسُ:** ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [سورة الطور: ٤٣] أَيْ: مَعْبُودٌ يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ.(٣)

أَمَّا تَعْرِيفُ الأُلُوهِيَّةِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ مُصَادَرَةٌ لِلُبِّ التَّوْحِيدِ، فَمَا بَعَثَ اللهُ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الكُتُبَ إِلَّا لِإِفْرَادِ اللهِ بِالعِبَادَةِ، وَالأَدِلَّةُ مُتَضَافِرَةٌ عَلَىٰ تَأْكِيدِ ذَلِكَ، وَمِنْ أَهَمِّهَا بَيَانُ أَنَّ الإِلَهَ فِي القُرْآنِ هُوَ المَعْبُودُ؛ وَلِذَلِكَ رَبَطَ اللهُ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ أُلُوهِيَّتِهِ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ، فَكَوْنُهُ إِلَهًا يَعْنِي أَنَّهُ هُوَ المَعْبُودُ بِحَقٍّ، أَمَّا تَفْسِيرُ الإِلَهِ بِأَنَّهُ القَادِرُ عَلَىٰ الاخْتِرَاعِ فَإِنَّهُ يُؤَدِّي إِلَىٰ عَدَمِ الاهْتِمَامِ بِتَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ الذِي هُوَ الأَصْلُ، وَيَنْبَنِي عَلَيْهِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِمَّنْ يَتَبَنَّىٰ هَذَا التَّعْرِيفَ التَّسَاهُلُ بِمَسَائِلِ العِبَادَةِ كَالاسْتِغَاثَةِ بِغَيْرِ اللهِ، وَالتَّوَسُّلَاتُ الشِّرْكِيَّةُ وَالبِدْعِيَّةُ، وَالذَّبْحُ لِلْقُبُورِ وَالأَضْرِحَةِ وَالقِبَابِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَخُلَاصَةُ الأَمْرِ أَنَّ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ مَعْنَاهَا: لَا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ.

بَيْنَمَا مَعْنَىٰ الإِلَهِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ وَالأَشَاعِرَةِ وَعَامَّةِ أَهْلِ الكَلَامِ: القَادِرُ عَلَىٰ الاخْتِرَاعِ وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الآلِهَةُ لِأَنَّهَا قَادِرَةٌ عَلَىٰ الصُّنْعِ وَالاخْتِرَاعِ وَفَسَّرُوا الأُلُوهِيَّةَ بِالقُدْرَةِ وَالخَلْقِ وَالرُّبُوبِيَّةِ وَهَذَا التَّفْسِيرُ هُوَ سَبَبُ وُقُوعِ الصُّوفِيَّةِ وَالأَشْعَرِيَّةِ وَالرَّافِضَةِ وَالمُتَكَلِّمَةِ فِي الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ.

وَالعِبَادَةُ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ وَالأَشْعَرِيَّةِ لَا تُسَمَّىٰ عِبَادَةً إِلَّا مَعَ اعْتِقَادِ النَّفْعِ وَالضُّرِّ فِي المَعْبُودِ وَإِعْطَائِهِ بَعْضَ صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ وَكَذَلِكَ لَا يَعْتَبِرُونَ الدُّعَاءَ وَالاسْتِغَاثَةَ مِنَ العِبَادَةِ إِنَّمَا العِبَادَةُ فَقَطْ فِي الصَّلَاةِ وَالجَهْلُ بِحَقِيقَةِ العِبَادَةِ وَالأُلُوهِيَّةِ لَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ وُقُوعِهِمْ فِي الشِّرْكِ فَلَمْ يَعْلَمُوا حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ وَلَا مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ وَيَأْمُرُ بِهِ، فَظَنُّوا أَنَّ اتِّخَاذَ الوَسَائِطِ التِي تَشْفَعُ عِنْدَهُ مِنَ الدِّينِ الذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ وَأَحَبَّهُ وَقَاسُوهُ -ﷺ- بِمُلُوكِ الأَرْضِ المُحْتَاجِينَ لِلشَّفَاعَةِ.

---

(١) مقاييس اللغة (١/ ١٢٧).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٣٢).

(٣) إعراب القرآن (٤/ ١٧٦).

مَسْأَلَةٌ: أَنْوَاعُ الآلِهَةِ:

الإِلَهُ الحَقُّ: وَهُوَ اللهُ فَهُوَ المَعْبُودُ وَحْدَهُ بِحَقٍّ.

وَهَذَا حَقِيقَةُ مَعْنَىٰ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: أَيْ لَا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ فَالنَّفْيُ وَاقِعٌ عَلَىٰ العِبَادَةِ الحَقَّةِ وَعَلَىٰ المَعْبُودِ بِحَقٍّ وَعَلَىٰ الإِلَهِ المُسْتَحِقِّ لِلْعِبَادَةِ، وَالإِثْبَاتُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلهِ وَحْدَهُ المُسْتَحِقِّ لِلْعِبَادَةِ وَلَيْسَ نَفْيَ وُجُودِ المَعْبُودِ، فَالآلِهَةُ غَيْرُ اللهِ مَوْجُودَةٌ وَكَثِيرَةٌ وَمُثْبَتَةٌ غَيْرُ مَنْفِيَّةٍ لَكِنِ المَنْفِيُّ اسْتِحْقَاقُهَا العِبَادَةَ، إِذْ أَنَّ عِبَادَتَهَا بَاطِلَةٌ وَلَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعْبَدَ.

الآلِهَةُ البَاطِلَةُ التِي لَا يَجُوزُ أَنْ تُصْرَفَ لَهَا العِبَادَةُ: وَهِيَ كُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَمِنْ هَذِهِ المَعْبُودَاتِ المَوْجُودَةِ البَاطِلَةِ: المَلَائِكَةُ وَالأَنْبِيَاءُ وَالأَوْلِيَاءُ وَالأَوْثَانُ وَالأَشْجَارُ وَالصُّوَرُ وَالهَوَىٰ وَالدُّنْيَا.

وَاتَّصَفَتْ هَذِهِ الآلِهَةُ بِالبُطْلَانِ لِأَنَّ عِبَادَتَهَا وَقَعَتْ بِدُونِ حَقٍّ أَيْ أَنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعْبَدَ وَلَا تَنْبَغِي لَهَا، فَلَا يُعْبَدُ إِلَّا مَنْ يَخْلُقُ وَيَنْفَعُ وَيَضُرُّ وَحْدَهُ.

وَكَوْنُهَا آلِهَةً ظَالِمَةً بَاطِلَةً: لِأَنَّهَا مَا قَامَتْ عِبَادَتُهَا بِالعَدْلِ كَمَا هُوَ الحَالُ فِي عِبَادَةِ رَبِّنَا -ﷻ- الذِي تَمَّتْ كَلِمَتُهُ صِدْقًا وَعَدْلًا وَقَامَتْ بِتَوْحِيدِهِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ.

قَاعِدَةٌ: تَحْقِيقُ الأُلُوهِيَّةِ يَتَحَقَّقُ بِأَمْرَيْنِ:

الأَوَّلُ: عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ بِمَا شَرَعَ لَنَا رَسُولُهُ -ﷺ-.

الثَّانِي: البَرَاءَةُ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ وَالكُفْرُ بِالطَّاغُوتِ.

وَلَا يَكْفِي أَحَدُهُمَا عَنِ الآخَرِ، وَمَنْ تَرَكَهُمَا أَوْ أَحَدَهُمَا فَهُوَ كَافِرٌ.

مَسْأَلَةٌ: لِمَاذَا اسْتَحَقَّ اللهُ تَعَالَىٰ العِبَادَةَ دُونَ مَا سِوَاهُ؟

أَوْجُهُ اسْتِحْقَاقِ اللهِ لِلْعِبَادَةِ وَوُجُوبِ تَوْحِيدِهِ بِهَا:

الأَوَّلُ: لِكَمَالِ صِفَاتِهِ وَجَلَالِهِ تَقَدَّسَ رَبُّنَا فَاللهُ -ﷻ- يُعْبَدُ لِكَمَالِهِ مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ، وَمِنْ هَذَا الكَمَالِ أَنَّهُ مُتَصَرِّفٌ قَادِرٌ خَالِقٌ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَيُؤَكِّدُ هَذَا المَعْنَىٰ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [سورة الزخرف: ٨١] أَيْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ كَمَا زَعَمَ المُشْرِكُونَ لَصَحَّتْ عِبَادَةُ هَذَا الوَلَدِ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لِلهِ تَعَالَىٰ لَكَسَبَ صِفَاتِ وَالِدِهِ مِنْ صِفَاتِ الكَمَالِ، فَاسْتَحَقَّ العِبَادَةَ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا مُسْتَحِيلًا، فَالوَلَدُ مُنْتَفٍ عَنِ اللهِ انْتَفَتِ العِبَادَةُ عَنْ غَيْرِ اللهِ، وَكَذَلِكَ لَيْسَ لِلهِ

شَرِيكٌ فِي العِبَادَةِ لِعَدَمِ وُجُودِ الكَمَالِ فِي غَيْرِهِ، وَعَلَيْهِ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْبَدَ إِلَّا الكَامِلُ وَالكَامِلُ لَا بُدَّ أَنْ يُعْبَدَ، وَلَا كَامِلَ مُطْلَقًا إِلَّا اللهُ فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ العِبَادَةُ لَهُ وَحْدَهُ.

الثَّانِي: لِجَمَالِهِ -ﷻ- فَلَهُ الجَمَالُ المُطْلَقُ مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ، وَالذِي لَا يَتَّصِفُ بِالجَمَالِ المُطْلَقِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْبَدَ.

الثَّالِثُ: لِإِنْعَامِهِ -ﷻ- عَلَىٰ خَلْقِهِ وَتَفَضُّلِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ وَلِعَظِيمِ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ فَكُلُّ خَيْرٍ مِنْهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة النحل: ٥٣] فَهُوَ المُنْعِمُ وَحْدَهُ وَلِهَذَا اسْتَحَقَّ مَعَ إِنْعَامِهِ المَحَبَّةَ وَالعِبَادَةَ وَيُدْعَىٰ وَيُجْأَرُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ، فَمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ أَحْبَبْتَهُ، وَأَيُّ نِعْمَةٍ أَعْظَمُ مِنْ نِعْمَةِ الذِي هَدَاكَ وَأَوْجَدَكَ وَفَطَرَكَ وَرَعَاكَ وَأَعْطَاكَ كُلَّ مَا سَأَلْتَ.

الرَّابِعُ: لِأَنَّهُ -ﷻ- النَّافِعُ الضَّارُّ وَحْدَهُ، فَهُوَ القَادِرُ أَنْ يَنْفَعَ وَيَضُرَّ وَالمُتَفَرِّدُ وَحْدَهُ بِذَلِكَ فَعُبِدَ لِكَمَالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ فَهُوَ القَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَالنَّفْعُ وَالضُّرُّ بِيَدِهِ وَلَا يَصِلُ العَجْزُ إِلَيْهِ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وَغَيْرُهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْفَعَ وَأَنْ يَضُرَّ إِلَّا بِأَمْرِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ تَعَالَىٰ؛

١٥٣ - قَالَ -ﷺ-: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**».

قَالَ تَعَالَىٰ مُبَيِّنًا هَذَا الأَصْلَ أَنَّ النَّفْعَ وَالضُّرَّ بِيَدِهِ وَحْدَهُ وَأَنَّ المَعْبُودَاتِ لَا تَمْلِكُهُ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [سورة الفرقان: ٥٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٦٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [سورة الأنعام: ٧١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الحج: ١٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الشعراء: ٧١-٧٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [سورة

الإسراء: ٥٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [سورة طه: ٨٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [سورة يس: ٧٤-٧٥].

وَلْنَقِفْ مَعَ بَعْضِ الآيَاتِ الشَّاهِدَةِ بِالتَّوْحِيدِ وَاسْتِحْقَاقِهِ العِبَادَةَ وَحْدَهُ وَبُطْلَانِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ فَهَلْ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الآلِهَةِ وَالمَعْبُودَاتِ البَاطِلَةِ مَنْ يَرْزُقُكُمْ وَيُنَجِّيكُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَيَكْشِفُ الضُّرَّ وَيَعْصِمُكُمْ وَيَكْلَؤُكُمْ وَيَمْنَعُكُمْ مِنَ اللهِ، وَمَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ فَالمُشْرِكُونَ الذِينَ بُعِثَتْ فِيهِمُ الرُّسُلُ مُقِرُّونَ بِهَذَا الأَصْلِ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّ هَذِهِ الآلِهَةَ لَا تَمْلِكُ لِأَنْفُسِهَا نَفْعًا وَلَا ضَرًّا فَكَيْفَ تَمْلِكُهُ لِغَيْرِهَا وَكَيْفَ يُعْبَدُ شُرَكَاءُ مَعَ اللهِ هَلْ تَخْلُقُ كَمَا يَخْلُقُ اللهُ فَحَصَلَتِ الشُّبْهَةُ لِعُبَّادِهَا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿* قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة سبأ: ٢٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [سورة يونس: ٣١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٦٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ١٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٤٢-٤٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٨٦-٨٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [سورة الرعد: ١٦].

الخَامِسُ: لِكَمَالِ غِنَاهُ وَفَقْرِ كُلِّ مَخْلُوقٍ إِلَيْهِ فَلَا غِنَىٰ لِأَحَدٍ عَنْهُ فَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ وَالصَّمَدُ الكَرِيمُ المَجِيدُ.

السَّادِسُ: لِكَمَالِ رَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ وَلُطْفِهِ بِهِمْ وَلِعِلْمِهِ بِمَا يَحْتَاجُونَهُ وَمَا يَنْفَعُهُمْ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تُوجَدَ هَذِهِ الصِّفَةُ وَلَا مَا سَبَقَهَا مِنَ الصِّفَاتِ فِي أَيِّ مَخْلُوقٍ وَلَا فِي أَيِّ مَعْبُودٍ سِوَىٰ اللهِ أَلَا تَرَاهُ - ﷻ - اسْتَنْكَرَ عَلَىٰ مَنِ اتَّخَذَ الشُّفَعَاءَ عِنْدَهُ وَالوَسَائِطَ المُقَرَّبَةَ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ يَرْحَمُ وَيَقْدِرُ وَيَعْلَمُ بِدُونِهَا وَأَنَّ لَازِمَ اتِّخَاذِهَا أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَا يَعْلَمُ إِلَّا بِهَا وَأَنَّ هَذِهِ الآلِهَةَ المَعْبُودَةَ وَالشُّفَعَاءَ تُنَبِّهُهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ فَقَالَ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة يونس: ١٨]، وَأَخْبَرَ - ﷻ - أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ النَّاقِصَةَ فِي الحَقِيقَةِ مَوْجُودَةٌ فِي هَذِهِ المَعْبُودَاتِ وَالشُّفَعَاءِ البَاطِلَةِ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الزمر: ٤٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [سورة يس: ٢٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة يونس: ١٠٦-١٠٧].

لِذَلِكَ كُلِّهِ اسْتَحَقَّ رَبُّنَا أَنْ يُحَبَّ وَيُجَلَّ وَيُعَظَّمَ وَيُرْجَىٰ وَيُهَابُ وَيُخَافَ مِنْهُ وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَاتُهُ وَهَذَا حَالُهُ وَجَبَ أَنْ يُدْعَىٰ وَحْدَهُ وَيُلْتَجَأَ إِلَيْهِ وَيُتَوَكَّلَ عَلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ - ﷻ - وَاسْتَحَقَّ اللهُ تَعَالَىٰ العِبَادَةَ دُونَ مَا سِوَاهُ وَالإِفْرَادَ بِالأُلُوهِيَّةِ وَالتَّوْحِيدِ، لِأُمُورٍ لَا تُوجَدُ فِي غَيْرِهِ وَمَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ هَذِهِ الصِّفَاتُ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ.

مَسْأَلَةٌ: المَعْبُودُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [سورة فاطر: ٤٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأحقاف: ٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [سورة الحج: ٧٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [سورة الرعد: ١٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [سورة فاطر: ٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [سورة الصافات: ١٢٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [سورة العنكبوت: ٥٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ٥١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة يونس: ٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [سورة الزخرف: ٦٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [سورة الزخرف: ٦٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة هود: ١٢٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [سورة مريم: ٦٥].

كُلُّ هَذِهِ الآيَاتِ يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهَا عِبَادَهُ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لِأَنَّهُ الرَّبُّ الخَالِقُ فَإِنَّ الإِلَهَ الحَقَّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا فَاعِلًا يُوصِلُ إِلَىٰ عَابِدِهِ النَّفْعَ وَيَدْفَعُ عَنْهُ.

١٥٤ - **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٢]: أَيْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ غَيْرَهُ مِنَ الأَنْدَادِ التِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا رَبَّ لَكُمْ يَرْزُقُكُمْ غَيْرَهُ، وَقَدْ عَلِمْتُمُ الذِي يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ الرَّسُولُ مِنْ تَوْحِيدِهِ هُوَ الحَقُّ لَا يُشَكُّ فِيهِ.(١)

١٥٥ - **وَقَالَ قَتَادَةُ:** أَيْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ثُمَّ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا.(٢)

١٥٦ - **قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ:** قَوْلُهُ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ [سورة الزخرف: ٨٧] يَعْنِي: أَهْلَ مَكَّةَ، كُفَّارَهُمْ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [سورة الزخرف: ٩] نَزَلَتْ فِي آخِرِهَا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [سورة الزخرف: ٨٧]، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ -ﷺ- «**مَنْ خَلَقَكُمْ، وَرَزَقَكُمْ، وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ؟**»، فَقَالُوا: اللهُ خَالِقُ الأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَهُوَ خَلَقَنَا، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ -ﷺ-: قُلْ لَهُمْ: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة الزخرف: ٨٧]، يَقُولُ: مِنْ أَيْنَ يُكَذِّبُونَ بِأَنَّهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْتُمْ مُقِرُّونَ أَنَّ اللهَ خَالِقُ الأَشْيَاءِ وَخَلَقَكُمْ، وَلَمْ يُشَارِكْهُ أَحَدٌ فِي مُلْكِهِ فِيمَا خَلَقَ؟! فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ غَيْرَهُ؟!(٣)

١٥٧ - **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:** فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ الذِي خَلَقَهُمَا وَخَلَقَ جَمِيعَ مَا فِيهِمَا وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ، هُوَ المُسْتَحِقُّ عَلَيْهِمُ الطَّاعَةَ، وَالمُسْتَوْجِبُ مِنْهُمُ الشُّكْرَ وَالعِبَادَةَ، دُونَ الأَصْنَامِ وَالأَوْثَانِ التِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ...(٤)

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم -رحمه الله-» (١/ ٦٢).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (١/ ١٦٤).

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (١/ ١٦٤).

(٤) في «تفسيره» (١/ ٣٩٠).

فَنَهَاهُمُ اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ أَنْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ يَعْبُدُوا غَيْرَهُ، أَوْ يَتَّخِذُوا لَهُ نِدًّا أَوْ عِدْلًا فِي الطَّاعَةِ، فَقَالَ: كَمَا لَا شَرِيكَ لِي فِي خَلْقِكُمْ، وَفِي رِزْقِي الذِي أَرْزُقُكُمْ، وَمِلْكِي إِيَّاكُمْ، وَنِعْمَتِي التِي أَنْعَمْتُهَا عَلَيْكُمْ، فَكَذَلِكَ فَأَفْرِدُوا لِي الطَّاعَةَ، وَأَخْلِصُوا لِي العِبَادَةَ، وَلَا تَجْعَلُوا لِي شَرِيكًا وَنِدًّا مِنْ خَلْقِي، فَإِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ عَلَيْكُمْ فَمِنِّي.(١)

فَالرُّبُوبِيَّةُ تَسْتَلْزِمُ الأُلُوهِيَّةَ، بِمَعْنَىٰ أَنَّ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ اللهَ لَهُ الرُّبُوبِيَّةَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ إِذًا لَازِمُ ذَلِكَ هُوَ مُلْزَمٌ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ وَلَا يُشْرِكَ مَعَهُ أَحَدًا فِي العِبَادَةِ، هَذَا مَا يَقْتَضِيهِ العَقْلُ الصَّرِيحُ، كَيْفَ يَخْلُقُكَ اللهُ وَيَرْزُقُكَ اللهُ وَيُحْيِيكَ اللهُ وَيُمِيتُكَ اللهُ ثُمَّ تَتَوَجَّهُ بِالعِبَادَةِ لِغَيْرِهِ؟

هَذَا أَمْرٌ لَا يَتَأَتَّىٰ عِنْدَ أَصْحَابِ العُقُولِ السَّلِيمَةِ الذِينَ تَجَرَّدُوا مِنَ الأَهْوَاءِ، بِمَا أَنَّ اللهَ خَالِقُكَ إِذًا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْبُودَكَ.

١٥٨ - قَالَ -ﷺ-: «**إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ: أَوَّلُهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ اشْتَرَىٰ عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِوَرِقٍ أَوْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي عَمَلَهُ إِلَىٰ غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَسُرُّهُ، أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ، وَإِنَّ اللهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، فَاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**».

فَإِذَا كَانَ اللهُ قَدْ خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا إِذًا يَجِبُ أَنْ نَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

فَمَنْ أَقَرَّ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ فَلَازِمُ ذَلِكَ أَنْ يُذْعِنَ وَيُقِرَّ بِأُلُوهِيَّةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

مَسْأَلَةٌ: حَاجَةُ العَبْدِ لِلْعِبَادَةِ:

كَمَا أَنَّ اللهَ -ﷻ- يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ لِأَجْلِ الكَمَالِ الذِي تَفَرَّدَ بِهِ، لِأَنَّ الكَامِلَ لَا بُدَّ أَنْ يُعْبَدَ وَلَا يُعَطَّلَ عَنِ العِبَادَةِ، فَإِنَّ النَّاقِصَ المُتَجَرِّدَ عَنِ الكَمَالِ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ بَلْ هُوَ فِي حَاجَةٍ لِلْعِبَادَةِ لِتَكْمِيلِ نَقْصِهِ عِنْدَ غَيْرِهِ، وَيَكُونُ بَحْثُهُ بِالالْتِجَاءِ وَالطَّلَبِ وَالإِرَادَةِ وَهَذِهِ هِيَ العِبَادَةُ، وَكُلُّ مَنْ خَلَقَهُ اللهُ فَهُوَ عَبْدُ اللهِ بِالمَعْنَىٰ العَامِّ وَلَوْ كَانَ مُشْرِكًا أَوْ صَنَمًا أَوْ يُدْعَىٰ مِنْ غَيْرِ اللهِ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ اللهِ وَمُضْطَرٌّ لِعِبَادَتِهِ، فَالأُلُوهِيَّةُ التِي هِيَ العُبُودِيَّةُ تَتَعَلَّقُ بِالعَبْدِ فَلَا بُدَّ لِلْمَخْلُوقِ مِنْ أُلُوهِيَّةٍ وَعُبُودِيَّةٍ لِغَيْرِهِ فَهِيَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ التِي لَا تَنْفَكُّ عَنْهُ وَفِعْلٌ مِنْ أَفْعَالِهِ إِذَا قَامَ بِهَا وَتَأَلَّهَ وَتَعَبَّدَ، وَالمَخْلُوقُ فُطِرَ عَلَىٰ العُبُودِيَّةِ لِلهِ، وَهَذَا مُقْتَضَىٰ الفِطْرَةِ وَالأَصْلِ، أَوْ يُعْبَدَ فَلَا بُدَّ لِلْمَخْلُوقِ مِنْ عِبَادَةٍ إِمَّا لِلهِ

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٣٩٠).

وَإِمَّا لِغَيْرِهِ وَهَلْ سُمِّيَ جَمِيعُ الخَلْقِ عَبِيدَ اللهِ إِلَّا لِذَلِكَ، وَهَذَا إِبْلِيسُ أَوَّلُ مَنْ تَرَكَ عِبَادَةَ اللهِ وَالانْقِيَادَ لِأَمْرِهِ فَعَبَدَ غَيْرَهُ وَأَطَاعَ هَوَاهُ وَشَهْوَتَهُ وَصَيَّرَهُ اللهُ خَادِمًا لِفَسَقَةِ بَنِي عَدُوِّهِ آدَمَ وَلِذَلِكَ كَانَتِ العُبُودِيَّةُ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ:

عُبُودِيَّةٌ عَامَّةٌ: يَشْتَرِكُ فِيهَا كُلُّ مَنْ خَلَقَهُ اللهُ.

عُبُودِيَّةٌ خَاصَّةٌ: بِالمُؤْمِنِينَ الذِينَ عَبَدُوا اللهَ وَوَحَّدُوهُ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِهِ.

مَسْأَلَةٌ: أَسْبَابُ العِبَادَةِ الشِّرْكِيَّةِ التِي نَفَاهَا اللهُ:

قَطَعَ اللهُ الأَسْبَابَ التِي يَتَعَلَّقُ بِهَا المُشْرِكُونَ عُبَّادُ الأَوْثَانِ المُلْكُ وَالشَّرَاكَةُ وَالمُظَاهَرَةُ وَالمُعَاوَنَةُ وَالشَّفَاعَةُ، وَقَدْ بَيَّنَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي آيَةِ سَبَأٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة سبأ: ٢٢].

فَالمُشْرِكُ إِمَّا أَنْ يَظُنَّ أَنَّ هُنَاكَ مَالِكًا غَيْرَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- وَأَنَّهُ يُوجَدُ مَنْ يَمْلِكُ شَيْئًا خَارِجًا عَنْ مُلْكِ اللهِ فَيَكُونُ مَالِكًا مَعَ اللهِ.

أَوْ يَظُنَّ أَنَّ اللهَ إِنَّمَا تَمَّتْ قُدْرَتُهُ بِقُدْرَةِ الشَّرِيكِ، فَالكَوْنُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ شَرَاكَةٌ.

أَوْ يَظُنَّ أَنَّ اللهَ يَحْتَاجُ لِمَنْ يُدَبِّرُ أَمْرَ العَالَمِ مَعَهُ مِنْ وَزِيرٍ أَوْ ظَهِيرٍ أَوْ مُعِينٍ.

وَإِمَّا أَنْ يَظُنَّ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ حَتَّىٰ يُعْلِمَهُ الوَاسِطَةُ، وَلَا يَرْحَمُ حَتَّىٰ يَسْتَرْحِمَ هَمَّهُ الشَّافِعُ وَالوَاسِطَةُ وَكَذَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَكْفِي وَحْدَهُ.

أَوْ يَظُنَّ أَنَّ لِأَحَدٍ حَقًّا عَلَيْهِ فَيُقْسِمَ عَلَيْهِ بِحَقِّ ذَلِكَ المَخْلُوقِ وَيَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِهِ.

وَكُلُّ هَذِهِ الأُمُورِ فِيهَا تَنَقُّصٌ لِلرُّبُوبِيَّةِ وَهَضْمٌ لِحَقِّهَا.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا نَقْصُ مَحَبَّةِ اللهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالإِنَابَةِ إِلَيْهِ مِنْ قَلْبِ المُشْرِكِ بِسَبَبِ قِسْمَةِ ذَلِكَ بَيْنَهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- وَبَيْنَ مَنْ أَشْرَكَ بِهِ فَيَضْعُفُ أَوْ يَضْمَحِلُّ ذَلِكَ التَّعْظِيمُ وَالمَحَبَّةُ.

فَالشِّرْكُ مَلْزُومُ تَنْقِيصِ الرَّبِّ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- وَالتَّنْقِيصُ سِمَةُ كُلِّ مُشْرِكٍ.

وَقَدْ قَطَعَ اللهُ الأَسْبَابَ التِي يَتَعَلَّقُ بِهَا المُشْرِكُونَ جَمِيعَهَا فَالمُشْرِكُ إِنَّمَا يَتَّخِذُ مَعْبُودَهُ لِمَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ النَّفْعِ، وَالنَّفْعُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِمَّنْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ هَذِهِ الأَرْبَعِ إِمَّا مَالِكًا لِمَا يُرِيدُهُ عَابِدُهُ

مِنْهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَالِكًا كَانَ شَرِيكًا لِلْمَالِكِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَرِيكًا لِلْمَالِكِ كَانَ مُعِينًا لَهُ وَظَهِيرًا فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُعِينًا وَلَا ظَهِيرًا كَانَ شَفِيعًا عِنْدَهُ، فَنَفَىٰ -ﷻ- المَرَاتِبَ الأَرْبَعَ نَفْيًا مُرَتَّبًا مُتَنَقِّلًا مِنَ الأَعْلَىٰ إِلَىٰ الأَدْنَىٰ، فَنَفَىٰ المُلْكَ وَالشَّرِكَةَ وَالمُظَاهَرَةَ وَالشَّفَاعَةَ التِي يَطْلُبُهَا المُشْرِكُ وَأَثْبَتَ شَفَاعَةً لَا نَصِيبَ فِيهَا لِمُشْرِكٍ، وَهِيَ الشَّفَاعَةُ بِإِذْنِهِ فَكَفَىٰ بِهَذِهِ الآيَةِ نُورًا وَبُرْهَانًا وَتَجْرِيدًا لِلتَّوْحِيدِ وَقَطْعًا لِأُصُولِ الشِّرْكِ وَمَوَادِّهِ لِمَنْ عَقَلَهَا، وَالقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ أَمْثَالِهَا وَنَظَائِرِهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْعُرُ.

تَعْرِيفُ العِبَادَةِ: كُلُّ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، أَوْ فِعْلُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ امْتِثَالًا وَتَرْكُ مَا نَهَىٰ عَنْهُ عَلَىٰ وَجْهِ الطَّاعَةِ وَالامْتِثَالِ.

ضَابِطُ العِبَادَةِ مَا جَمَعَ هَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ:

أَوَّلًا: أَنْ يَكُونَ مَحْبُوبًا لِلهِ.

ثَانِيًا: أَنْ يَكُونَ رَضِيَهُ، يَعْنِي: شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ.

أَيُّ شَيْءٍ تَوَفَّرَتْ فِيهِ هَذَانِ الأَمْرَانِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ عِبَادَةٌ.

فَإِذَا ثَبَتَ فِي شَيْءٍ أَنَّهُ عِبَادَةٌ فَمَا الذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ؟

الذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أَمْرَانِ؟

الأَمْرُ الأَوَّلُ: أَنْ يَتَوَجَّهَ بِالعِبَادَةِ لِلهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَوَجَّهَ بِذَلِكَ لِغَيْرِهِ.

الأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّهُ مَتَىٰ مَا صُرِفَتْ هَذِهِ العِبَادَةُ، يَعْنِي: تُوُجِّهَ بِهَا لِغَيْرِ اللهِ فَإِنَّ هَذَا الإِنْسَانَ يَكُونُ قَدْ وَقَعَ فِي وَسَطِ الشِّرْكِ.

نَسْتَفِيدُ مِنْ هَذَا فَائِدَةً وَهِيَ أَنَّ ثُبُوتَ كَوْنِ الفِعْلِ أَوِ القَوْلِ أَوِ الاعْتِقَادِ عِبَادَةً كَافٍ فِي الدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ التَّوَجُّهَ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ، بِمَعْنَىٰ لَوْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: هَاتِ الدَّلِيلَ عَلَىٰ أَنَّ السُّجُودَ لِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ؟

لَوْ سَجَدَ الإِنْسَانُ لِصَنَمٍ أَوْ سَجَدَ لِحَجَرٍ أَوْ سَجَدَ لِلشَّمْسِ، فَإِنَّهُ مُشْرِكٌ.

يُقَالُ: يَكْفِي أَنْ يَثْبُتَ عِنْدَنَا أَنَّ السُّجُودَ عِبَادَةٌ-تِلْقَائِيًّا سَنَفْهَمُ وَنُدْرِكُ أَنَّ التَّوَجُّهَ بِهَا لِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ.

إِذًا: الدَّلِيلُ عَلَىٰ الأَفْعَالِ أَوِ الأَقْوَالِ أَوِ الاعْتِقَادَاتِ الشِّرْكِيَّةِ قَدْ يَكُونُ عَلَىٰ وَجْهَيْنِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أَنْ يَأْتِيَ دَلِيلٌ صَرِيحٌ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا الفِعْلَ شِرْكٌ، كَدُعَاءِ غَيْرِ اللهِ.

الوَجْهُ الثَّانِي: بِمُجَرَّدِ إِثْبَاتِ أَنَّ هَذَا الفِعْلَ عِبَادَةٌ، هَذَا كَافٍ فِي الدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ التَّوَجُّهَ بِهَذَا لِغَيْرِ اللهِ يُعْتَبَرُ شِرْكًا.

أَقْسَامُ العِبَادَاتِ:

مِنْهَا القَلْبِيَّةُ وَالقَوْلِيَّةُ وَالعَمَلِيَّةُ، وَمِنْهَا الفِعْلِيَّةُ وَالتَّرْكِيَّةُ، وَمِنْهَا البَدَنِيَّةُ وَالمَالِيَّةُ.

وَمِنْهَا المَشْرُوعَةُ وَهِيَ المُوَافِقَةُ لِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- وَهَدْيِهِ.

وَمِنْهَا المُبْتَدَعَةُ وَهِيَ التِي لَمْ يَأْمُرِ اللهُ -ﷻ- بِهَا أَوْ جَاءَ الأَمْرُ بِخِلَافِهَا.

وَمِنْهَا الشِّرْكِيَّةُ: هِيَ التِي يُعْبَدُ بِهَا غَيْرُ اللهِ.

مِثَالُ العِبَادَاتِ القَوْلِيَّةِ: كَالدُّعَاءِ وَالتَّوَسُّلِ وَالاسْتِغَاثَةِ وَطَلَبِ الشَّفَاعَةِ وَالمَدْحِ وَالشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ وَالحَمْدِ وَالتَّمْجِيدِ وَالتَّعْظِيمِ وَالذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ.

وَالعِبَادَاتُ البَدَنِيَّةُ التَّقَرُّبُ بِالأَعْمَالِ وَالتَّنَسُّكُ بِالجَوَارِحِ: الصَّلَاةُ وَالقِيَامُ وَالرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ وَالاعْتِكَافُ وَالمُجَاوَرَةُ وَالحَجُّ وَالطَّوَافُ وَالذَّبْحُ وَالنَّذْرُ وَالصِّيَامُ وَالتَّقْبِيلُ وَالتَّمَسُّحُ وَالتَّبَرُّكُ وَتَجْرِيدُ اللِّبَاسِ وَحَلْقُ الشَّعْرِ.

العِبَادَاتُ القَلْبِيَّةُ: الإِخْلَاصُ وَالنِّيَّةُ وَالإِرَادَةُ وَالمَحَبَّةُ وَالخَوْفُ وَالرَّجَاءُ وَالتَّوَكُّلُ وَالتَّوْبَةُ وَالإِنَابَةُ وَاللُّجُوءُ وَالخُضُوعُ وَالتَّعْظِيمُ.

شُرُوطُ صِحَّةِ العِبَادَةِ:

○ **الإِخْلَاصُ لِلهِ تَعَالَىٰ:** وَالتَّوْحِيدُ وَهَذَا مُقْتَضَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [سورة البينة: ٥]، وَلَا تُقْبَلُ العِبَادَةُ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ.

○ **المُتَابَعَةُ لِرَسُولِ اللهِ -ﷺ-:** وَهَذَا مُقْتَضَىٰ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾ [سورة الحشر: ٧].

وَدَلِيلُ الشَّرْطَيْنِ: ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [سورة الكهف: ١١٠].

١٥٩ - **قَالَ الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ -رحمه الله- فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [سورة الملك: ٢]، قَالَ: أَخْلَصَهُ وَأَصْوَبَهُ.

قَالَ: إِنَّ العَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ،

وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّىٰ يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا،

وَالخَالِصُ: إِذَا كَانَ لِلهِ، وَالصَّوَابُ: إِذَا كَانَ عَلَىٰ السُّنَّةِ.[١]

مَفَاسِدُ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ تَعَالَىٰ:

- أَنَّ فِيهَا الْتِجَاءً وَتَوَجُّهًا وَافْتِقَارًا لِغَيْرِ اللهِ.
- أَنَّ فِيهَا إِهَانَةَ العَبْدِ لِنَفْسِهِ حِينَ يَتْرُكُ عِبَادَةَ اللهِ إِلَىٰ عِبَادَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ.
- تَضْيِيعٌ لِمَعْنَىٰ العُبُودِيَّةِ لِلهِ التِي هِيَ أَشْرَفُ صِفَاتِ العَبْدِ وَأَعْلَىٰ مَقَامَاتِهِ.
- أَنَّ فِيهَا هَضْمًا لِحَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ وَإِبْطَالًا لِمُقْتَضَيَاتِهَا وَتَرْكَ تَعْظِيمِ الرَّبِّ وَتَقْدِيرِهِ.
- نِسْبَةُ الأُلُوهِيَّةِ لِلْمَخْلُوقِ وَوَصْفُهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالكَمَالِ وَاسْتِحْقَاقِ العِبَادَةِ.
- تَنَقُّصُ جَنَابِ الرُّبُوبِيَّةِ وَذَلِكَ بِتَرْكِ عِبَادَتِهِ لِأَنَّ غَيْرَهُ أَنْفَعُ وَأَقْدَرُ وَأَجْوَبُ.
- أَنَّ فِيهَا إِسَاءَةَ الظَّنِّ بِاللهِ وَعَدَمَ تَقْدِيرِهِ.
- أَنَّ فِيهَا تَشْبِيهَ الخَالِقِ بِالمَخْلُوقِ وَذَلِكَ بِاعْتِقَادِ أَنَّهُ مُحْتَاجٌ لِوَاسِطَةٍ تَشْفَعُ عِنْدَهُ، كَمَا أَنَّ فِيهَا تَشْبِيهَ المَخْلُوقِ بِالخَالِقِ وَذَلِكَ بِإِعْطَائِهِ صِفَةَ الأُلُوهِيَّةِ وَأَنَّهُ يُدْعَىٰ.
- أَنَّ دُعَاءَ غَيْرِ اللهِ مِنَ الشِّرْكِ المُخْرِجِ مِنَ الإِسْلَامِ وَالكُفْرِ البَوَاحِ.
- تَفْوِيتُ الخَيْرِ مِنَ اللهِ وَالثَّوَابِ وَإِجَابَةِ المَطْلُوبِ.
- خُسْرَانُ رِضَا اللهِ تَعَالَىٰ وَالجَنَّةِ وَإِيجَابُ سَخَطِهِ وَالنَّارِ.

الطَّاغُوتُ وَصِفَةُ الكُفْرِ بِهِ

سَبَقَ تَوْضِيحُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ جُمْلَةٌ مُكَوَّنَةٌ مِنْ جُزْئَيْنِ: يُطْلِقُ عَلَيْهِمَا أَهْلُ العِلْمِ: الرُّكْنَيْنِ: وَهُمَا النَّفْيُ وَالإِثْبَاتُ فَـ(لَا إِلَهَ): نَفْيٌ وَ(إِلَّا اللهُ): إِثْبَاتٌ.

وَيَعْنِي ذَلِكَ: نَفْيُ العُبُودِيَّةِ عَمَّا سِوَىٰ اللهِ وَإِثْبَاتُهَا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَهَذَا النَّفْيُ وَالإِثْبَاتُ هُوَ حَقِيقَةُ الكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ.

١٦٠- **قَالَ الطَّبَرِيُّ:** ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ﴾ [سورة هود: ١٤] يَقُولُ: وَأَيْقِنُوا أَيْضًا أَنْ لَا مَعْبُودَ يَسْتَحِقُّ الأُلُوهَةَ عَلَىٰ الخَلْقِ إِلَّا اللهُ الذِي لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ، فَاخْلَعُوا الأَنْدَادَ وَالآلِهَةَ، وَأَفْرِدُوا لَهُ العِبَادَةَ.[٢]

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية -موسوعة الإمام ابن أبي الدنيا (١/ ١٧٧) (٢٢).

(٢) في «تفسيره» (١٢/ ٣٤٥).

الطَّاغُوتُ هُوَ: (كُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ -ﷻ- **بِالعِبَادَاتِ البَاطِنَةِ أَوِ الظَّاهِرَةِ أَوِ النُّسُكِ أَوِ التَّشْرِيعِ وَهُوَ رَاضٍ**).

فَتَلَخَّصَ مَعَنَا مِنْ هَذَا التَّعْرِيفِ أَنَّ الطَّاغُوتَ نَوْعَانِ مِنْ حَيْثُ الأَصْلِ:

- طَاغُوتُ عِبَادَةٍ.

- وَطَاغُوتُ طَاعَةٍ وَاتِّبَاعٍ-بِالتَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ.

قَالَ اللهُ -ﷻ-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [سورة النحل: ٣٥].

فَقَوْلُ اللهِ -ﷻ-: ﴿ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ أَيِ العَابِدِينَ لِغَيْرِ اللهِ.

﴿مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ [سورة النحل: ٣٥] هَذَا مَعْنَىٰ طَاغُوتِ العِبَادَةِ.

﴿وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ [سورة النحل: ٣٥] هَذَا مَعْنَىٰ طَاغُوتِ الطَّاعَةِ وَالاتِّبَاعِ وَالتَّشْرِيعِ.

وَالطَّاغُوتُ الذِي يُعْبَدُ بِالنُّسُكِ وَالعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ كَالقُبُورِ وَالأَصْنَامِ وَالصُّلْبَانِ المَعْبُودَةِ مِنْ دُونِ اللهِ.

وَالطَّاغُوتُ الذِي يُعْبَدُ بِالتَّشْرِيعِ هُوَ الذِي يُشَرِّعُ لِلنَّاسِ أَحْكَامًا كُفْرِيَّةً مُنَاقِضَةً لِشَرْعِ اللهِ -ﷻ- وَيَجْعَلُ لِنَفْسِهِ حَقَّ التَّشْرِيعِ.

صِفَةُ الكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ التِي لَا يَتَحَقَّقُ الرُّكْنُ الأَوَّلُ وَهُوَ الكُفْرُ بِالطَّاغُوتِ إِلَّا بِتَحْقِيقِهَا:

١) **اجْتِنَابُ عِبَادَتِهِ وَتَرْكُهَا،** قَالَ اللهُ -ﷻ-: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [سورة النحل: ٣٦].

وَقَالَ -ﷻ-: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ [سورة الزمر: ١٧]،

أَيْ: لَهُمُ البُشْرَىٰ فِي الدُّنْيَا بِالجَنَّةِ فِي الآخِرَةِ، فَمَنْ لَمْ يُحَقِّقْ اجْتِنَابَ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ فَلَا بُشْرَىٰ لَهُ بِالجَنَّةِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ.

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الآيَتَيْنِ: أَنَّ الآيَتَيْنِ فِيهِمَا مَعْنَىٰ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ الذِي أَتَتْ بِهِ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ، فَأَثْبَتَ اللهُ -ﷻ- التَّوْحِيدَ لِمَنْ عَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ وَاجْتَنَبَ عِبَادَةَ مَا سِوَاهُ.

وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [سورة النساء: ٣٦].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: ٢٣].

٢) اعْتِقَادُ بُطْلَانِ عِبَادَةِ كُلِّ مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ:

-مِنْ صَلِيبٍ أَوْ قَبْرٍ أَوْ وَثَنٍ بِكُلِّ العِبَادَاتِ البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ.

-وَمِنْ طَاغُوتٍ مُشَرِّعٍ عُبِدَ بِالتَّحَاكُمِ أَوْ عَالِمِ سُوءٍ كَافِرٍ مُتَّبَعٍ.

قَالَ اللهُ -ﷻ-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سورة الحج: ٦٢].

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الآيَةِ: أَنَّهَا فِيهَا مَعْنَىٰ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ الذِي أَتَتْ بِهِ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ حَيْثُ أَثْبَتَ اللهُ أَنَّ عِبَادَتَهُ هِيَ الحَقُّ وَأَثْبَتَ أَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِهِ هِيَ البَاطِلُ، فَأَثْبَتَ -ﷻ- اسْتِحْقَاقَهُ لِلْعِبَادَةِ وَنَفَىٰ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِهِ.

٣) بُغْضُ الطَّاغُوتِ وَعُبَّادِهِ وَعَدَاوَتُهُمْ، وَإِنَّمَا قَرَنَّا البُغْضَ بِالعَدَاوَةِ لِأَنَّ أَصْلَ العَدَاوَةِ مَوْجُودٌ فِي القَلْبِ وَهُوَ البُغْضُ، وَإِظْهَارُ العَدَاوَةِ مِنْ تَكْفِيرٍ لِلْمُشْرِكِينَ وَتَسْفِيهِهِمْ لَيْسَ مِنْ أَصْلِ الكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ كَمَالِ الكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ.

قَالَ اللهُ -ﷻ-: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾ [سورة الشعراء: ٧٥-٧٧].

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الآيَةِ: أَنَّ الآيَةَ فِيهَا مَعْنَىٰ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ الذِي أَتَتْ بِهِ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ، فَأَثْبَتَ إِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ وَعَلَىٰ نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمِ- عَدَاوَتَهُ لِمَعْبُودَاتِ الكُفَّارِ وَنَفَىٰ أَنْ يَكُونَ اللهُ -ﷻ- عَدُوًّا لَهُ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [سورة المجادلة: ٢٢].

فَأَخْبَرَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- أَنَّهُ لَا يُوجَدُ قَوْمٌ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَمَعَ ذَلِكَ يُحِبُّونَ المُشْرِكِينَ وَيُوَادُّونَهُمْ، فَمَنْ أَحَبَّ المُشْرِكِينَ فَمَحَبَّتُهُ إِيَّاهُمْ دَلِيلٌ عَلَىٰ انْتِفَاءِ إِيمَانِهِ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ كَمَا هُوَ صَرِيحُ الآيَةِ.

وَمَنْ عَادَىٰ المُسْلِمِينَ مِنْ أَجْلِ دِينِهِمْ فَقَدْ عَادَىٰ اللهَ -ﷻ- لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [سورة طه: ٣٩].

١٦١ - وَفِي الحَدِيثِ الإِلَهِيِّ الذِي رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ

اللهِ -ﷺ-: «مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ».[1]

فَمَنْ حَقَّقَ الإِيمَانَ الوَاجِبَ الذِي أَوْجَبَهُ اللهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ لَا يَكُونُ مِنْهُ مُوَالَاةٌ وَمَحَبَّةُ أَعْدَاءِ اللهِ، إِنَّمَا يَكُونُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُحِبَّ اللهَ، وَأَنْ يُحِبَّ مَا يُحِبُّ اللهُ، وَأَنْ يُحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ اللهُ، وَأَنْ لَا تَكُونَ مَحَبَّتُهُ إِلَّا فِي حُدُودِ مَا أَذِنَ اللهُ، هَذَا الذِي يَقْتَضِيهِ الإِيمَانُ الوَاجِبُ، الإِيمَانَ بِاللهِ لَهُ لَوَازِمُ، وَمِنْ لَوَازِمِ هَذَا الإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ الإِنْسَانُ مَا يُحِبُّهُ مَحْبُوبُهُ، فَإِنَّ الوَاجِبَ أَنْ يَكُونَ اللهُ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ أَحَبَّ حَبِيبٍ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، لَا يَجُوزُ بِحَالٍ أَنْ يُشْرِكَ مَعَ اللهِ فِي هَذِهِ المَحَبَّةِ العُظْمَىٰ التِي يَجِبُ أَنْ يَنْطَوِي عَلَيْهَا قَلْبُ كُلِّ مُسْلِمٍ، فَإِذَا بَلَغَتِ المَحَبَّةُ هَذَا القَدْرَ الوَاجِبَ فَإِنَّ مِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ أَنْ يحب الإنسان مَا يُحِبُّهُ اللهُ، وَأَنْ يُبْغِضَ مَا يُبْغِضُهُ اللهُ.

وَالذِينَ أَشْرَكُوا مَعَ اللهِ، وَالذِينَ مَا أَتَوْا بِحَقِّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَالذِينَ هُمْ أَعْدَاءُ اللهِ لَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ بِحَالٍ أَنْ يُحِبَّهُمْ، كَيْفَ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ مَحَبَّةِ اللهِ وَمَحَبَّةِ أَعْدَائِهِ؟

لَا يَكُونُ هَذَا إِلَّا لِنَقْصٍ فِي الإِيمَانِ وَنَقْصٍ فِي المَحَبَّةِ، هَؤُلَاءِ الذِينَ أَشْرَكُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ أَعْدَاءُ اللهِ، اتَّخَذَهُمُ اللهُ أَعْدَاءً لَهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾ [سورة الممتحنة: ١].

يَقُولُ اللهُ -ﷻ-: هَؤُلَاءِ أَعْدَائِي، فَكَيْفَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالمَوَدَّةِ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِي وَيَكْفُرُونَ بِنَبِيِّكُمْ؟

هَذَا الذِي أَشْرَكَ مَعَ اللهِ مَا آمَنَ بِالنَّبِيِّ، إِذْ لَوْ آمَنَ بِهِ لَالْتَزَمَ شَرْعَهُ، وَأَهَمُّ مَا جَاءَ فِي شَرْعِهِ تَوْحِيدُ اللهِ، فَهَذَا المُشْرِكُ عَدُوُّ اللهِ وَعَدُوٌّ لِرَسُولِهِ، فَكَيْفَ يُحِبُّهُ المُسْلِمُ مَعَ مَا هُوَ عَلَيْهِ؟

١٦٢- **وَقَالَ النَّبِيُّ** -ﷺ-: «أَوْثَقُ عُرَىٰ الإِيمَانِ الحُبُّ فِي اللهِ وَالبُغْضُ فِي اللهِ»، وَأَوْلَىٰ مَنْ يُبْغَضُ فِي اللهِ: أُولَئِكَ الذِينَ أَشْرَكُوا مَعَ اللهِ.

إِذًا: هَذَا مِنَ الأَمْرِ الوَاجِبِ المُتَعَيِّنِ عَلَىٰ المُسْلِمِ وَهُوَ البَرَاءَةُ مِنَ المُشْرِكِينَ، كَمَا أَنَّ الإِنْسَانَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَبْرَأَ مِنَ الشِّرْكِ، عَلَيْهِ أَيْضًا أَنْ يَبْرَأَ مِنَ المُشْرِكِينَ، وَأَمَّا إِذَا وَقَعَ فِي ضِدِّ ذَلِكَ فَإِنَّهُ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢).

يَكُونُ قَدْ وَقَعَ فِي مُوَالَاةِ المُشْرِكِينَ، وَهَذَا أَمْرٌ حَرَّمَهُ اللهُ، وَهُوَ دَرَجَاتٌ قَدْ يَصِلُ إِلَىٰ حَدِّ الكُفْرِ بِاللهِ، قَدْ يَكُونُ كُفْرًا أَكْبَرًا، وَقَدْ يَكُونُ مَعْصِيَةً وَكَبِيرَةً مِنَ الكَبَائِرِ.

إِذَا كَانَتِ المُوَالَاةُ مُوَالَاةً تَامَّةً فَهَذَا كُفْرٌ دُونَ شَكٍّ، وَأَصْلُ المُوَالَاةِ المَحَبَّةُ ثُمَّ لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ ثَمَرَاتٌ، كَالمُعَاوَنَةِ وَالنُّصْرَةِ وَالمُصَادَقَةِ وَالتَّشَبُّهِ وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ.

فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ المُوَالَاةُ مُوَالَاةً تَامَّةً كَانَ هَذَا كُفْرًا بِاللهِ.

وَمِنْ تِلْكَ المُوَالَاةِ الكُفْرِيَّةِ أَيْضًا المَسَرَّةُ بِارْتِفَاعِ دِينِ الكُفَّارِ وَالمَسَرَّةُ بِانْخِفَاضِ دِينِ الإِسْلَامِ.

وَمِنْ هَذِهِ المُوَالَاةِ التَّامَّةِ أَيْضًا: مَحَبَّةُ الكَافِرِ لِأَجْلِ كُفْرِهِ، لَوْ أَحَبَّ إِنْسَانٌ كَافِرًا؛ لِأَنَّهُ مُلْتَزِمٌ بِدِينِهِ البَاطِلِ، لِأَنَّهُ يَسْجُدُ لِلْأَصْنَامِ، فَهَذَا وَالعِيَاذُ بِاللهِ مِنَ المُوَالَاةِ الكُفْرِيَّةِ.

وَمِنَ المُوَالَاةِ مَا يَكُونُ دُونَ ذَلِكَ، وَمِنْ ذَلِكَ مَحَبَّةُ الكُفَّارِ وَالمُشْرِكِينَ لِأَمْرٍ دُنْيَوِيٍّ.

فَهَذَا لَا يَصِلُ إِلَىٰ حَدِّ الكُفْرِ، لَكِنَّهُ أَمْرٌ مُحَرَّمٌ وَلَا يَجُوزُ.

وَمِنْ فُرُوعِ المُوَالَاةِ كَمَا ذَكَرَ أَهْلُ العِلْمِ أَيْضًا مُشَابَهَةُ المُشْرِكِينَ فِي الهَيْئَاتِ وَالعَادَاتِ، فِي الأَلْبِسَةِ وَفِي الكَلَامِ وَفِيمَا شَاكَلَ ذَلِكَ، كَيْفَ لَا يَكُونُ ذَلِكَ مَمْنُوعًا وَالنَّبِيُّ يَقُولُ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**».

وَإِنَّهُ لَمِمَّا يُؤْسَفُ لَهُ انْتِشَارُ هَذَا الأَمْرِ المُحَرَّمِ وَهُوَ التَّشَبُّهُ بِالكُفَّارِ، بَلْ إِنَّ ذَلِكَ مَعَ الأَسَفِ الشَّدِيدِ-أَخَذَ صِبْغَةَ التَّرَقِّي وَالحَضَارَةِ وَالتَّطَوُّرِ، كُلَّمَا كَانَ أَحَدُهُمْ أَكْثَرَ مُشَابَهَةً لِلْكُفَّارِ كُلَّمَا زَعَمَ أَنَّهُ أَكْثَرُ تَطَوُّرًا وَانْفِتَاحًا، وَاللهُ المُسْتَعَانُ.

وَلَمْ يَذْكُرِ القُرْآنُ عَنْ مُوسَىٰ -عليه السلام- غَضَبًا أَشَدَّ مِنْ غَضَبِهِ عِنْدَمَا وَقَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الشِّرْكِ مَعَ أَنَّهُمْ فِي بَعْضِ الذُّنُوبِ وَتَرْكِ الجِهَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُغْضِبْهُ عَلَيْهِمْ كَغَضَبِهِ يَوْمَ رَآهُمْ قَدْ وَقَعُوا فِي الشِّرْكِ بِاللهِ فَمَدَارُ الوَلَاءِ وَالبَرَاءِ وَالحُبِّ وَالبُغْضِ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ فَلَا يَسْلَمُ تَوْحِيدُ العَبْدِ إِلَّا بِسَلَامَةِ الوَلَاءِ وَالبَرَاءِ.

٤) **البَرَاءَةُ مِنَ الطَّاغُوتِ وَعُبَّادِهِ،** قَالَ اللهُ -عز وجل-: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الممتحنة: ٤].

فَحَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ أَيُّهَا المُسْلِمُ قَائِمَةٌ عَلَى البَرَاءِ وَالوَلَاءِ، البَرَاءَةُ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ وَالوَلَاءُ لِلهِ،

كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧﴾ [سورة الزخرف: ٢٦-٢٧]، وَقَالَ أَيْضًا: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾ [سورة الأنعام: ٧٨-٧٩]، فَيَجِبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يَتَجَرَّدَ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَىٰ العَزِيزِ الحَكِيمِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- وَيُفْرِدَهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- بِالعِبَادَةِ فَالتَّجْرِيدُ نَفْيٌ وَالتَّفْرِيدُ إِثْبَاتٌ وَمَجْمُوعُهُمَا التَّوْحِيدُ وَهَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ الْمُنْجِي الذِي تُنَالُ بِهِ السَّعَادَةُ.

١٦٣- **عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ البَجَلِيِّ، قَالَ:** قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اشْتَرِطْ عَلَيَّ، فَقَالَ: «**تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُصَلِّيَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَنْصَحَ لِلْمُسْلِمِ، وَتَبْرَأَ مِنَ الكَافِرِ**».(١)

وَفِي رِوَايَاتٍ عِنْدَ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ: (وَعَلَىٰ فِرَاقِ الْمُشْرِكِ) وَ (وَيُفَارِقَ الْمُشْرِكَ).

وَبَوَّبَ لَهُ النَّسَائِيُّ بِقَوْلِهِ: (الْبَيْعَةُ عَلَىٰ فِرَاقِ الْمُشْرِكِ).

٥) **تَكْفِيرُ الْمُشْرِكِينَ وَنَفْيُ التَّوْحِيدِ عَنْهُمْ،** قَالَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ [سورة غافر: ٨٤].

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الآيَةِ أَنَّ اللهَ -جَلَّ وَعَلَا- إِذَا ذَكَرَ الإِثْبَاتَ وَالنَّفْيَ فِي القُرْآنِ جَعَلَ مَا يُقَابِلُ الإِيمَانَ بِهِ هُوَ الكُفْرُ بِالطَّاغُوتِ، وَفِي هَذَا الْمَوْضِعِ جَعَلَ مَا يُقَابِلُ الإِيمَانَ بِهِ تَكْفِيرَ الْمُشْرِكِينَ (شَهَادَةُ هَؤُلَاءِ الكُفَّارِ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالشِّرْكِ)، ((**وَالقَاعِدَةُ أَنَّ الكُلَّ إِذَا عُبِّرَ عَنْهُ بِالجُزْءِ كَانَ ذَلِكَ الجُزْءُ أَصْلًا وَرُكْنًا لَا يَصِحُّ ذَلِكَ الكُلُّ إِلَّا بِهِ**)) كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [سورة البقرة: ١٤٣]، **جَاءَ فِي تَفْسِيرِهَا:** صَلَاتُكُمْ إِلَىٰ بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

وَاحْتَجَّ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَىٰ الْمُرْجِئَةِ بِهَذِهِ الآيَةِ عَلَىٰ كَوْنِ الصَّلَاةِ مِنَ الإِيمَانِ، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يُصَلِّ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ سَمَّىٰ الصَّلَاةَ إِيمَانًا.

فَدَلَّتِ الآيَةُ (التِي فِي سُورَةِ غَافِرٍ) عَلَىٰ أَنَّ الكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ لَا يَصِحُّ إِلَّا بِتَكْفِيرِ الْمُشْرِكِينَ إِذْ جَعَلَ شَهَادَتَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالشِّرْكِ مُقَابِلَةً لِلْإِيمَانِ بِهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- وَبِحَمْدِهِ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَهَا: ﴿فَلَمْ يَكُ

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣١/ ٤٩١ ط الرسالة).

يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة غافر: ٨٥].

فَسَمَّىٰ اللهُ دَعْوَاهُمُ الإِيمَانَ بِهِ وَشَهَادَتَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالشِّرْكِ إِيمَانًا.

فَمَنْ جَعَلَ المُشْرِكِينَ العَابِدِينَ لِغَيْرِ اللهِ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ فَقَدِ انْتَقَضَ عِنْدَهُ أَصْلُ التَّوْحِيدِ وَهُوَ كَاذِبٌ فِي قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، لِأَنَّ كَلِمَةَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِنْ مَعَانِيهَا وَمَا يُفْهَمُ مِنْهَا أَنَّ مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللهِ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الكَلِمَةِ.

وَيَجْمَعُ البَرَاءَةَ مِنَ المُشْرِكِينَ وَتَكْفِيرَهُمْ وَبُغْضَهُمْ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ۚ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [سورة الممتحنة: ٤].

فَهَذِهِ الآيَةُ تَضَمَّنَتِ النَّفْيَ وَالإِثْبَاتَ، فَالنَّفْيُ فِي قَوْلِهِ:

﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ [سورة الممتحنة: ٤] وَالإِثْبَاتُ فِي قَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [سورة الممتحنة: ٤]

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ نَبِيٌّ إِلَّا بِتَكْفِيرِ المُشْرِكِينَ.

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ لَمْ يَتَعَبَّدْنَا بِتَكْفِيرِ المُرْتَدِّينَ وَلَمْ يَسْأَلْنَا عَنْ تَكْفِيرِ مَنْ وَقَعَ بِالشِّرْكِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَىٰ اللهِ الفِرْيَةَ.(١)

وَاعْلَمْ أَنَّ أَصْلَ الكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالبَرَاءَةِ مِنَ المُشْرِكِينَ وَتَكْفِيرِهِمْ، وَهَذَا قَدْ قُدِّمَ فِي القُرْآنِ عَلَىٰ الطَّاغُوتِ نَفْسِهِ، فَقَالَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الممتحنة: ٤].

فَقَدَّمَ البَرَاءَةَ مِنَ المُشْرِكِينَ عَلَىٰ البَرَاءَةِ مِنْ مَعْبُودَاتِهِمْ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [سورة الكهف: ١٦].

فَقَدَّمَ أَيْضًا اعْتِزَالَ العَابِدِينَ عَلَىٰ اعْتِزَالِ المَعْبُودِينَ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة مريم: ٤٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة مريم: ٤٩].

---

(١) الدرر السنية ٢ / ١٢٠.

فَقَدَّمَ فِي الآيَتَيْنِ اعْتِزَالَ المُشْرِكِينَ عَلَىٰ اعْتِزَالِ طَوَاغِيتِهِمْ.

وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا:

- **الشَّيْطَانُ؛** قَالَهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ -رضي الله عنه-.
- **الطَّاغُوتُ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ الأَصْنَامِ، يَعْبُرُونَ عَنْهَا الْكَذِبَ لِيُضِلُّوا النَّاسَ؛** قَالَهُ ابْنُ عَبَّاس -رضي الله عنهما- وَكَذَلِكَ قَالَهُ الآجُرِّيُّ كَمَا فِي فَرْضِ طَلَبِ العِلْمِ.
- **السَّاحِرُ،** قَالَهُ الشَّعْبِيُّ -رحمه الله-.
- **الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ الإِنْسَانِ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ صَاحِبُ أَمْرِهِمْ؛** قَالَهُ مُجَاهِدُ بْنُ جَبْرٍ -رحمه الله-.
- **مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ؛** قَالَهُ مَالِكٌ -رحمه الله-.

وَالشَّيْطَانُ هُوَ رَأْسُهُمْ لِأَنَّهُ هُوَ أَوَّلُ مَنْ دَعَا لِعِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ -عز وجل-، وَكُلُّ مُشْرِكٍ فَهُوَ عَابِدٌ لِلشَّيْطَانِ بِالطَّاعَةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠﴾ [سورة يس: ٦٠].

وَالكُفْرُ بِالطَّاغُوتِ المَعْبُودِ مِنْ دُونِ اللهِ -عز وجل- بِالعِبَادَةِ مِنْ ذَبْحٍ وَنَذْرٍ وَطَوَافٍ وَقِيَامٍ وَزِيَارَةٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ يَكُونُ: بِتَرْكِ عِبَادَتِهِ وَاعْتِقَادِ بُطْلَانِهَا وَالبَرَاءَةِ مِنْهُ وَمِنْ عُبَّادِهِ وَتَكْفِيرِهِمْ وَبُغْضِهِمْ.

وَالكُفْرُ بِالطَّاغُوتِ المَعْبُودِ مِنْ دُونِ اللهِ -عز وجل- بِالتَّشْرِيعِ كَالحَاكِمِ الذِي يُشَرِّعُ القَوَانِينَ الكُفْرِيَّةَ وَيُلْزِمُ النَّاسَ بِالتَّحَاكُمِ لَهَا وَيَكُونُ ذَلِكَ: بِاعْتِقَادِ بُطْلَانِ القَانُونِ أَوِ الحُكْمِ الكُفْرِيِّ الذِي وَضَعَهُ وَأَلْزَمَ النَّاسَ بِاتِّبَاعِهِ، وَتَرْكِ التَّحَاكُمِ لَهُ، وَتَكْفِيرِهِ وَتَكْفِيرِ عُبَّادِهِ الذِينَ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ وَبُغْضِهِمْ وَالبَرَاءَةِ مِنْهُمْ.

وَالكُفْرُ بِالكَاهِنِ يَكُونُ: بِاعْتِقَادِ أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ مَنْ يَعْلَمُ الغَيْبَ وَتَكْفِيرِهِ وَتَكْفِيرِ مَنْ أَتَاهُ وَصَدَّقَهُ فِيمَا يَقُولُ وَبُغْضِهِمْ وَالبَرَاءَةِ مِنْهُمْ.

وَالإِيمَانُ بِاللهِ -عز وجل- أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّهُ هُوَ الوَاحِدُ الأَحَدُ الفَرْدُ الصَّمَدُ، المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قَدْ عَلَا وَارْتَفَعَ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَأَنْ تُثْبِتَ لَهُ صِفَاتِ الكَمَالِ، وَتُنَزِّهَهُ عَنِ النَّقَائِصِ، وَأَنَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا.

فَالكُفْرُ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانُ بِهِ وَحْدَهُ -ﷻ- وَإِخْلَاصُ العِبَادَةِ لَهُ هِيَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَهِيَ المِلَّةُ التِي خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ لِأَجْلِهَا، وَهِيَ المِلَّةُ التِي أَخْبَرَنَا رَبُّنَا فِي القُرْآنِ أَنَّهَا أَحْسَنُ دِينٍ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ؛ **فَقَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة النساء: ١٢٥].

وَهِيَ المِلَّةُ التِي أَخْبَرَنَا رَبُّنَا أَنَّ مَنِ اتَّبَعَهَا اهْتَدَىٰ وَنَجَا؛ وَأَمَرَنَا أَنْ نَرُدَّ بِهَا فِي نَحْرِ كُلِّ دِينٍ أَوْ دَعْوَةٍ أَوْ جَمَاعَةٍ أَوْ فِرْقَةٍ أَوْ حِزْبٍ أَوْ أَيِّ أَحَدٍ أَرَادَ مِنَّا أَنْ نَتَّبِعَهُ وَنَتْرُكَهَا؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [سورة البقرة: ١٣٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة آل عمران: ٦٧].

وَهِيَ التِي أَخْبَرَنَا أَنَّ مَنْ رَغِبَ عَنْهَا، فَقَدْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَخَسِرَ حَظَّهُ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [سورة البقرة: ١٣٠].

وَهِيَ التِي أَمَرَ اللهُ الأَنْبِيَاءَ جَمِيعًا بِاتِّبَاعِهَا، فَقَالَ عَنْ يُوسُفَ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة يوسف: ٣٨].

وَهِيَ التِي أَوْصَىٰ بِهَا الأَنْبِيَاءُ جَمِيعًا فِي حَيَاتِهِمْ وَقَبْلَ مَوْتِهِمْ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [سورة البقرة: ١٣٢].

وَهِيَ المِلَّةُ التِي مَا جَعَلَ اللهُ فِيهَا أَدْنَىٰ حَرَجٍ لِمَنِ اتَّبَعَهَا؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة الحج: ٧٨].

وَهِيَ التِي أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا -ﷺ- بِاتِّبَاعِهَا؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [سورة النحل: ١٢٣].

ثُمَّ أَمَرَنَا رَبُّنَا جَمِيعًا بِاتِّبَاعِهَا؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [سورة آل عمران: ٩٥].

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ وَأَمَرَنَا جَمِيعًا أَنْ نَصْدَعَ لِجَمِيعِ العَالَمِينَ بِهَذَا الخِطَابِ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢-١٦٤]

فَالحَنِيفِيَّةُ التِي هِيَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ فِي الاصْطِلَاحِ الشَّرْعِيِّ: الاسْتِقَامَةُ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا وَمِنْ ذَلِكَ الاسْتِقَامَةُ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ وَنَبْذُ وَتَرْكُ الشِّرْكِ وَالالْتِزَامُ بِالحَقِّ وَتَرْكُ البَاطِلِ.

وَهَذَا مَا كَانَ عَلَيْهِ إِمَامُ الحُنَفَاءِ إِبْرَاهِيمُ، فَإِنَّهُ لَمَّا بُعِثَ كَانَ النَّاسُ وَالمُجْتَمَعَاتُ مُتَّجِهَةً إِلَىٰ الشِّرْكِ بِاللهِ، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنِ اسْتَقَامَ إِلَىٰ الحَقِّ، إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، فَصَارَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ كَلِمَةَ مَدْحٍ وَثَنَاءٍ، فَمَنْ كَانَ حَنِيفًا فَإِنَّهُ يَكُونُ مُتَّبِعًا لِهَذَا النَّبِيِّ الكَرِيمِ مُحَمَّدٍ -ﷺ- وَقَبْلَهُ مُتَّبِعًا لِإِمَامِ الحُنَفَاءِ الذِي هُوَ إِبْرَاهِيمُ -عليه السلام- فَإِذَا ذُكِرَ التَّوْحِيدُ، وَذُكِرَ البَذْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَذُكِرَتِ البَرَاءَةُ مِنَ المُشْرِكِينَ، وَذُكِرَتِ الكَعْبَةُ فَإِنَّهُ بَانِيهَا، الذِي أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُؤَسِّسَهَا عَلَىٰ أَسَاسِ التَّوْحِيدِ، هَذَا هُوَ إِبْرَاهِيمُ، إِنَّهُ أَبُو الأَنْبِيَاءِ، وَإِمَامُ الحُنَفَاءِ، وَمُكَسِّرُ الأَصْنَامِ، وَالدَّاعِيَةُ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، الذِي بَذَلَ نَفْسَهُ وَوَلَدَهُ وَحَيَاتَهُ وَكُلَّ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، حَتَّىٰ بَلَغَ الرُّتْبَةَ العَلِيَّةَ وَهِيَ أَنِ اتَّخَذَهُ رَبُّنَا خَلِيلًا، وَكَذَلِكَ اتَّخَذَ مُحَمَّدًا خَلِيلًا، وَلَا يُعْلَمُ فِي النُّصُوصِ مَنْ تَبَوَّأَ هَذِهِ المَكَانَةَ إِلَّا هَذَانِ الخَلِيلَانِ إِبْرَاهِيمُ وَمُحَمَّدٌ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فَإِذَا سَأَلْتَ: مَا هِيَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ التِي أَثْنَىٰ اللهُ عَلَيْهَا هَذَا الثَّنَاءَ كُلَّهُ، وَأَمَرَ بِهَا وَأَكَّدَ عَلَيْهَا؟

فَالجَوَابُ: هِيَ مِلَّةٌ قَائِمَةٌ عَلَىٰ تُرْبَةٍ طَيِّبَةٍ، وَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ: فَالتُّرْبَةُ الطَّيِّبَةُ هِيَ التِي قَالَ اللهُ فِيهَا: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الأعراف: ٥٨].

وَالشَّجَرَةُ الطَّيِّبَةُ هِيَ التِي قَالَ اللهُ فِيهَا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤].

فَإِنْ قُلْتَ وَمَا تَفْسِيرُ ذَلِكَ؟

فَالجَوَابُ: التُّرْبَةُ الطَّيِّبَةُ هِيَ تَطْهِيرُ تُرْبَةِ القَلْبِ مِنَ الشِّرْكِ النَّجِسِ، وَالمُشْرِكِينَ النَّجِسِ، وَهَذَا التَّطْهِيرُ لَا بُدَّ أَنْ يَسْبِقَ غَرْسَ الشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ؛ لِأَنَّ تِلْكَ الشَّجَرَةَ نَزِيهَةٌ عَفِيفَةٌ، وَغَالِيَةٌ شَرِيفَةٌ، لَا تَقْوَىٰ وَلَا تُثْمِرُ إِلَّا فِي المَكَانِ الذِي يَلِيقُ بِهَا وَيَصْلُحُ لَهَا.

وَهَذَا التَّطْهِيرُ هُوَ سَبَبُ الهِجْرَةِ وَالجِهَادِ وَالبَلَاءِ وَالامْتِحَانِ وَالفِتْنَةِ.

فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: شَجَرَةُ السَّعَادَةِ إِنْ غَرَسْتَهَا فِي مَنْبِتِ التَّصْدِيقِ، وَسَقَيْتَهَا مِنْ مَاءِ الإِخْلَاصِ، وَرَعَيْتَهَا بِالعَمَلِ الصَّالِحِ، رَسَخَتْ عُرُوقُهَا، وَثَبَتَ سَاقُهَا، وَاخْضَرَّتْ أَوْرَاقُهَا، وَأَيْنَعَتْ ثِمَارُهَا، وَتَضَاعَفَ أُكُلُهَا ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٥].

فَإِنْ قُلْتَ وَكَيْفَ يَكُونُ التَّطْهِيرُ؟

فَالجَوَابُ: أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ بِالبَرَاءَةِ التَّامَّةِ وَالقَطِيعَةِ الكَامِلَةِ مَعَ الشِّرْكِ وَالمُشْرِكِينَ، وَذَلِكَ بِفِعْلِ

أَوَّلًا: الاعْتِقَادُ اليَقِينِيُّ أَنَّ إِشْرَاكَ أَحَدٍ مَعَ اللهِ فِي عِبَادَتِهِ وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ كُفْرٌ أَكْبَرُ مُوجِبٌ لِلْخُلُودِ فِي النَّارِ، لَا يَغْفِرُهُ اللهُ البَتَّةَ.

ثَانِيًا: الاعْتِقَادُ اليَقِينِيُّ أَنَّ كُلَّ المُشْرِكِينَ -وَلَوْ كَانُوا جُهَّالًا أَوْ مُقَلِّدِينَ أَوْ مُتَأَوِّلِينَ- كُفَّارٌ، ثَالِثًا: الاعْتِقَادُ اليَقِينِيُّ أَنَّ التَّلَفُّظَ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ أَوْ أَدَاءَ الفَرَائِضِ، إِذَا لَمْ يَصْحَبْهُ كُفْرٌ بِالطَّاغُوتِ، وَتَكْفِيرٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَبَرَاءَةٌ مِنْهُمْ، وَإِفْرَادٌ لِلهِ بِالعِبَادَةِ دُونَ شَرِيكٍ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ البَتَّةَ، وَلَوْ كَانَ صَوَّامًا قَوَّامًا مُصَلِّيًا حَاجًّا مُعْتَمِرًا، بَلْ إِنَّ التَّلَفُّظَ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ مَعَ التَّوَلِّي عَنْ مَعْنَاهَا وَمُقْتَضَاهَا؛ يَجْعَلُ صَاحِبَهَا أَظْلَمَ النَّاسِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ [سورة الصف: ٧].

فَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ يُنْسَبُ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ الكَذِبَ، وَأَعْظَمُ الافْتِرَاءِ الشِّرْكُ وَالدِّفَاعُ عَنِ المُشْرِكِينَ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ هَذَا حَالُهُ، حَتَّىٰ يُقْلِعَ عَنْ أَظْلَمِ الظُّلْمِ الذِي اقْتَرَفَهُ فِي حَقِّ رَبِّهِ.

رَابِعًا: أَنْ يُتْبِعَ هَذِهِ الاعْتِقَادَاتِ العَظِيمَةَ بِالعَمَلِ؛ وَذَلِكَ بِمُفَارَقَةِ الشِّرْكِ وَالمُشْرِكِينَ وَبِلَادِ الشِّرْكِ، كَمَا كَانَ رَسُولُنَا -ﷺ- يُبَايِعُ الدَّاخِلِينَ فِي الإِسْلَامِ أَفْرَادًا وَوُفُودًا عَلَىٰ ذَلِكَ.

وَأَنْ يَبْحَثَ عَنْ تُرْبَةٍ زَاكِيَةٍ وَبَلْدَةٍ طَيِّبَةٍ يَغْرِسُ فِيهَا شَجَرَةَ إِيمَانِهِ؛ لِيَكُونَ أَصْلُهَا ثَابِتًا وَفَرْعُهَا

فِي السَّمَاءِ؛

١٦٤ - **قَالَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ -رضي الله عنه- وَاصِفًا رَسُولَ اللهِ -ﷺ- وَأَصْحَابَهُ:**

فِي عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ، بِبَطْنِ مَكَّةَ، لَمَّا أَسْلَمُوا: زُولُوا

زَالُوا، فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ، وَلَا كُشُفٌ، عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلَا مِيلٌ مَعَازِيلُ

خَامِسًا: البُغْضُ الشَّدِيدُ العَمِيقُ لِلشِّرْكِ وَالمُشْرِكِينَ، أَشَدُّ مِنْ بُغْضِكَ لِقَاتِلِ أَبِيكَ وَأَبْنَائِكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَكَيْفَ أَزْرَعُ هَذَا البُغْضَ فِي قَلْبِي وَأُقَوِّيهِ؟

فَالجَوَابُ: يَكُونُ ذَلِكَ أَوَّلًا بِصِدْقِ اللُّجُوءِ إِلَىٰ اللهِ أَنْ يُبْغِضَ لَكَ الشِّرْكَ وَأَهْلَهُ.

وَأَيْضًا إِذَا أَحْسَنْتَ العَمَلَ الصَّالِحَ؛ زَادَ إِيمَانُكَ فَزَادَتْ مَحَبَّتُكَ اللهَ تَعَالَىٰ، وَعِنْدَ ذَلِكَ سَيَزِيدُ بُغْضُكَ لِأَعْدَائِهِ المُشْرِكِينَ المُعْتَدِينَ عَلَىٰ حَقِّهِ المُسْتَهْزِئِينَ بِهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [سورة المجادلة: ٢٢].

وَأَيْضًا أَنْ تَتَفَكَّرَ فِي قُبْحِ الشِّرْكِ فِي ذَاتِهِ؛ فَإِنَّهُ أَقْبَحُ شَيْءٍ فِي الوُجُودِ لِأَنَّهُ غَايَةُ النَّذَالَةِ وَالظُّلْمِ وَكُفْرِ النِّعْمَةِ، فَإِذَا اسْتَقَرَّ فِي قَلْبِكَ قُبْحُهُ أَبْغَضْتَهُ.

١٦٥ - **قَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ:** كُنَّا فِي الجَاهِلِيَّةِ نَعْمِدُ إِلَىٰ النَّاقَةِ الصَّعْبَةِ التِي لَمْ يُحْمَلْ عَلَيْهَا فَحْلٌ قَطُّ، فَنَحْمِلُ عَلَيْهَا أَصْنَامًا، فَلَا تَكُونُ فِي القَوْمِ نَاقَةٌ أَذَلَّ مِنْهَا.[(١)]

وَإِنَّ مِنْ أَقْبَحِ المَشَاهِدِ فِي الدُّنْيَا أَنْ تَرَىٰ رَجُلًا يَذْبَحُ وَلَدَهُ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَهُ، وَأَنْ تَرَىٰ رَجُلًا يُزَانِي بِحَلِيلَةِ جَارِهِ أَوِ ابْنِهِ أَوْ أَبِيهِ، فَكَيْفَ وَهُوَ يُزَانِي بِأُمِّهِ كَرْهًا فِي جَوْفِ الكَعْبَةِ أَمَامَ النَّاسِ، فَهَذِهِ صُوَرٌ بَشِعَةٌ جِدًّا، وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَوْ ظَفِرُوا بِفَاعِلِهَا لَقَتَلُوهُ وَمَزَّقُوهُ، وَهُمْ يُبْغِضُونَهُ أَشَدَّ البُغْضِ وَيُعَادُونَهُ، فَإِذَا جَاءَتِ الصُّورَةُ التِي لَا أَبْشَعَ وَلَا أَقْبَحَ فِي الوُجُودِ مِنْهَا، وَهِيَ: (أَنْ يَجْعَلَ لِلهِ نِدًّا وَهُوَ خَلْقُهُ) رَأَيْتَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَسْتَقْذِرُهَا وَلَا يُبْغِضُ أَهْلَهَا، بَلْ يَعْتَذِرُ لَهُمْ وَيُبَرِّرُ لَهُمْ شِرْكَهُمْ؛ ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [سورة عبس: ١٧].

لِذَلِكَ فَإِنَّ لَفْتَ الأَنْظَارِ إِلَىٰ قُبْحِ الشِّرْكِ وَبَشَاعَتِهِ وَشِدَّةِ الظُّلْمِ فِيهِ مِمَّا يَفْتَحُ اللهُ بِهِ قُلُوبًا غُلْفًا

---

(١) كما فِي التاريخ لأبي حفص الفلاس (٢٩٤).

وَأَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا بُكْمًا، فَإِنَّ الفِطَرَ وَالأَفْئِدَةَ قَدْ فَطَرَهَا اللهُ عَلَىٰ بُغْضِ الظُّلْمِ وَأَهْلِهِ، لَكِنَّ شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ يُنْسُونَهُمْ أَشَدَّ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ فِي الوُجُودِ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان: ١٣].

فَإِذَا كَانَ مِنْ أَقْبَحِ المَسَبَّةِ لِأَبِي بَكْرٍ أَنْ يُسَوَّىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَعْضِ المُلُوكِ فِي زَمَانِنَا، فَكَيْفَ يُجْعَلُ لِلْمَخْلُوقِ مِنَ المَاءِ المَهِينِ وَلَوْ كَانَ نَبِيًّا بَعْضُ حُقُوقِ مَنْ بَعْضُ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ تَخْلَعُ الأَفْئِدَةَ، مِنْ كَوْنِهِ يُدْعَىٰ كَمَا يُدْعَىٰ، وَيُخَافُ كَمَا يُخَافُ، وَيُعْتَمَدُ عَلَيْهِ كَمَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ؟! هَذَا أَعْظَمُ الظُّلْمِ، وَأَقْبَحُ المَسَبَّةِ لِرَبِّ العَالَمِينَ.

❁❁❁

فَصْلٌ فِي: ذكر شروط شهادة أن لا إله إلا الله

إِنَّ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ لَيْسَ المَقْصُودَ مِنْهَا مُجَرَّدَ كَلِمَةٍ تَنْطِقُ بِهَا الأَلْسِنَةُ فَحَسْبُ بَلْ هِيَ كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ، ذَاتُ مَعْنًىٰ جَلِيلٍ لَا يَجْتَنِي ثِمَارَهَا إِلَّا مَنْ وَقَرَتْ فِي قَلْبِهِ وَظَهَرَتْ فِي عَمَلِهِ.

فَشَهَادَةُ التَّوْحِيدِ مُقَيَّدَةٌ بِقُيُودٍ ثِقَالٍ لَا يَنْتَفِعُ قَائِلُهَا إِلَّا بِاسْتِكْمَالِهَا.

لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَهِيَ التِي وَرَّثَهَا إِمَامُ الحُنَفَاءِ لِأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ.

وَهِيَ الكَلِمَةُ التِي قَامَتْ بِهَا الأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ، وَفَطَرَ اللهُ عَلَيْهَا جَمِيعَ المَخْلُوقَاتِ وَعَلَيْهَا أُسِّسَتِ المِلَّةُ، وَنُصِبَتِ القِبْلَةُ، وَجُرِّدَتْ سُيُوفُ الجِهَادِ، وَهِيَ مَحْضُ حَقِّ اللهِ عَلَىٰ جَمِيعِ العِبَادِ، وَهِيَ الكَلِمَةُ العَاصِمَةُ لِلدَّمِ وَالمَالِ وَالذُّرِّيَّةِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَالمُنْجِيَةُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَهِيَ المَنْشُورُ الذِي لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الجَنَّةَ إِلَّا بِهِ، وَالحَبْلُ الذِي لَا يَصِلُ إِلَىٰ اللهِ مِنْ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِسَبَبِهِ، وَهِيَ كَلِمَةُ الإِسْلَامِ، وَمِفْتَاحُ دَارِ السَّلَامِ، وَبِهَا انْقَسَمَ النَّاسُ إِلَىٰ شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ، وَمَقْبُولٍ وَطَرِيدٍ، وَبِهَا انْفَصَلَتْ دَارُ الكُفْرِ مِنْ دَارِ الإِيمَانِ، وَتَمَيَّزَتْ دَارُ النَّعِيمِ مِنْ دَارِ الشَّقَاءِ وَالهَوَانِ، وَهِيَ العَمُودُ الحَامِلُ لِلْفَرْضِ وَالسُّنَّةِ، «**وَمَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الجَنَّةَ**».[1]

وَهَذِهِ الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ لَهَا شُرُوطٌ لَا تَصِحُّ الكَلِمَةُ وَلَا تَكُونُ مُحَقِّقًا لَهَا إِلَّا بِتَحْقِيقِ هَذِهِ الشُّرُوطِ:

وَبِشُرُوطٍ سَبْعَةٍ قَدْ قُيِّدَتْ ... وَفِي نُصُوصِ الْوَحْيِ حَقًّا وَرَدَتْ
فَإِنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ قَائِلُهَا بِالنُّطْقِ ... إِلَّا حَيْثُ يَسْتَكْمِلُهَا
وَالْعِلْمُ وَالْيَقِينُ وَالْقَبُولُ ... وَالانْقِيَادُ فَاذْرِ مَا أَقُولُ
وَالصِّدْقُ وَالْإِخْلَاصُ وَالمَحَبَّةُ ... وَفَّقَكَ اللهُ لِمَا أَحَبَّهُ

وَفِي نَظْمِ بَعْضِهِمْ:

عِلْمٌ، يَقِينٌ، وَإِخْلَاصٌ، وَصِدْقُكَ مَعْ ... مَحَبَّةٍ وَانْقِيَادٍ وَالقَبُولُ لَهَا
وَزِيدَ ثَامِنُهَا الكُفْرَانُ مِنْكَ بِمَا ... سِوَىٰ الإِلَهِ مِنَ الأَنْدَادِ قَدْ أُلِّهَا

---

(١) «الداء والدواء» (ص٤٥٦).

وَبِحَسَبِ قِيَامِ الْمُسْلِمِ بِهَا وَتَحْقِيقِهِ لَهَا يَعْظُمُ تَوْحِيدُهُ وَإِيمَانُهُ.

وَالشُّرُوطُ: جَمْعُ شَرْطٍ، وَهُوَ لُغَةً: تَعْلِيقُ حُصُولِ أَمْرٍ بِآخَرَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ [سورة محمد: ١٨].

المَسْأَلَةُ الأُولَىٰ: (أَهَمِّيَّةُ شُرُوطِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)

١) الإِسْلَامُ وَقَبُولُ الأَعْمَالِ وَدُخُولُ الجَنَّةِ مُتَوَقِّفٌ عَلَيْهَا.

١٦٦ - **رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ -رَحِمَهُ اللهُ-، فِي قَوْلِ اللهِ -وَجَلَّ-:** ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة الرحمن: ٦٠] قَالَ: هَلْ جَزَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِلَّا الجَنَّةُ.(١)

٢) لَا تَصِحُّ العِبَادَةُ إِلَّا بِهَا.

٣) كُلُّ كُفْرٍ فِي الأَرْضِ سَبَبُهُ الإِخْلَالُ بِهَذِهِ الشُّرُوطِ.

٤) الجَاهِلُ بِهَا هُوَ جَاهِلٌ بِحَقِيقَةِ الإِسْلَامِ وَمَا يُرِيدُهُ اللهُ مِنْهُ.

٥) مَنْ تَرَكَ وَاحِدَةً مِنْهَا فَهُوَ خَارِجٌ مِنَ المِلَّةِ.

٦) النَّجَاةُ مِنَ الخُلُودِ فِي النَّارِ مُتَوَقِّفٌ عَلَىٰ تَحْصِيلِهَا وَتَطْبِيقِهَا.

٧) كَثْرَةُ الجُهَّالِ وَالمُخَالِفِينَ بِهَا مِنْ أَهْلِ زَمَانِنَا.

المَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: (أَدِلَّةُ شُرُوطِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).

١) أَدِلَّةٌ عَامَّةٌ:

٢) أَدِلَّةٌ خَاصَّةٌ:

الأَدِلَّةُ العَامَّةُ: كَقَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا...»

(وَالشَّهَادَةُ تَقْتَضِي الالْتِزَامَ وَالأَمْرُ لَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ شَهَادَةً إِلَّا إِذَا كَانَ مُقْتَرِنًا بِلَوَازِمَ وَشُرُوطٍ).

وَكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [سورة الزخرف: ٨٦].

١٦٧ - **قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ:** ﴿وَلَا يَمْلِكُ﴾ يَقُولُ: وَلَا يَقْدِرُ ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ [سورة الزخرف: ٨٦] وَهُمُ المَلَائِكَةُ ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ يَقُولُ: لَا تَقْدِرُ المَلَائِكَةُ الذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ عَلَىٰ

---

(١) «الدعاء - الطبراني» (ص٤٤٧).

الشَّفَاعَةِ لِأَحَدٍ، ثُمَّ اسْتَثْنَىٰ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الزخرف: ٨٦] يَعْنِي: بِالتَّوْحِيدِ مِنْ بَنِي آدَمَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَشَفَاعَتُهُمْ لِهَؤُلَاءِ.(١)

١٦٨ - **وَقَالَ الطَّبَرِيُّ:** الذِينَ شَهِدُوا بِالحَقِّ، فَأَقَرُّوا بِهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ مَا شَهِدُوا بِهِ.(٢)

فَمِنْ آكَدِ مَا يَجِبُ عَلَىٰ المُسْلِمِ هُوَ العِنَايَةُ بِمَدْلُولِ هَذِهِ الكَلِمَةِ العَظِيمَةِ التِي شَهِدَ بِهَا.

وَالشَّهَادَةُ لَا تُعْتَبَرُ شَهَادَةً إِلَّا إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ شُرُوطٍ:

الأَوَّلُ: عِلْمُ الشَّاهِدِ بِهَا وَمَعْرِفَتُهُ لَهَا وَاعْتِقَادُ صِحَّةِ مَا شَهِدَ بِهِ وَثُبُوتُهَا عِنْدَهُ.

الثَّانِي: تَكَلُّمُ الشَّاهِدِ بِذَلِكَ وَنُطْقُهُ بِهَا.

الثَّالِثُ: أَنْ يُعَلِّمَ الشَّاهِدُ غَيْرَهُ مَا شَهِدَ بِهِ وَيُخْبِرَهُ بِهِ وَيُبَيِّنَهُ لَهُ.

الرَّابِعُ: أَنْ يَلْتَزِمَ بِمَضْمُونِهَا وَيُلْزِمَ غَيْرَهُ بِمَا شَهِدَ بِهِ وَيَأْمُرَهُ بِهَا وَيَحْكُمَ بِهَا.

وَالنَّبِيُّ -ﷺ- رَتَّبَ دُخُولَ الجَنَّةِ عَلَىٰ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ النُّصُوصِ:

١٦٩ - **فَقَدْ أَخْرَجَ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ:** عَنْ أَبِي أَيُّوبَ -رضي الله عنه-، أَنَّ أَعْرَابِيًّا عَرَضَ لِرَسُولِ اللهِ -ﷺ- وَهُوَ فِي سَفَرٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ نَاقَتِهِ أَوْ بِزِمَامِهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوْ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي بِمَا يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا يُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، قَالَ فَكَفَّ النَّبِيُّ -ﷺ-، ثُمَّ نَظَرَ فِي أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «لَقَدْ وُفِّقَ أَوْ لَقَدْ هُدِيَ» قَالَ: «كَيْفَ قُلْتَ؟» قَالَ فَأَعَادَ، **فَقَالَ النَّبِيُّ** -ﷺ-: «**تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، دَعِ النَّاقَةَ**».(٣)

١٧٠ - **وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ:** عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه-، أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ دُلَّنِي عَلَىٰ عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الجَنَّةَ، قَالَ «**تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ**» قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَزِيدُ عَلَىٰ هَذَا شَيْئًا أَبَدًا، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ، فَلَمَّا وَلَّىٰ، **قَالَ النَّبِيُّ** -ﷺ-: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ رَجُلٍ

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٨٠٦.

(٢) في «تفسيره» (٢٠/ ٦٦٢).

(٣) رواه البخاري (ص١٣٣) ورواه مسلم -كتاب الايمان - باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة- (٣٢) واللفظ لمسلم.

مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ هَذَا».(١)

١٧١ - **وَأَخْرَجَ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: «لَمَّا تُوُفِّيَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ العَرَبِ، قَالَ عُمَرُ: يَا أَبَا بَكْرٍ كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ».(٢)**

١٧٢ - **وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ -رضي الله عنه-:** وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا.

كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَىٰ مَنْعِهَا.

وَقَالَ عُمَرُ -رضي الله عنه-: فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ أَنْ قَدْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ.

فَفَهِمَ الصِّدِّيقُ -رضي الله عنه-: أَنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ قِتَالُهُ إِلَّا بِأَدَاءِ حُقُوقِهَا لِقَوْلِهِ -صلى الله عليه وسلم-: **«فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ مَنَعُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ، وَقَالَ الزَّكَاةُ حَقُّ المَالِ».(٣)**

١٧٣ - **وَهَذَا الذِي فَهِمَهُ الصِّدِّيقُ: قَدْ رَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- صَرِيحًا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ -رضي الله عنهم- مِنْهُمْ: ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ».(٤)**

وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٥].

---

(١) رواه مسلم -كتاب الايمان - باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة- (ص٣٣).

(٢) رواه البخاري - كتاب استتابة المرتدين المعاندين وقتالهم - باب قتل من أبىٰ قبول الفرائض وما نُسِبوا إِلىٰ الردَّة- (ص٦٤)، ورواه مسلم -كتاب الإيمان - باب الأمر بقتال الناس حتىٰ يقولوا لا اله إلا الله محمد رسول الله - (ص ٣٨)

(٣) رواه البخاري - كتاب استتابة المرتدين المعاندين وقتالهم - باب قتل من أبىٰ قبول الفرائض وما نُسِبوا إِلىٰ الردَّة- (ص٦٤)، ورواه مسلم -كتاب الإيمان - باب الأمر بقتال الناس حتىٰ يقولوا لا اله إلا الله محمد رسول الله - (ص ٣٨).

(٤) رواه البخاري - كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [سورة التوبة:٥]. - (ص ١٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [سورة التوبة: ١١].

عَلَىٰ أَنَّ الأُخُوَّةَ فِي الدِّينِ لَا تَثْبُتُ إِلَّا بِأَدَاءِ الفَرَائِضِ مَعَ التَّوْحِيدِ، وَالتَّوْبَةُ مِنَ الشِّرْكِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ.

وَمَنِ اعْتَقَدَ أَنَّهَا نَافِعَةٌ لِقَائِلِهَا دُونَ تَحْقِيقِ شُرُوطِهَا فَإِنَّ قَوْلَهُ إِفْكٌ عَظِيمٌ وَيَتَرَتَّبُ عَلَىٰ مَقَالَتِهِ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ النِّفَاقِ الأَكْبَرِ الذِينَ كَفَّرَهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- بِدُونِ شُرُوطِهَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [سورة المنافقون: ١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ۖ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝١٤٥﴾ [سورة النساء: ١٤٥]

فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَهَا لَكِنْ مِنْ غَيْرِ تَحْقِيقٍ لِشُرُوطِهَا فَكَانُوا بِذَلِكَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

فَالكَلِمَةُ لَا تَصِحُّ مِنْ قَائِلِهَا إِلَّا بِشُرُوطِهَا.

الأَدِلَّةُ الخَاصَّةُ:

١٧٤ - **قَالَ الحَسَنُ لِلْفَرَزْدَقِ وَهُوَ يَدْفِنُ امْرَأَتَهُ:** مَا أَعْدَدْتَ لِهَذَا اليَوْمِ؟ قَالَ: شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً، قَالَ الحَسَنُ: نِعْمَ العُدَّةُ لَكِنْ لـ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» شُرُوطًا، فَإِيَّاكَ وَقَذْفَ المُحْصَنَاتِ.

وَقِيلَ لِلْحَسَنِ: إِنَّ أُنَاسًا يَقُولُونَ: مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، فَقَالَ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَأَدَّىٰ حَقَّهَا وَفَرْضَهَا دَخَلَ الجَنَّةَ.(١)

١٧٥ - **وَقِيلَ لِوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ:** أَلَيْسَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِفْتَاحَ الجَنَّةِ؟

قَالَ: بَلَىٰ، وَلَكِنْ لَيْسَ مِفْتَاحٌ إِلَّا لَهُ أَسْنَانٌ فَإِنْ جِئْتَ بِمِفْتَاحٍ لَهُ أَسْنَانٌ فُتِحَ لَكَ، وَإِلَّا لَمْ يُفْتَحْ لَكَ.(٢)

المَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: (قِيَامُ كُلِّ شَرْطٍ مِنْهَا عَلَىٰ أَصْلٍ وَكَمَالٍ)

كُلُّ شَرْطٍ مِنْ شُرُوطِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ قَائِمٌ عَلَىٰ أَصْلٍ وَكَمَالٍ، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ التَّوْحِيدَ يَزُولُ، وَهَذِهِ

---

(١) كلمة الإخلاص لابن رجب (ص١١).

(٢) أخرجه البخاري- كتاب الجنائز- باب في الجنائز، ومن كان آخرُ كلامِهِ لا إله إلا الله (٢/ ٨٧).

الشَّهَادَةُ تَنْتَقِضُ وَيَتَلَاشَىٰ الانْتِفَاعُ بِهَا مَتَىٰ زَالَ أَصْلُ شَرْطٍ مِنْهَا، وَيَضْعُفُ الانْتِفَاعُ بِهَا مَتَىٰ ضَعُفَ الإِتْيَانُ بِهَا، فَإِنَّ لِهَذِهِ الشُّرُوطِ أَصْلًا لَا يَتَحَقَّقُ التَّوْحِيدُ إِلَّا بِهِ، وَكَمَالًا يَكْمُلُ التَّوْحِيدُ بِتَمَامِهِ وَيَضْعُفُ بِزَوَالِهِ.

المَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: (الكُفْرُ المُتَعَلِّقُ بِكُلِّ شَرْطٍ)

١) شَرْطُ العِلْمِ يُقَابِلُهُ الجَهْلُ.

٢) اليَقِينُ يُقَابِلُهُ الرَّيْبُ وَالشَّكُّ.

٣) الصِّدْقُ يُقَابِلُهُ النِّفَاقُ.

٤) الإِخْلَاصُ يُقَابِلُهُ الشِّرْكُ.

٥) المَحَبَّةُ يُقَابِلُهَا الكُرْهُ وَالبُغْضُ.

٦) القَبُولُ يُقَابِلُهُ الرَّدُّ وَالتَّكْذِيبُ وَالجُحُودُ وَالاسْتِحْلَالُ وَالإِنْكَارُ.

٧) الانْقِيَادُ يُقَابِلُهُ الاسْتِكْبَارُ وَالإِعْرَاضُ وَالتَّوَلِّي وَالتَّرْكُ وَالامْتِنَاعُ وَالإِبَاءُ.

الشُّرُوطُ:

١) العِلْمُ المُنَافِي لِلْجَهْلِ:

فَأَوَّلُهَا: العِلْمُ المُنَافِي لِضِدِّهِ مِنَ الجَهْلِ ... إِنَّ الجَهْلَ لَيْسَ بِمُسْعِدِ

فَلَوْ كَانَ ذَا عِلْمٍ كَثِيرٍ وَجَاهِلًا ... بِمَدْلُولِهَا يَوْمًا فَبِالجَهْلِ مُرْتَدُّ

وَالمُرَادُ بِهَذَا الشَّرْطِ: العِلْمُ بِمَعْنَاهَا الذِي سَبَقَ بَيَانُهُ مِنَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ.

وَهُوَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ -وَجَلَّ- هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ مَنْ عَبَدَ غَيْرَهُ لَمْ يُحَقِّقِ التَّوْحِيدَ الذِي خُلِقَ لِأَجْلِهِ أَيْ: (تَحْقِيقُ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ) الذِي سَبَقَ ذِكْرُهُ فِي فَصْلِ الكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانِ بِاللهِ.

وَأَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- ارْتَفَعَ وَعَلَا عَلَىٰ خَلْقِهِ وَأَنَّ لَهُ الكَمَالَ المُطْلَقَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ.

أَدِلَّةُ شَرْطِ العِلْمِ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [سورة محمد: ١٩].

يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ -ﷺ-: فَاعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّهُ لَا مَعْبُودَ تَنْبَغِي أَوْ تَصْلُحُ لَهُ الأُلُوهَةُ، وَيَجُوزُ لَكَ وَلِلْخَلْقِ عِبَادَتُهُ، إِلَّا اللهُ الذِي هُوَ خَالِقُ الخَلْقِ، وَمَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، يَدِينُ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ كُلُّ مَا دُونَهُ.(١)

وَهَذَا الشَّرْطُ بَدَهِيٌّ لِأَنَّ الإِيمَانَ بِالشَّهَادَةِ وَالانْقِيَادَ لَهَا لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بَعْدَ العِلْمِ بِمَعْنَاهَا، وَالجَاهِلُ بِذَلِكَ لَا تَنْفَعُهُ، لِجَهْلِهِ بِمَا وُضِعَتْ لَهُ الوَضْعَ العَرَبِيَّ الذِي أُرِيدَ مِنْهَا، وَمِنْ نَفْيِ الشِّرْكِ وَإِخْلَاصِ العِبَادَةِ لِلهِ وَحْدَهُ فَكَيْفَ يَنْفِي مَا نَفَتْ وَيُثْبِتُ مَا أَثْبَتَتْ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، أَمْ كَيْفَ يَعْمَلُ بِمُقْتَضَىٰ مَا لَا يَعْلَمُهُ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة هود: ١٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٥٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٨].

وَقَالَ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [سورة الزخرف: ٨٦].

وَشَهِدَ بِالحَقِّ: أَيِ التَّوْحِيدِ وَهِيَ كَلِمَةُ الإِخْلَاصِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) فَلَا بُدَّ لِلنَّاطِقِ بِلِسَانِهِ وَالمُعْتَقِدِ بِقَلْبِهِ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِمَا اعْتَقَدَ وَنَطَقَ وَشَهِدَ.

فَاسْتَثْنَىٰ مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ (التَّوْحِيدَ) وَهُوَ يَعْلَمُ حَقِيقَةَ مَا شَهِدَ بِهِ وَلَا يَجْهَلُ ذَلِكَ، أَمَّا مَنْ جَهِلَهُ فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الهَالِكِينَ.

١٧٦ - **عَنْ عُثْمَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** -ﷺ-: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ**».(٢)

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٧٣).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤٣).

فَهَذَا الحَدِيثُ صَرِيحٌ فِي أَنَّ مَنْ نَطَقَ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ مَعَ عِلْمِهِ بِهَا فَهُوَ نَاجٍ عِنْدَ اللهِ.

فَمَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّ مَعَ اللهِ خَالِقًا أَوْ رَازِقًا أَوْ مَعْبُودًا أَوْ مُشَرِّعًا لَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ.

١٧٧ - **وَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ** -رحمه الله- **قَالَ:** مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَىٰ العِبَادِ نِعْمَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ عَرَّفَهُمْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: وَإِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ كَالمَاءِ فِي الدُّنْيَا.(١)

١٧٨ - **وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ** -رضي الله عنه-: إِنَّمَا تُنْقَضُ عُرَىٰ الإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً إِذَا نَشَأَ فِي الإِسْلَامِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الجَاهِلِيَّةَ.

١٧٩ - **قَالَ الشَّافِعِيُّ** -رحمه الله-: فَعَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ لِسَانِ العَرَبِ مَا بَلَغَهُ جَهْدُهُ، حَتَّىٰ يَشْهَدَ بِهِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَيَتْلُوَ بِهِ كِتَابَ اللهِ.

١٨٠ - **وَقَالَ** -رحمه الله-: فَأَمَّا فَرْضُ اللهِ عَلَىٰ القَلْبِ مِنَ الإِيمَانِ: فَالإِقْرَارُ وَالمَعْرِفَةُ وَالعَقْدُ، وَالرِّضَا، وَالتَّسْلِيمُ: بِأَنَّ اللهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

١٨١ - **وَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ:** مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَىٰ عَبْدٍ مِنَ العِبَادِ نِعْمَةً أَعْظَمَ مِنْ أَنْ عَرَّفَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

١٨٢ - **وَقَالَ الدَّارِمِيُّ** -رحمه الله-: وَلَنْ يَدْخُلَ الإِيمَانُ قَلْبَ رَجُلٍ حَتَّىٰ يَعْلَمَ **أَنَّ اللهَ لَمْ يَزَلْ إِلَهًا وَاحِدًا**، بِجَمِيعِ أَسْمَائِهِ، وَجَمِيعِ صِفَاتِهِ، لَمْ يَحْدُثْ لَهُ مِنْهَا شَيْءٌ، كَمَا لَمْ تَزَلْ وَحْدَانِيَّتُهُ -تعالى وتقدس-.(٢)

مَسْأَلَةٌ: عَلَىٰ مَاذَا يَقُومُ شَرْطُ العِلْمِ؟

- العِلْمُ بِاللهِ وَبِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ وَأَفْعَالِهِ.
- العِلْمُ بِأُلُوهِيَّتِهِ وَكَوْنِهِ المُسْتَحِقَّ وَحْدَهُ لِلْعِبَادَةِ.
- العِلْمُ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ.
- العِلْمُ بِالغَيْبِيَّاتِ مِنَ المَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ وَاليَوْمِ الآخِرِ.
- العِلْمُ بِرَسُولِهِ -صلى الله عليه وسلم- وَمُتَابَعَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَتَصْدِيقِهِ.
- العِلْمُ بِالبَعْثِ وَالحِسَابِ.

وَيُقَابِلُ شَرْطَ العِلْمِ كُفْرُ الجَهْلِ:

---

(١) رواه في «الشكر لابن أبي الدنيا» (ص٣٤).

(٢) النقض ١/ ٥٨.

وَمِنْ أَدِلَّتِهِ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الزخرف: ٣٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة الكهف: ١٠٣-١٠٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الأنعام: ٥٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الملك: ١٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الروم: ٢٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [سورة البقرة: ١١٨].

مَسْأَلَةٌ: أَسْبَابُ الجَهْلِ:

- العَجْزُ عَنْ إِدْرَاكِ الحَقِّ وَالوُصُولِ لِلْعِلْمِ.
- التَّفْرِيطُ وَعَدَمُ الاهْتِمَامِ وَالمُبَالَاةِ وَالحِرْصِ.
- الإِعْرَاضُ.
- العِنَادُ وَالكِبْرُ وَالتَّكْذِيبُ.

مَسْأَلَةٌ: حَقِيقَةُ كُفْرِ الجَهْلِ:

الجَاهِلُ بِالتَّوْحِيدِ لَا يُعْتَبَرُ مُؤْمِنًا وَلَا مُقِرًّا أَوْ آتِيًا بِهِ، إِذِ الجَاهِلُ بِالشَّيْءِ لَا يُسَمَّىٰ مُقِرًّا بِهِ وَشَاهِدًا عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ هَذَا فَمَنْ يَجْهَلُ مَعْنَىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَهُوَ يَقُولُهَا وَلَا يَعْلَمُ أَنَّهَا تُبْطِلُ الشِّرْكَ وَدُعَاءَ غَيْرِ اللهِ فَإِنَّهُ لَا يُعْتَبَرُ مُسْلِمًا بَلْ كَافِرًا مُشْرِكًا.

وَكُفَّارُ زَمَانِنَا أَشَدُّ شِرْكًا مِنْ مُشْرِكِي الجَاهِلِيَّةِ وَأَجْهَلُ مِنْهُمْ وَأَبْعَدُ عَنْ مَعْرِفَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَبُو لَهَبٍ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِنْ أَكْثَرِ عُلَمَاءِ الشِّرْكِ المُعَاصِرِينَ.

٢) اليَقِينُ المُنَافِي لِلشَّكِّ:

وَسَـادِسُـهَـا: وَهُوَ اليَقِينُ، وَضِـدُّهُ ... هُوَ: الشَّـكُّ فِي الدِّينِ القَوِيمِ المُحَمَّدِي
وَمَنْ شَـكَّ فَلْيَبْكِ عَلَىٰ رَفْضِ دِينِهِ ... وَيَعْلَمْ أَنْ قَدْ جَاءَ يَوْمًا بِمُوئِدِ
بِهَا قَلْبُهُ مُسْتَيْقِنًا جَاءَ ذِكْرُهُ ... عَنِ السَّيِّدِ المَعْصُومِ أَكْمَلِ مُرْشِدِ
وَلَا تَنْفَعُ المَرْءَ الشَّهَادَةُ فَاعْلَمَنْ ... إِذَا لَمْ يَكُنْ مُسْتَيْقِنًا ذَا تَجَرُّدِ

وَهُوَ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُتَيَقِّنًا أَنَّهُ هُوَ اللهُ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ غَيْرُ مُتَرَدِّدٍ فِي نَفْيِهَا عَنْ غَيْرِهِ، وَأَنْ تَتَيَقَّنَ أَنَّ مَنْ عَبَدَ غَيْرَهُ لَمْ يُحَقِّقْ أَصْلَ هَذِهِ الكَلِمَةِ، فَالشَّكُّ فِي كُفْرِ الطَّوَاغِيتِ وَالمُشْرِكِينَ العَابِدِينَ لَهُمْ كُفْرٌ مُنَاقِضٌ لِأَصْلِ التَّوْحِيدِ.

كَذَلِكَ لَا بُدَّ أَنْ يَجْزِمَ وَلَا يَتَرَدَّدَ فِي بُطْلَانِ جَمِيعِ الأَدْيَانِ الكُفْرِيَّةِ وَكُفْرِ أَتْبَاعِهَا وَأَنَّ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ فَهُوَ فِي النَّارِ.

وَأَنْ يُوقِنَ المَرْءُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَهُ الرُّبُوبِيَّةَ المُطْلَقَةَ وَالكَمَالَ المُطْلَقَ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

أَدِلَّةُ اليَقِينِ:

قَالَ اللهُ -ﷻ-: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [سورة الحجرات: ١٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أَيِ الذِينَ حَقَّقُوا أَصْلَ الإِيمَانِ بِاللهِ، فَمَنِ ارْتَابَ فِي شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ أَوْ شَكَّ فِي أَنَّ اللهَ هُوَ المُتَفَرِّدُ بِالعِبَادَةِ وَالمُلْكِ وَالتَّشْرِيعِ فَلَمْ يُحَقِّقْ أَصْلَ الإِيمَانِ بِاللهِ.

وَقَصَرَ -ﷻ- صِفَةَ الإِيمَانِ فِي الآيَةِ عَلَىٰ أَهْلِ اليَقِينِ.

فَاشْتَرَطَ اللهُ صِدْقَ إِيمَانِهِمْ كَوْنَهُمْ لَمْ يَرْتَابُوا أَيْ: لَمْ يَشُكُّوا فَأَمَّا المُرْتَابُ فَهُوَ مِنَ المُنَافِقِينَ الهَالِكِينَ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة التوبة: ٤٥].

جَعَلَ -ﷻ- الشَّكَّ وَالتَّرَدُّدَ وَالارْتِيَابَ وَعَدَمَ اليَقِينِ مِنَ النِّفَاقِ الأَكْبَرِ.

وَعَلَيْهِ فَلَا إِيمَانَ لِمَنْ قَالَهَا شَاكًّا مُرْتَابًا، وَلَوْ قَالَهَا بِعَدَدِ الأَنْفَاسِ، وَلَوْ صَرَخَ بِهَا حَتَّىٰ يَسْمَعَهُ جَمِيعُ النَّاسِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [سورة البقرة: ٢].

فَجَعَلَ -ﷺ- اليَقِينَ شَرْطًا لِلْإِيمَانِ الحَقِّ الصَّحِيحِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة التوبة: ٤٥].

١٨٣ - رُوِيَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ -مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَسْعُودٍ- قَالَ: الرَّيْبُ: الشَّكُّ، وَالكُفْرُ.(١)

١٨٤ - وَرُوِيَ عَنْ إِسْمَاعِيلَ السُّدِّيِّ-مِنْ طَرِيقِ أَسْبَاطٍ-قَوْلُهُ: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٤٥]، يَقُولُ: شَكَّتْ قُلُوبُهُمْ.(٢)

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة السجدة: ١٢].

فَانْظُرْ كَيْفَ فَهِمَ هَؤُلَاءِ الكَفَرَةُ أَنَّ قِوَامَ الدِّينِ وَالسَّلَامَةِ وَالنَّجَاةِ عَلَىٰ اليَقِينِ وَهُوَ مَنَاطُ ذَلِكَ كُلِّهِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة ق: ٢٥]، ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة سبأ: ٥٤]، ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [سورة ص: ٨]، ﴿بَل هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الدخان: ٩].

١٨٥ - قَالَ قَتَادَةُ: شَاكِينَ فِي وَحْدَانِيَّةِ اللهِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة يونس: ١٠٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الذاريات: ٢٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة يونس: ٣٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم -رحمه الله- ٦/ ١٨٠٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم -رحمه الله- ٦/ ١٨٠٧.

وَقَالَ تَعَالَىٰ عَنِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [سورة النساء: ١٤٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿* قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [سورة إبراهيم: ١٠].

١٨٦ - قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ: ﴿قَالَتْ﴾ لَهُمْ ﴿رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠] يَقُولُ: أَفِي التَّوْحِيدِ لِلهِ شَكٌّ، ﴿فَاطِرِ﴾ يَعْنِي: خَالِقُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠] إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ؛ ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠] وَالـ «مِنْ» هَاهُنَا صِلَةٌ، كَقَوْلِهِ -ﷻ-: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [سورة الشورى: ١٣].(١)

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة سبأ: ٥٤].

١٨٧ - رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ، فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سورة سبأ: ٥٤]، قَالَ: إِيَّاكُمْ وَالشَّكَّ وَالرِّيبَةَ؛ فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ عَلَىٰ شَكٍّ بُعِثَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَىٰ يَقِينٍ بُعِثَ عَلَيْهِ.(٢)

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الكهف: ٣٥-٣٨].

١٨٨ - رُوِيَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ -مِنْ طَرِيقِ ابْنِ وَهْبٍ- فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، قَالَ: شَكٌّ.(٣)

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة فصلت: ٢٣].

١٨٩ - رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ -مِنْ طَرِيقِ سَعِيدٍ- قَالَ: الظَّنُّ ظَنَّانِ؛ فَظَنٌّ مُنْجٍ، وَظَنٌّ مُرْدٍ،

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ٣٩٩ - ٤٠٠.

(٢) عزاه السيوطي إلىٰ عبد بن حميد، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه ابن جرير ١٥/ ٢٦٣.

قَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة البقرة: ٤٦]، قَالَ: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الحاقة: ٢٠]، وَهَذَا الظَّنُّ المُنْجِي، ظَنًّا يَقِينًا، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ [سورة فصلت: ٢٣] هَذَا ظَنٌّ مُرْدٍ.(١)

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٩].

١٩٠ - **رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، فِي الآيَةِ:** ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [سورة إبراهيم: ٩]، يَقُولُونَ: لَا نُصَدِّقُكُمْ فِيمَا جِئْتُمْ بِهِ؛ فَإِنَّ عِنْدَنَا فِيهِ شَكًّا قَوِيًّا.(٢)

١٩١ - **وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ:** وَقَالُوا: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [سورة إبراهيم: ٩]، وَكَذَبُوا، مَا فِي اللهِ -ﷻ- شَكٌّ، أَفِي مَنْ فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ، وَأَظْهَرَ لَكُمْ مِنَ النِّعَمِ وَالآلَاءِ المُتَظَاهِرَةِ مَا لَا يُشَكُّ فِي اللهِ -ﷻ- ؟!

١٩٢ - **وَجَاءَ فِي «تَفْسِيرِ الطَّبَرِيِّ»:** «وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ [سورة إبراهيم: ٩]، يَقُولُ: وَقَالُوا لِرُسُلِهِمْ: إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أَرْسَلَكُمْ بِهِ مَنْ أَرْسَلَكُمْ، مِنَ الدُّعَاءِ إِلَىٰ تَرْكِ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ وَالأَصْنَامِ ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾ [سورة إبراهيم: ٩] مِنْ حَقِيقَةِ مَا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ ﴿مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٩]، يَقُولُ: يُرِيبُنَا ذَلِكَ الشَّكُّ، أَيْ يُوجِبُ لَنَا الرِّيبَةَ وَالتُّهْمَةَ فِيهِ».(٣)

وَمِنَ السُّنَّةِ:

١٩٣ - **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، لَا يَلْقَىٰ اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ».**(٤)

فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَهُوَ شَاكٌّ فِي أَصْلٍ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ فَهُوَ كَافِرٌ بِاللهِ -ﷻ- وَلَا يَدْخُلُ

---

(١) أخرجه ابن جرير ٢٠/ ٤١٤.

(٢) عزاه السيوطي إلىٰ ابن جريرٍ، وابن أبي حاتم.

(٣) وجاء في «تفسير الطبري» (١٦/ ٥٣٦ ط التربية والتراث).

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٤٤).

الجَنَّةَ.

١٩٤ - **وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ لَهُ:** «اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ».[(١)]

فَنَفْيُ الشَّكِّ يُفِيدُ ثُبُوتَ اليَقِينِ وَنَفْيُ اليَقِينِ يُفِيدُ ثُبُوتَ الشَّكِّ.

وَمِنَ الآثَارِ:

١٩٥ - **وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ** -رضي الله عنه-: الْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ.[(٢)]

وَالجُزْءُ إِذَا عُبِّرَ عَنْهُ بِالكُلِّ كَانَ هَذَا الجُزْءُ أَصْلًا.

١٩٦ - **وَرُوِيَ عَنْ مَعْبَدٍ الجُهَنِيِّ، قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ** -رضي الله عنهما-: رَجُلٌ لَمْ يَدَعْ شَيْئًا مِنَ الخَيْرِ إِلَّا عَمِلَهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ شَاكًّا، قَالَ: «هَلَكَ أَلْبَتَّةَ».[(٣)]

١٩٧ - **وَقَالَ شَدَّادُ بْنُ عَبْدِ اللهِ لِوَاثِلَةَ:** مَا الرِّجْسُ؟ قَالَ: الشَّكُّ فِي اللهِ -عز وجل-.[(٤)]

١٩٨ - **قَالَ فُضَيْلٌ** -رحمه الله-: سَمِعْتُ المُغِيرَةَ الضَّبِّيَّ يَقُولُ: مَنْ شَكَّ فِي دِينِهِ فَهُوَ كَافِرٌ.[(٥)]

١٩٩ - **وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ** -رحمه الله-: مَا طُلِبَتِ الجَنَّةُ إِلَّا بِاليَقِينِ وَلَا هُرِبَ مِنَ النَّارِ إِلَّا بِاليَقِينِ، وَلَا أُدِّيَتِ الفَرَائِضُ إِلَّا بِاليَقِينِ، وَلَا صُبِرَ عَلَى الحَقِّ إِلَّا بِاليَقِينِ.[(٦)]

٢٠٠ - **وَرُوِيَ أَنَّ بِلَالَ بْنَ سَعْدٍ** -رحمه الله- **قَالَ فِي مَوْعِظَتِهِ:** عِبَادَ الرَّحْمَنِ، اعْلَمُوا أَنَّكُمْ تَعْمَلُونَ فِي أَيَّامٍ قِصَارٍ لِأَيَّامٍ طِوَالٍ، فِي دَارِ زَوَالٍ لِدَارِ مَقَامٍ، وَدَارِ حُزْنٍ وَنَصَبٍ لِدَارِ نَعِيمٍ وَخُلْدٍ، وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ مِنَ اليَقِينِ فَلَا يَتَعَنَّ.[(٧)]

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٥٢).

(٢) «صحيح البخاري» (١/ ١١).

(٣) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٦/ ١١٤٤).

(٤) «الشريعة للآجري» (٥/ ٢٢١٢).

(٥) السنة لعبد الله ١/ ٣٧٤ - ٣٧٧ (٨١٨).

(٦) اليقين لابن أبي الدنيا (ص: ١٠٢).

(٧) «اليقين لابن أبي الدنيا» (ص٤٩).

٢٠١ - **وَعَنْ عَامِرٍ -رحمه الله-، قَالَ: الشُّكْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ، وَالصَّبْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ، وَاليَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ.**(١)

وَمِنَ الإِجْمَاعِ:

٢٠٢ - **وَقَالَ البَرْبَهَارِيُّ -رحمه الله-:** شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لَا تُقْبَلُ مِنْ صَاحِبِهَا إِلَّا بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَخَالِصِ اليَقِينِ.(٢)

٢٠٣ - **وَقَالَ ابْنُ بَطَّةَ -رحمه الله-:** وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّكِّ فِي الإِيمَانِ، لِأَنَّ الإِيمَانَ إِقْرَارٌ لِلهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَخُضُوعٌ لَهُ فِي العُبُودِيَّةِ، وَتَصْدِيقٌ لَهُ فِي كُلِّ مَا قَالَ وَأَمَرَ وَنَهَىٰ، فَالشَّاكُّ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا كَافِرٌ لَا مَحَالَةَ.(٣)

٢٠٤ - **وَقَالَ أَبُو الحُسَيْنِ المَلَطِيُّ: وَجَمِيعُ** أَهْلِ القِبْلَةِ لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ: أَنَّ مَنْ شَكَّ فِي كَافِرٍ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِأَنَّ الشَّاكَّ فِي الكُفْرِ لَا إِيمَانَ لَهُ، لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ كُفْرًا مِنْ إِيمَانٍ.(٤)

٢٠٥ - **وَقَالَ الدَّارِمِيُّ -رحمه الله-:** أَسْمَاءُ اللهِ هِيَ تَحْقِيقُ صِفَاتِهِ، سَوَاءٌ عَلَيْكَ قُلْتَ: عَبَدْتُ اللهَ، أَوْ عَبَدْتُ الرَّحْمَنَ، أَوِ الرَّحِيمَ، أَوِ المَلِكَ العَزِيزَ الحَكِيمَ، وَسَوَاءٌ عَلَىٰ الرَّجُلِ قَالَ: كَفَرْتُ بِاللهِ، أَوْ قَالَ: كَفَرْتُ بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَوْ بِالخَالِقِ العَزِيزِ الحَكِيمِ، وَسَوَاءٌ عَلَيْكَ قُلْتَ: عَبْدُ اللهِ، أَوْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، أَوْ عَبْدُ العَزِيزِ، أَوْ عَبْدُ المَجِيدِ، وَسَوَاءٌ عَلَيْكَ قُلْتَ: يَا اللهُ يَا رَحْمَنُ، أَوْ يَا رَحِيمُ، أَوْ يَا مَلِكُ يَا عَزِيزُ يَا جَبَّارُ، بِأَيِّ اسْمٍ دَعَوْتَهُ مِنْ هَذِهِ الأَسْمَاءِ، أَوْ أَضَفْتَهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّمَا تَدْعُو اللهَ نَفْسَهُ، مَنْ شَكَّ فِيهِ فَقَدْ كَفَرَ.(٥)

٢٠٦ - **قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَحْنُونٍ:** «أَجْمَعَ العُلَمَاءُ عَلَىٰ أَنَّ شَاتِمَ النَّبِيِّ -ﷺ- المُتَنَقِّصَ لَهُ كَافِرٌ

---

(١) «الشكر لابن أبي الدنيا» (ص٢٤).

(٢) ناقلاً إجماع أهل السنة كما في «شرح السنة» (ص١٠٣).

(٣) في «الإبانة الكبرىٰ» (٢/ ٨٦٤).

(٤) التنبيه والرد علىٰ أَهْلِ الأهواء والبدع: (٤٠ - ٤١).

(٥) «النقض» (ص٤٧).

وَالوَعِيدُ جَارٍ عَلَيْهِ بِعَذَابِ اللهِ لَهُ وَحُكْمُهُ عِنْدَ الأُمَّةِ القَتْلُ وَمَنْ شَكَّ فِي كُفْرِهِ وَعَذَابِهِ كَفَرَ». (١)

٢٠٧ - **وَرُوِيَ عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ مُعَاذٍ الرَّازِيِّ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللهَ عَلَىٰ العَرْشِ بَائِنٌ مِنَ الخَلْقِ** وَقَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا؛ لَا يَشُكُّ فِي هَذِهِ المَقَالَةِ إِلَّا جَهْمِيٌّ رَدِيءٌ ضَلِيلٌ وَهَالِكٌ مُرْتَابٌ يَمْزُجُ اللهَ بِخَلْقِهِ وَيَخْلِطُ مِنْهُ الذَّاتَ بِالأَقْذَارِ وَالأَنْتَانِ. (٢)

وَإِجْمَاعُ السَّلَفِ عَلَىٰ كُفْرِ الوَاقِفَةِ الشُّكَّاكِ فِي القُرْآنِ.

إِجْمَاعُ السَّلَفِ عَلَىٰ كُفْرِ المُتَوَقِّفِ فِي حُكْمِ الجَهْمِيَّةِ.

مَسْأَلَةٌ: اليَقِينُ أَصْلٌ وَكَمَالٌ:

فَالأَصْلُ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ فِي تَعْرِيفِ شَرْطِ اليَقِينِ.

٢٠٨ - **وَيَدُلُّ عَلَىٰ الكَمَالِ قَوْلُ النَّبِيِّ** -ﷺ-: «**إِنَّ مِنْ ضَعْفِ اليَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَىٰ رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَىٰ مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ**».

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ حَاكِيًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَوْلَهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠].

٢٠٩ - **وَقَالَ الحَسَنُ** -رحمه الله-: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّ مِنْ ضَعْفِ يَقِينِكَ: أَنْ تَكُونَ بِمَا فِي يَدِكَ أَوْثَقَ مِنْكَ بِمَا فِي يَدِ اللهِ.

وَالنَّاسُ يَتَفَاوَتُونَ فِي كَمَالِ اليَقِينِ بِاللهِ وَدَرَجَاتِهِ وَتَرْكِ مَا يُخِلُّ بِكَمَالِهِ وَيَقْدَحُ فِيهِ.

أَمَّا اليَقِينُ المُتَعَلِّقُ بِأَصْلِ الإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُ الشَّكَّ وَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبٍ وَاحِدٍ.

وَإِذَا حَصَلَ اليَقِينُ قَامَتْ فِي القَلْبِ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ وَبِالتَّالِي تَحْصُلُ أَعْمَالُ الجَوَارِحِ وَإِذَا زَالَ اليَقِينُ زَالَتْ أَعْمَالُ القَلْبِ اضْطِرَارًا فَاليَقِينُ رُوحُ أَعْمَالِ القُلُوبِ التِي هِيَ المُحَرِّكُ لِأَعْمَالِ الجَوَارِحِ.

---

(١) «الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول» (ص٤).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ٤٩).

مَسْأَلَةٌ: (عَلَىٰ مَاذَا يَكُونُ اليَقِينُ)

- اليَقِينُ بِوُجُودِ اللهِ.
- اليَقِينُ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ.
- بِأُلُوهِيَّتِهِ.
- بِاسْتِحْقَاقِهِ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَكُفْرِ مَنْ عَبَدَ غَيْرَهُ.
- بِبُطْلَانِ كُلِّ مَعْبُودٍ دُونَهُ.
- تَفَرُّدِ اللهِ بِالكَمَالِ المُطْلَقِ.
- بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ.
- بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ -ﷺ-.
- بِالقُرْآنِ وَأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ وَوُجُوبِ العَمَلِ بِهِ.
- بِاليَوْمِ الآخِرِ وَالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ.
- بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ اللهُ وَرَسُولُهُ بِهِ.
- أَنَّ الحَقَّ وَاحِدٌ لَا يَتَعَدَّدُ.
- بِإِثْبَاتِ صِفَاتِ اللهِ العُلْيَا وَأَسْمَائِهِ الحُسْنَىٰ.

وَمِنْ لَوَازِمِ اليَقِينِ:

التَّوْحِيدُ وَالانْقِيَادُ لَهُ وَالكُفْرُ بِالطَّاغُوتِ وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ وَالتَّخَلُّصُ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ تَعَالَىٰ وَمُوَالَاةُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَمُعَادَاةُ أَعْدَاءِ الدِّينِ.

وَمِنَ اليَقِينِ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تَكْفِيرُ المُشْرِكِينَ وَالقِيَامُ بِمُعَادَاتِهِمْ وَجِهَادِهِمْ.

وَاليَقِينُ يُوجِبُ التَّوَكُّلَ عَلَىٰ اللهِ وَالطُّمَأْنِينَةَ وَالسَّكِينَةَ وَالرِّضَا.

مَسْأَلَةٌ: (مَرَاتِبُ اليَقِينِ).

- **اليَقِينُ: قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ [سورة التكاثر: ٥].
- **عَيْنُ اليَقِينِ: قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [سورة التكاثر: ٧].
- **حَقُّ اليَقِينِ: قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٥١﴾ [سورة الحاقة: ٥١].

مَسْأَلَةٌ: يُقَابِلُ شَرْطَ اليَقِينِ كُفْرُ الشَّكِّ.

وَهُوَ كُفْرُ الشَّكِّ وَالرَّيْبِ وَالظَّنِّ.

الشَّكُّ فِي الشُّعَبِ التِي ذُكِرَتْ كُفْرٌ بِاللهِ تَعَالَىٰ.

٣) الإِخْلَاصُ المُنَافِي لِلشِّرْكِ:

وَهَذَا الشَّرْطُ أَصْلُ الشُّرُوطِ وَأَهَمُّهَا وَالجَامِعُ لَهَا فَإِنَّ الإِخْلَاصَ رُكْنُ الدِّينِ القَوِيمِ وَلَا يُقْبَلُ عَمَلٌ وَلَا عِبَادَةٌ بِدُونِهِ وَهُوَ الغَايَةُ التِي مِنْ أَجْلِهَا خُلِقَ الخَلْقُ وَبُعِثَتِ الرُّسُلُ.

وَثَالِثُهَا: الإِخْلَاصُ، فَاعْلَمْ وَضِدُّهُ ... هُوَ الشِّرْكُ بِالمَعْبُودِ فِي كُلِّ مَقْصَدِ

كَمَا أَمَرَ اللهُ الكَرِيمُ نَبِيَّهُ ... بِسُورَةِ تَنْزِيلِ الكِتَابِ المُمَجَّدِ

وَهُوَ أَنْ تَجْعَلَ عِبَادَاتِكَ مِنْ تَوْحِيدٍ وَصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَقِيَامٍ وَجِهَادٍ وَحَجٍّ وَصَدَقَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ خَالِصَةً لِلهِ، تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَهُ وَلَا تُرِيدُ بِذَلِكَ مَدْحًا وَلَا ثَنَاءً وَلَا رِئَاسَةً وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الأُمُورِ التِي تُنَاقِضُ الإِخْلَاصَ.

وَيُعَبَّرُ عَنِ الإِخْلَاصِ بِعِدَّةِ أَسْمَاءٍ وَمِنْهَا:

- النِّيَّةُ: كَمَا فِي الحَدِيثِ المَشْهُورِ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ».
- القَصْدُ.
- الابْتِغَاءُ: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠﴾ [سورة الليل: ٢٠].

٢١٠ - وَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ».[1]

- الإِرَادَةُ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥٢﴾ [سورة آل عمران: ١٥٢].

وَالأَدِلَّةُ عَلَىٰ هَذَا فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا:

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ

---

(١) «صحيح البخاري» (١/ ٤٧٨).

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٢٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة الزمر: ٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة الزمر: ١١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [سورة الزمر: ١٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة غافر: ٦٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [سورة البينة: ٥].

فَقَرْنُ اللهِ -ﷻ- لِلْعِبَادَةِ مَعَ الإِخْلَاصِ فِي كَثِيرٍ مِنَ المَوَاضِعِ فِي كِتَابِهِ يُبَيِّنُ لَكَ أَنَّ العِبَادَةَ لَا تُقْبَلُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ خَالِصَةً لِلهِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ [سورة مريم: ٥١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الحجر: ٣٩-٤٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٥٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿* وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة لقمان: ٢٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة النساء: ١٢٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الحج: ٣١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ [سورة الشرح: ٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الليل: ٢٠].

وَمِنَ السُّنَّةِ:

٢١١ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «قَالَ اللهُ -ﷻ-: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».[(١)]

فَهَذَا الحَدِيثُ صَرِيحٌ فِي أَنَّ اللهَ -ﷻ- لَا يَقْبَلُ مِنَ العَبْدِ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعَهُ فِيهِ غَيْرَهُ.

٢١٢ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ».[(٢)]

وَمِنَ الآثَارِ:

٢١٣ - رُوِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْعَثِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [سورة هود: ٧] قَالَ: أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، قَالَ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ حَتَّىٰ يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ إِذَا كَانَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ: إِذَا كَانَ عَلَىٰ السُّنَّةِ.[(٣)]

٢١٤ - قَالَ أَبُو زَكَرِيَّا الجُشَمِيُّ: أَوْصَىٰ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ أَنْطَاكِيَةَ مِنَ الأَزْدِ أَنْ يُكْتَبَ عَلَىٰ قَبْرِهِ أَعِدَّ لِلهِ يَوْمَ تَلْقَاهُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تَقُولُهَا مُخْلِصًا عَسَاهُ بِهَا يَرْحَمُكَ اللهُ.[(٤)]

مَسْأَلَةٌ: (مَا يُضَادُّ الإِخْلَاصَ)

١-الشِّرْكُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهِ فِي الأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ وَرَأْسُهُ الشِّرْكُ فِي العِبَادَةِ.

وَمِمَّا يَنْقُصُهُ (الرِّيَاءُ وَالسُّمْعَةُ).

وَصُورَتُهُ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ لَكِنْ لَا يُرِيدُ وَجْهَهُ وَثَوَابَهُ وَإِنَّمَا يُرِيدُ الدُّنْيَا أَوْ مَدْحَ النَّاسِ أَوْ يُرِيدُ اللهَ وَالنَّاسَ وَيَعْمَلُ لَهُمَا مُشْرِكًا لَهُمَا فِي التَّوَجُّهِ وَالقَصْدِ.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢٩٨٥).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٩٩).

(٣) «الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا» (ص٥٠).

(٤) «القبور لابن أبي الدنيا» (ص١٧٨).

٤) الصِّدْقُ المُنَافِي لِلْكَذِبِ:

وَسَـابِعُهَا: الصِّـدْقُ المُنَافِي لِضِـدِّهِ ... مِنَ الكَـذِبِ الـدَّاعِي إِلَىٰ كُـلِّ مُفْسِـدِ
وَالصِّـدْقُ هُوَ مُطَـابَقَـةُ الكَلَامِ لِلْوَاقِعِ ... وَاتِّـفَـاقُ الـظَّـاهِـرِ مَـعَ الـبَـاطِـنِ.

وَهُوَ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ صَادِقًا مِنْ قَلْبِكَ لَيْسَ كَحَالِ المُنَافِقِينَ الكَاذِبِينَ صَادِقًا فِي اعْتِقَادِ مَدْلُولِهَا أَيْ أَنَّهُ يُوَافِقُ مَا أَظْهَرَهُ وَقَالَهُ بِلِسَانِهِ فَيُوَافِقُ بَاطِنُهُ ظَاهِرَهُ فَلَا يَقُولُهَا بِلِسَانِهِ وَقَلْبُهُ مُكَذِّبًا لَا يُرِيدُهَا وَلَا يُحِبُّهَا بَلْ يُبْغِضُهَا وَلَا يَقْبَلُهَا وَإِنَّمَا قَالَهَا لِمَصْلَحَةٍ أَوْ خَوْفٍ أَوْ مُجَامَلَةٍ وَهَذَا هُوَ حَالُ المُنَافِقِينَ الكَاذِبِينَ فِي شَهَادَتِهِمْ بِالتَّوْحِيدِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٣].

فَاللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- إِذَا عَلِمَ مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ أَدْخَلَهُ الجَنَّةَ، وَإِذَا عَلِمَ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَاذِبًا أَدْخَلَهُ النَّارَ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [سورة الزمر: ٣٣].

٢١٥ - **رَوَىٰ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ:** مَنْ جَاءَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [سورة الليل: ٥-٦].

وَالحُسْنَىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝٢١﴾ [سورة محمد: ٢١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝٣٣﴾ [سورة الزمر: ٣٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١١٩﴾ [سورة المائدة: ١١٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٢٤﴾ [سورة الأحزاب: ٢٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ

وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحجرات: ١٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة التوبة: ٤٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الواقعة: ٥٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [سورة الإسراء: ٨٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ عَنِ الْمُنَافِقِينَ الْكَاذِبِينَ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [سورة المنافقون: ١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٢].

٢١٦ - **قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ** -رحمه الله-: أَحسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ حَتَّىٰ أَبْتَلِيَهُمْ فَأَعْرِفَ الصَّادِقَ مِنَ الكَاذِبِ.(١)

وَمِنَ السُّنَّةِ:

٢١٧ - **عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ أَنَّ رَجُلًا أَتَىٰ النَّبِيَّ -ﷺ- فَسَأَلَهُ عَنِ الإِسْلَامِ، فَذَكَرَ لَهُ فَرَائِضَهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ:** لَا أَزِيدُ عَلَىٰ هَذَا وَلَا أَنْقُصُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**».(٢)

فَعَلَّقَ فَلَاحَهُ بِالصِّدْقِ، وَمَفْهُومُ الحَدِيثِ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ صَادِقًا فِي تَأْدِيَةِ هَذِهِ الفَرَائِضِ فَلَا يَكُونُ مِنَ المُفْلِحِينَ بَلْ هُوَ مِنَ الهَالِكِينَ.

٢١٨ - **عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَىٰ النَّارِ».**(٣)

فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَاذِبًا فَلَا يُحَرِّمُهُ اللهُ عَلَىٰ النَّارِ.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١٧١٣٣).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١٨٩١).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١٢٨).

٢١٩ - **وَرَوَىٰ أَحْمَدُ -رحمه الله- أَنَّ عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ ذَهَبَ بَصَرُهُ، فَقَالَ:** يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ جِئْتَ صَلَّيْتَ فِي دَارِي -أَوْ قَالَ: فِي بَيْتِي- لَاتَّخَذْتُ مُصَلَّاكَ مَسْجِدًا، فَجَاءَهُ النَّبِيُّ -ﷺ-، فَصَلَّىٰ فِي دَارِهِ -أَوْ قَالَ: فِي بَيْتِهِ- وَاجْتَمَعَ قَوْمُ عِتْبَانَ إِلَىٰ النَّبِيِّ -ﷺ-، قَالَ: فَذَكَرُوا مَالِكَ بْنَ الدُّخْشُمِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ وَإِنَّهُ يُعَرِّضُونَ بِالنِّفَاقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «**أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟**» قَالُوا: بَلَىٰ، قَالَ: «**وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَقُولُهَا عَبْدٌ صَادِقٌ بِهَا إِلَّا حُرِّمَتْ عَلَيْهِ النَّارُ**».(١)

وَمِنَ الآثَارِ:

٢٢٠ - **قِيلَ لِحُذَيْفَةَ:** مَا النِّفَاقُ؟ قَالَ: الرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ بِالإِسْلَامِ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ.(٢)

٢٢١ - **وَقَالَ الحَسَنُ:** «كَانُوا يَقُولُونَ: مِنَ النِّفَاقِ اخْتِلَافُ اللِّسَانِ وَالقَلْبِ، وَاخْتِلَافُ السِّرِّ وَالعَلَانِيَةِ، وَاخْتِلَافُ الدُّخُولِ وَالخُرُوجِ».(٣)

٢٢٢ - **وَقَالَ الأَوْزَاعِيُّ:** لَا يَسْتَقِيمُ الإِيمَانُ إِلَّا بِالقَوْلِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ الإِيمَانُ وَالقَوْلُ إِلَّا بِالعَمَلِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ الإِيمَانُ وَالقَوْلُ وَالعَمَلُ إِلَّا بِنِيَّةٍ مُوَافِقَةٍ لِلسُّنَّةِ، فَكَانَ مَنْ مَضَىٰ مِمَّنْ سَلَفَ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الإِيمَانِ وَالعَمَلِ، العَمَلُ مِنَ الإِيمَانِ، وَالإِيمَانُ مِنَ العَمَلِ، وَإِنَّمَا الإِيمَانُ اسْمٌ جَامِعٌ كَمَا جَمَعَ هَذِهِ الأَدْيَانَ اسْمُهَا، وَتَصْدِيقُهُ العَمَلُ، فَمَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَعَرَفَ بِقَلْبِهِ وَصَدَّقَ ذَلِكَ بِعَمَلِهِ، فَذَلِكَ العُرْوَةُ الوُثْقَىٰ التِي لَا انْفِصَامَ لَهَا، وَمَنْ قَالَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَعْرِفْ بِقَلْبِهِ وَلَمْ يُصَدِّقْ بِعَمَلِهِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ، وَكَانَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ.(٤)

٢٢٣ - **وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ:** لَا بُدَّ لِأَهْلِ هَذَا الدِّينِ مِنْ أَرْبَعٍ: دُخُولٌ فِي دَعْوَةِ الإِسْلَامِ، وَلَا بُدَّ مِنَ الإِيمَانِ وَتَصْدِيقٍ بِاللهِ وَبِالمُرْسَلِينَ أَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَبِالجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، وَلَا بُدَّ أَنْ (تَعْمَلَ) عَمَلًا (تُصَدِّقُ) بِهِ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَعْلَمَ عِلْمًا تُحْسِنُ بِهِ عَمَلَكَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ

---

(١) رواه أحمد -رحمه الله- في المسند ١٢٩٢٩.

(٢) «تهذيب الآثار» (٢/ ٦٤٢).

(٣) «السنة لأبي بكر بن الخلال» (٥/ ٧٢).

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٥/ ٩٥٦).

لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ [سورة طه: ٨٢].[(١)]

٢٢٤ - **وَقَالَ البَرْبَهَارِيُّ نَاقِلًا إِجْمَاعَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَمَا فِي «شَرْحِ السُّنَّةِ» (ص١٠٣):** شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لَا تُقْبَلُ مِنْ صَاحِبِهَا إِلَّا بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَخَالِصِ اليَقِينِ.

٢٢٥ - **قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: قُولُوا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ صَادِقًا لَا يَتَعَنَّىٰ.**[(٢)]

وَقَالَ أَبُو يَعْقُوبَ: الصِّدْقُ مُوَافَقَةُ الحَقِّ فِي السِّرِّ وَالعَلَانِيَةِ، وَحَقِيقَةُ الصِّدْقِ القَوْلُ بِالحَقِّ فِي مَوَاطِنِ الهَلَكَةِ.

مَسْأَلَةٌ: مَا يُضَادُّ الصِّدْقَ وَيُنَاقِضُهُ

الصِّدْقُ يُضَادُّهُ الكَذِبُ وَهُوَ النِّفَاقُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِقَوْلِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ بِاللِّسَانِ، مَعَ تَحَقُّقِ الكَذِبِ فِي قَلْبِهِ وَبَاطِنِهِ فِي شَهَادَتِهِ بِهَا، كَمَا حَكَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَنِ المُنَافِقِينَ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [سورة المنافقون: ١].

وَذَلِكَ لِأَنَّ الشَّهَادَةَ تَسْتَلْزِمُ الصِّدْقَ وَالتَّصْدِيقَ ظَاهِرًا وَبَطْنًا قَوْلًا وَعَمَلًا وَانْقِيَادًا بِمَدْلُولِهَا وَمَا تَقْتَضِيهِ الشَّهَادَةُ.

٢٢٦ - **قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ:** الصِّدْقُ وَالكَذِبُ يَعْتَرِكَانِ فِي القَلْبِ حَتَّىٰ يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ.[(٣)]

مَسْأَلَةٌ: الصِّدْقُ أَصْلٌ وَكَمَالٌ

الصِّدْقُ مَثَلُهُ مَثَلُ مُعْظَمِ العِبَادَاتِ وَشُعَبِ الإِيمَانِ التِي تَنْقَسِمُ إِلَىٰ أَصْلٍ وَكَمَالٍ: فَالأَصْلُ لَا يَصِحُّ الإِسْلَامُ إِلَّا بِهِ، وَيَتَوَقَّفُ قَبُولُ الإِسْلَامِ عَلَىٰ تَحَقُّقِهِ، وَتَارِكُ الأَصْلِ كَافِرٌ لَا دِينَ مَعَهُ.

وَالكَمَالُ عَلَىٰ دَرَجَاتٍ:

مِنْهُ الوَاجِبُ الذِي يَأْثَمُ تَارِكُهُ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَكْفُرُ وَمِنْهُ المُسْتَحَبُّ.

وَيَتَفَاوَتُ أَهْلُ التَّوْحِيدِ فِي هَذِهِ المَنْزِلَةِ وَهَذَا القِسْمِ أَعْنِي الكَمَالَ.

---

(١) «مصنف ابن ابي شيبة -ﷺ-» (١٧/ ٥٩ ت الشثري).

(٢) صفة الصفوة ٣/ ٢٠١.

(٣) موسوعة ابن أبي الدنيا ٥/ ٢١٣.

بَيْنَ ثَلَاثَةِ مَرَاتِبَ:

الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ وَالمُقْتَصِدُ وَالسَّابِقُ بِالخَيْرَاتِ.

فَالأَصْلُ فِي الصِّدْقِ: هُوَ المُتَعَلِّقُ بِالتَّوْحِيدِ وَكَلِمَتِهِ وَالصِّدْقُ بِهَا وَفِي قَوْلِهَا.

وَالكَمَالُ فِي الصِّدْقِ: هُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِأَفْرَادِ الدِّينِ مِنْ حَيْثُ العَمَلِ بِهِ وَالتَّيَقُّنِ بِهِ، وَلِذَلِكَ الصِّدِّيقُ هُوَ مَنْ يُصَدِّقُ قَوْلَهُ بِعَمَلِهِ وَتَنَافَسَ أَهْلُ الإِيمَانِ فِي تَحْقِيقِ كَمَالَاتِ الصِّدْقِ فَأَعْلَىٰ النَّاسِ الصِّدِّيقُ ثُمَّ الصَّدُوقُ ثُمَّ الصَّادِقُ.

٢٢٧ - **رُوِيَ عَنْ جَعْفَرٍ قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ -رحمه الله- يَقُولُ:** إِنَّ الصِّدْقَ يَبْدُو فِي القَلْبِ ضَعِيفًا، كَمَا يَبْدُو نَبَاتُ النَّخْلَةِ يَبْدُو غُصْنًا وَاحِدًا، فَإِذَا نَتَفَهَا صَبِيٌّ، ذَهَبَ أَصْلُهَا وَإِنْ أَكَلَتْهَا عَنْزٌ ذَهَبَ أَصْلُهَا فَتُسْقَىٰ فَتَنْشُرُ، وَتُسْقَىٰ فَتَنْشُرُ حَتَّىٰ يَكُونَ لَهَا أَصْلٌ أَصِيلٌ يُوطَأُ، وَظِلٌّ يُسْتَظَلُّ بِهِ، وَثَمَرَةٌ يُؤْكَلُ مِنْهَا، كَذَلِكَ الصِّدْقُ يَبْدُو فِي القَلْبِ ضَعِيفًا، فَيَتَفَقَّدُهُ صَاحِبُهُ وَيَزِيدُهُ اللهُ تَعَالَىٰ، وَيَتَفَقَّدُهُ صَاحِبُهُ فَيَزِيدُهُ اللهُ حَتَّىٰ يَجْعَلَهُ اللهُ بَرَكَةً عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَيَكُونُ كَلَامُهُ دَوَاءً لِلْخَاطِئِينَ، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ مَالِكٌ: أَمَا رَأَيْتُمُوهُمْ؟ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ نَفْسِهِ، فَيَقُولُ: بَلَىٰ! وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْنَاهُمْ؛ الحَسَنُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَشْبَاهُهُمْ، الرَّجُلُ مِنْهُمْ يُحْيِي اللهُ بِكَلَامِهِ الفِئَامَ مِنَ النَّاسِ.(١)

٢٢٨ - **وَكَانَ عُمَرُ -رضي الله عنه- يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ:** لَيْسَ فِيمَا دُونَ الصِّدْقِ مِنَ الحَدِيثِ خَيْرٌ، مَنْ يَكْذِبْ يَفْجُرْ، وَمَنْ يَفْجُرْ يَهْلِكْ.(٢)

مَسْأَلَةٌ: أَقْسَامُ الصِّدْقِ:

الصِّدْقُ القَلْبِيُّ: وَهَذَا يَكُونُ بِقَوْلِ القَلْبِ وَعَمَلِهِ وَهَذَا أَصْلُ الصِّدْقِ وَأَسَاسُهُ.

الصِّدْقُ القَوْلِيُّ: وَهُوَ يَكُونُ بِاللِّسَانِ.

الصِّدْقُ العَمَلِيُّ: وَيَكُونُ بِالفِعْلِ وَعَمَلِ الجَوَارِحِ.

مَسْأَلَةٌ: عَلَامَاتُ الصِّدْقِ وَآثَارُهُ:

طُمَأْنِينَةُ القَلْبِ وَمِنْ عَلَامَاتِ الكَذِبِ وَآثَارِهِ حُصُولُ الرِّيبَةِ؛

---

(١) الحلية ١/ ٤١٨.

(٢) موسوعة ابن أبي الدنيا ٥/ ٢٠٩.

٢٢٩ - قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «الصِّدْقُ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الكَذِبَ رِيبَةٌ».(١)

٢٣٠ - وَمِنْ آثَارِهِ وَعَلَامَاتِهِ أَنَّهُ بَرَكَةٌ؛ فَفِي الحَدِيثِ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا».(٢)

٢٣١ - وَمِنْ آثَارِهِ حُصُولُ البِرِّ الهَادِي لِلْجَنَّةِ كَمَا فِي الحَدِيثِ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا».(٣)

٥) المَحَبَّةُ المُنَافِيَةُ لِلْبُغْضِ:

وَرَابِعُهَا: شَرْطُ المَحَبَّةِ، فَلْتَكُنْ ... مُحِبًّا لِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الهُدَىٰ
وَإِخْلَاصُ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ كُلِّهَا ... كَذَا النَّفْيُ لِلشِّرْكِ المُفَنِّدِ وَالرَّدِّ
وَمَنْ كَانَ ذَا حُبٍّ لِمَوْلَاهُ إِنَّمَا ... يَتِمُّ بِحُبِّ الدِّينِ دِينِ مُحَمَّدِ

وَقِيلَ:

وَمَنْ كَانَ ذَا حُبٍّ لِمَوْلَاهُ إِنَّمَا ... يَتِمُّ بِحُبِّ الدِّينِ دِينِ مُحَمَّدِ
فَعَادِ الَّذِي عَادَىٰ لِدِينِ مُحَمَّدِ ... وَوَالِ الَّذِي وَالَاهُ مِنْ كُلِّ مُهْتَدِ

وَهِيَ أَنْ تُحِبَّ اللهَ -ﷻ- وَدِينَهُ وَنَبِيَّهُ -ﷺ- وَتُبْغِضَ أَعْدَاءَ اللهِ -ﷻ- وَأَعْدَاءَ نَبِيِّهِ -ﷺ-، وَأَنْ تُحِبَّ كُلَّ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ وَكُلَّ أَوَامِرِ اللهِ -ﷻ- وَتُبْغِضَ مَنْ أَبْغَضَهَا.

فَهَذِهِ المَحَبَّةُ التِي هِيَ مَحَبَّةُ اللهِ وَرَسُولِهِ هِيَ أَصْلُ التَّوْحِيدِ وَعُمْدَةُ الإِسْلَامِ وَعَمُودُهُ فَمَنْ لَا مَحَبَّةَ لَا تَوْحِيدَ وَلَا إِسْلَامَ البَتَّةَ.

قَالَ اللهُ -ﷻ-: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾

---

(١) أخرجه أحمد -رحمه الله- ٣/ ٢٤٨ - ٢٤٩ (١٧٢٣)، ٣/ ٢٥٢ (١٧٢٧)، والترمذي ٤/ ٤٩٠ - ٤٩١ (٢٦٨٧)، والنسائي ٨/ ٣٢٧ (٥٧١١)، وابن خزيمة ٤/ ١٠٣ (٢٣٤٨)، وابن حبان ٢/ ٤٩٨ - ٤٩٩ (٧٢٢)، والحاكم ٢/ ١٥ (٢١٦٩)، ٢/ ١٦ (٢١٧٠)، ٤/ ١١٠ (٧٠٤٦).

(٢) رواه الإمام أحمد -رحمه الله- ٣: ٤٠٢، والبخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ٤٢٣)، ومسلم (٢٦٠٧)، وأبو داود (٤٩٨٩)، والنسائي (١٩٧٢) من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-.

[سورة البقرة: ١٦٥].

فَجَعَلَ اللهُ مَنْ يُحِبُّ غَيْرَهُ كَحُبِّهِ لِلهِ فَقَدِ اتَّخَذَهُ نِدًّا مَعَ اللهِ -ﷻ-.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [سورة المائدة: ٥٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [سورة آل عمران: ٣١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾ [سورة التوبة: ٢٤].

وَمِنَ السُّنَّةِ:

٢٣٢ - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضي الله عنه-، عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ -ﷻ-، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ، بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ». (١)

٢٣٣ - عَنْ أَنَسٍ -رضي الله عنه-، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». (٢)

٢٣٤ - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضي الله عنه-، عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ». (٣)

٢٣٥ - عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ: «إِنَّ أَوْثَقَ عُرَىٰ الْإِيمَانِ أَنْ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢١).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١٥).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٦٩٤١).

تُحِبَّ فِي اللهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللهِ». (١)

وَيَتَفَرَّعُ عَنْ هَذِهِ المَحَبَّةِ مَحَبَّةُ المُؤْمِنِينَ وَالوَلَاءُ لَهُمْ، وَبُغْضُ الكَافِرِينَ وَالبَرَاءَةُ مِنْهُمْ.

وَأَحْبِبْ لِحُبِّ اللهِ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا ... وَأَبْغِضْ لِبُغْضِ اللهِ أَهْلَ التَّمَرُّدِ
وَمَا الدِّينُ إِلَّا الحُبُّ وَالبُغْضُ وَالوَلَا ... كَذَاكَ البَرَا مِنْ كُلِّ غَاوٍ وَمُعْتَدِ

٦) الانْقِيَادُ المُنَافِي لِلتَّرْكِ:

الانْقِيَادُ: هُوَ الخُضُوعُ وَالاسْتِسْلَامُ.

وَمِنْ مَعَانِي الانْقِيَادِ: الإِذْعَانُ وَالامْتِثَالُ وَالطَّاعَةُ وَالاسْتِسْلَامُ وَالتَّسْلِيمُ وَالاتِّبَاعُ وَالانْصِيَاعُ وَالذُّلُّ وَالخُضُوعُ وَالخُشُوعُ وَالإِخْبَاتُ وَالاسْتِكَانَةُ وَالاطْمِئْنَانُ وَالتَّوَاضُعُ وَالاسْتِخْذَاءُ وَالخُنُوعُ وَالتَّقْوَىٰ.

وَمَعْنَىٰ هَذَا الشَّرْطِ: أَنَّ مَنْ قَالَهَا عَالِمًا بِمَعْنَاهَا صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ مُرِيدًا بِهَا وَجْهَ اللهِ مُلْتَزِمًا قَابِلًا، بَقِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْقَادَ بِالفِعْلِ لِمَا الْتَزَمَ بِهِ، فَإِذَا لَمْ يُخْلِصِ العِبَادَةَ لِلهِ وَيَتَبَرَّأْ مِنَ الشِّرْكِ فَهَذَا لَا تَنْفَعُهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

فَيَجِبُ عَلَيْهِ الالْتِزَامُ بِدِينِ اللهِ وَشَرْعِهِ وَامْتِثَالُ أَمْرِهِ وَالقِيَامُ بِطَاعَتِهِ وَالعَمَلُ بِكِتَابِهِ وَعِبَادَتُهُ وَحْدَهُ وَعَدَمُ الامْتِنَاعِ عَنْ ذَلِكَ وَلَا التَّوَلِّي عَنْ طَاعَتِهِ وَلَا تَرْكُ فَرَائِضِهِ وَلَا مُخَالَفَةُ أَمْرِهِ.

وَكَذَلِكَ الاسْتِسْلَامُ لِرَسُولِهِ وَاتِّبَاعُ مَا جَاءَ بِهِ وَالعَمَلُ بِسُنَّتِهِ وَالرِّضَا بِحُكْمِهِ وَطَاعَةُ أَمْرِهِ.

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ تَرَكُوا الانْقِيَادَ بِالعَمَلِ بِمَا تَقْتَضِيهِ مِنَ الإِخْلَاصِ وَنَفْيِ الشِّرْكِ لِكِبْرٍ أَوْ هَوًىٰ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ هَذَا الشَّرْطِ جُمْلَةٌ مِنَ الأَدِلَّةِ وَمِنْ ذَلِكَ:

قَوْلُ اللهِ -ﷻ-: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [سورة الزمر: ٥٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤﴾ [سورة الأنعام: ١٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ

(١) رواه الإمام أحمد -رحمه الله- في مسنده (١٨٥٢٤).

﴿ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة يونس: ٧٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿* وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة لقمان: ٢٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة النساء: ١٢٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [سورة الحجر: ٩٢].

٢٣٦ - رُوِيَ عَنْ أَبِي العَالِيَةِ الرِّيَاحِيِّ -مِنْ طَرِيقِ الرَّبِيعِ- فِي قَوْلِهِ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [سورة الحجر: ٩٢-٩٣]، قَالَ: يُسْأَلُ العِبَادُ كُلُّهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَنْ خَلَّتَيْنِ: عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَعَمَّا أَجَابُوا بِهِ المُرْسَلِينَ.(١)

٢٣٧ - وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدِ بْنِ جَبْرٍ -رحمه الله- مِنْ طَرِيقِ لَيْثٍ- فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [سورة الحجر: ٩٢-٩٣]، قَالَ: عَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.(٢)

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الفتح: ٢٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الأحقاف: ١٣].

٢٣٨ - عَنْ نِمْرَانَ البَجَلِيِّ، قَالَ: قَرَأْتُ هَذِهِ الآيَةَ عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾، قَالَ: هُمُ الذِينَ لَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا.(٣)

وَمِنَ السُّنَّةِ:

٢٣٩ - عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا

---

(١) أخرجه ابن جرير ١٤/ ١٤١، وعزاه السيوطي إلىٰ ابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٥١.

(٣) أخرجه سفيان الثوري ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ-وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ غَيْرَكَ-قَالَ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، فَاسْتَقِمْ».[١]

فَالاسْتِقَامَةُ عَلَىٰ أَوَامِرِ اللهِ -ﷻ- مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الإِيمَانِ بِاللهِ وَلَا يَنْفَعُ الإِيمَانُ بِاللهِ إِلَّا بِتَحْقِيقِهَا.

٢٤٠- عَنْ عُبَادَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، أَطَاعَ بِهَا قَلْبُهُ، وَذَلَّ بِهَا لِسَانُهُ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَىٰ النَّارِ».[٢]

٢٤١- عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، إِلَّا مَنْ أَبَىٰ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ يَأْبَىٰ؟! قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ. وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ».[٣]

فَهَذَا الشَّرْطُ يَنْتَقِضُ فِي حَقِّ مَنْ أَتَىٰ بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ:

الأَوَّلُ: الوُقُوعُ فِي الشِّرْكِ، فَإِنَّ مَنْ أَشْرَكَ لَمْ يَحْصُلْ مِنْهُ الانْقِيَادُ لِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ.

الثَّانِي: أَنْ لَا يَنْقَادَ جُمْلَةً لِشَرْعِ اللهِ فَلَا يَعْمَلَ صَالِحًا بِقَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ قَاصِدًا وَجْهَ اللهِ، فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ العَمَلَ بِالشَّرِيعَةِ بِالكُلِّيَّةِ فَقَدْ وَقَعَ فِي التَّوَلِّي وَهُوَ ضِدُّ الانْقِيَادِ.

فَإِنَّ الانْقِيَادَ بِالعَمَلِ بِشَرْعِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الجُمْلَةِ مِنْ شُرُوطِ الانْتِفَاعِ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَلَا يَتَنَافَىٰ هَذَا مَعَ حُصُولِ التَّقْصِيرِ بِتَرْكِ بَعْضِ الوَاجِبَاتِ وَإِنَّمَا الحَدِيثُ يَتَعَلَّقُ بِالتَّرْكِ الكَامِلِ.

وَكَلَامُ اللهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ إِمَّا خَبَرٌ أَوْ أَمْرٌ وَالخَبَرُ يَسْتَوْجِبُ تَصْدِيقَ المُخْبِرِ وَالأَمْرُ يَسْتَوْجِبُ الانْقِيَادَ وَالاسْتِسْلَامَ.

٧) القَبُولُ المُنَافِي لِلرَّدِّ:

وَمِنْ شَرْطِهَا وَهُوَ الْقَبُولُ وَضِدُّهُ ... هُوَ الرَّدُّ فَافْهَمْ ذَلِكَ الْقَيْدَ تَرْشُدِ

كَحَالِ قُرَيْشٍ حِينَ لَمْ يَقْبَلُوا الْهُدَىٰ ... وَرَدُّوهُ لِمَا أَنْ عَتَوْا فِي التَّمَرُّدِ

وَقَدْ عَلِمُوا مِنْهَا الْمُرَادَ وَأَنَّهَا ... تَدُلُّ عَلَىٰ تَوْحِيدِهِ وَالتَّفَرُّدِ

فَقَالُوا كَمَا قَدْ قَالَهُ اللهُ عَنْهُمْ ... بِسُورَةِ (ص) فَاعْلَمَنْ ذَاكَ تَهْتَدِ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٦٢).

(٢) رواه الطبراني في معجمه الأوسط (١٣٢٤).

(٣) رواه البخاري (٦/ ٢٩٨).

فَصَـــارَتْ بِـهِ أَمْـوَالُـهُـمْ وَدِمَـاءُهُـمْ حَـلَالًا وَأَغْـنَـامًـا لِـكُـلِّ مُـوَحِّـدِ

مَعْنَىٰ القَبُولِ وَصِفَةُ تَحْقِيقِهِ: وَهُوَ أَنْ تَقْبَلَ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ وَلَا تَرُدَّ شَيْئًا مِنْ أَوَامِرِ اللهِ -ﷻ- وَشَرَائِعِ الإِسْلَامِ بَلْ تَقْبَلُهَا كُلَّهَا فَإِنَّ الكَلِمَةَ لَا تَنْفَعُ صَاحِبَهَا إِذَا نَطَقَ بِهَا عَالِمًا بِمَعْنَاهَا مُسْتَيْقِنًا بِمُقْتَضَاهَا مُصَدِّقًا بِهَا حَتَّىٰ يَقْبَلَهَا وَيَلْتَزِمَ العَمَلَ بِهَا.

فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُوقِنُ بِصِحَّةِ مَدْلُولِ شَهَادَةِ التَّوْحِيدِ وَيُصَدِّقُ بِأَنَّ الإِسْلَامَ هُوَ الدِّينُ الحَقُّ لَكِنَّهُ يَأْبَىٰ الدُّخُولَ فِيهِ لِكِبْرٍ أَوْ خَوْفٍ أَوْ غَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَسْبَابِ كَحَالِ أَبِي طَالِبٍ وَاليَهُودِ وَكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ اليَوْمَ فَإِنَّ الوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يَنْفَعُهُ التَّصْدِيقُ مَا لَمْ يَلْتَزِمْ أَحْكَامَ الإِسْلَامِ وَرَأْسُ ذَلِكَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّهَادَةُ بَلْ لَوْ أَضَافَ أَحَدُهُمْ إِلَىٰ التَّصْدِيقِ تَرْدِيدَ الشَّهَادَةِ فِي اليَوْمِ أَلْفَ مَرَّةٍ إِعْجَابًا بِهَا وَلَيْسَ إِعْلَانًا مِنْهُ لِلِالْتِزَامِ بِمَعْنَاهَا وَقَبُولِهِ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ شَيْءٌ.

وَالمَقْصُودُ أَنَّ شَرْطَ الاعْتِدَادِ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ أَنْ تَكُونَ عَلَىٰ سَبِيلِ الالْتِزَامِ.

وَيُقْصَدُ بِالالْتِزَامِ أَيْ قَبُولُ جَمِيعِ أَحْكَامِ الإِسْلَامِ أَخْبَارًا وَأَحْكَامًا وَأَنْ لَا يَرُدَّ مِنْهَا حُكْمًا وَاحِدًا فَإِنَّ رَدَّ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ وَصَحَّ عَنْ رَسُولِهِ كُفْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مُنَاقِضٌ لِشَرْطِ القَبُولِ.

وَمِنَ الأَدِلَّةِ التِي تَدُلُّ عَلَىٰ شَرْطِ القَبُولِ:

قَالَ اللهُ -ﷻ-: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾ [سورة الصافات: ٣٥-٣٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٠٨﴾ [سورة البقرة: ٢٠٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [سورة النساء: ٦٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾ [سورة البقرة: ٢٨٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١﴾ [سورة النور: ٥١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [سورة آل عمران: ٨١].

وَمِنَ السُّنَّةِ:

٢٤٢ - عَنْ أَبِي مُوسَىٰ، عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَىٰ وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَىٰ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».(١)

٢٤٣ - وَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؛ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ».(٢)

٢٤٤ - وَقَوْلُهُ -ﷺ-: «مَنْ قَبِلَ مِنِّي الْكَلِمَةَ الَّتِي عَرَضْتُهَا عَلَىٰ عَمِّي فَرَدَّهَا عَلَيَّ، فَهِيَ لَهُ نَجَاةٌ».(٣)

فَأَبُو طَالِبٍ أَبَىٰ أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مَعَ عِلْمِهِ بِأَصْلِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ البَرَاءَةُ مِنْ مِلَّةِ الأَشْيَاخِ وَشِرْكِهِمْ بَلْ وَكَانَ يُقِرُّ بِلِسَانِهِ أَنَّ التَّوْحِيدَ حَقٌّ كَمَا ذَكَرَ فِي قَصَائِدِهِ:

وَدَعَوْتَنِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ نَاصِحِي ... فَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ قِدَمَ أَمِينَا

وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حَذَارِي سُبَّةً ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

وَقَالَ فِي لَامِيَّتِهِ الخَرِيدَةِ المَشْهُورَةِ:

لَعَمْرِي لَقَدْ كُلِّفْتُ وَجْدًا بِأَحْمَدَ ... وَإِخْوَتِهِ دَأْبَ المُحِبِّ المُوَاصِلِ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٧٩).

(٢) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

(٣) أخرجه أحمد -رحمه الله- (١/ ٢٠٤).

فَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا جَمَالًا لِأَهْلِهَا ... وَزَيْنًا لِمَنْ وَاللهِ رَبُّ المَشَاكِلِ
فَمَنْ مِثْلُهُ فِي النَّاسِ أَيُّ مُؤَمَّلِ ... إِذَا قَاسَهُ الحُكَّامُ عِنْدَ التَّفَاضُلِ
حَلِيمٌ رَشِيدٌ عَادِلٌ غَيْرُ طَائِشٍ ... يُوَالِي إِلَاهًا لَيْسَ عَنْهُ بِغَافِلِ
فَوَاللهِ لَوْلَا أَنْ أَجِيءَ بِسُنَّةٍ ... تَجُرُّ عَلَىٰ أَشْيَاخِنَا فِي المَحَافِلِ
لَكُنَّا اتَّبَعْنَاهُ عَلَىٰ كُلِّ حَالَةٍ ... مِنَ الدَّهْرِ جِدًّا غَيْرَ قَوْلِ التَّهَازُلِ
لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَىٰ بِقَوْلِ الأَبَاطِلِ

بَلْ كَانَ يَنْصُرُ النَّبِيَّ -ﷺ- وَيَذُبُّ عَنْهُ:

وَاللهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ ... حَتَّىٰ أُغَيَّبَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا
فَانْفُذْ لِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ ... أَبْشِرْ وَقَرَّ بِذَاكَ مِنْكَ عُيُونَا.

٢٤٥ - وَقَالَ -ﷺ-: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا».(١)

٢٤٦ - وَرُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه-، عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ العَبْدَ نَادَىٰ جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ».(٢)

وَمِنَ الآثَارِ:

٢٤٧ - قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ شَمَّاسٍ: وَسُئِلَ فُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ وَأَنَا أَسْمَعُ، عَنِ الإِيمَانِ، فَقَالَ: «الإِيمَانُ عِنْدَنَا دَاخِلُهُ وَخَارِجُهُ الإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ وَالقَبُولُ بِالقَلْبِ وَالعَمَلُ بِهِ».(٣)

فَالقَبُولُ أَصْلٌ وَثَمَرَتُهُ الانْقِيَادُ وَذَلِكَ أَنَّ القَبُولَ هُوَ الالْتِزَامُ بِالتَّوْحِيدِ وَاعْتِقَادُ الانْضِوَاءِ تَحْتَ لِوَاءِ الدِّينِ وَالانْصِيَاعُ لِأَحْكَامِهِ وَاعْتِقَادُ التَّكْلِيفِ بِهَا وَالعَهْدُ وَالمِيثَاقُ عَلَىٰ الدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ مَعَ التَّسْلِيمِ وَتَرْكِ الاعْتِرَاضِ فَهَذَا مَا يَحْتَوِيهِ شَرْطُ القَبُولِ.

وَأَمَّا الانْقِيَادُ فَأَنْ يَقُومَ بِالفِعْلِ بِمَا الْتَزَمَ بِهِ مِنَ الإِخْلَاصِ لِلهِ وَنَفْيِ الشِّرْكِ وَالعَمَلِ بِشَرْعِ اللهِ

---

(١) رواه الإمام أحمد -رحمه الله- ١/ ٢٠٨، ومسلم (٣٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٤/ ٢٩٢).

(٣) «السنة لعبد الله بن أحمد -رحمه الله-» (١/ ٣١٥).

فِي الجُمْلَةِ.

وَالقَبُولُ دَلَّ عَلَيْهِ العَقْلُ وَالفِطْرَةُ وَالحِسُّ:

دَلَّ العَقْلُ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ لَمْ يَقْبَلِ الشَّيْءَ لَا يُعْتَبَرُ دَاخِلًا فِيهِ.

كَمَا أَنَّ الفِطْرَةَ السَّلِيمَةَ فُطِرَتْ عَلَىٰ قَبُولِ أَوَامِرِ رَبِّهَا وَخَالِقِهَا وَالإِذْعَانِ وَالتَّسْلِيمِ لَهُ.

مَسْأَلَةٌ: عَلَىٰ مَاذَا يَكُونُ القَبُولُ:

القَبُولُ لِلتَّوْحِيدِ يَعْنِي أَنْ يَقْبَلَ العَبْدُ بِأُلُوهِيَّةِ اللهِ وَيُفْرِدَهُ بِهَا وَيَقْبَلَ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ وَيُفْرِدَهُ بِهَا وَكَذَلِكَ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ يُثْبِتُهَا عَلَىٰ وَجْهِهَا الكَامِلِ اللَّائِقِ بِاللهِ تَعَالَىٰ.

أَنْ يَقْبَلَ المُوَحِّدُ بِرِسَالَةِ النَّبِيِّ -ﷺ- وَمَا تَقْتَضِيهِ وَبِخَاتِمَتِهَا.

أَنْ يَقْبَلَ الإِسْلَامَ وَمَا فِيهِ مِنْ أَوَامِرَ وَنَوَاهِيَ وَيَدِينَ بِذَلِكَ كُلِّهِ.

أَنْ يَقْبَلَ القُرْآنَ فَيَقْبَلَ بِهِ وَيَعْمَلَ بِمَا فِيهِ.

أَنْ يَقْبَلَ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُ.

أَنْ يَقْبَلَ بِعَقِيدَةِ الوَلَاءِ وَالبَرَاءِ وَتَوَلِّي المُؤْمِنِينَ وَحُبِّ الصَّحَابَةِ -رضي الله عنهم- وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَالبَرَاءَةِ مِنَ المُشْرِكِينَ وَجِهَادِهِمْ.

فَالقَبُولُ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الإِسْلَامِ الظَّاهِرِ: فَلَا يَصِحُّ لَهُ إِسْلَامٌ وَلَا تَوْحِيدٌ حَتَّىٰ يَقْبَلَ وَيُسْلِمَ وَيَرْضَىٰ وَيُتَابِعَ عَلَىٰ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ فَيَتَحَقَّقُ القَبُولُ بِالنُّطْقِ بِهَا وَهُوَ قَوْلُ اللِّسَانِ وَالعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا ظَاهِرًا وَتَرْكِ مَا يُنَاقِضُهَا ظَاهِرًا وَهَذَا عَمَلُ الجَوَارِحِ.

٢٤٨ - **قَالَ ابْنُ بَطَّةَ** -رحمه الله-: فَجَمَعَ القَوْلَ وَالعَمَلَ فِي هَذِهِ الآيَةِ، وَقَالَ اللهُ -عز وجل-: فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُقِرُّ بِالفَرَائِضِ وَلَا يُؤَدِّيهَا وَيَعْلَمُهَا، وَبِتَحْرِيمِ الفَوَاحِشِ وَالمُنْكَرَاتِ وَلَا يَنْزَجِرُ عَنْهَا وَلَا يَتْرُكُهَا، وَأَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ مُؤْمِنٌ، فَقَدْ كَذَّبَ بِالكِتَابِ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ.[1]

مَسْأَلَةٌ: القَبُولُ أَصْلٌ وَكَمَالٌ

الأَوَّلُ: أَصْلُ القَبُولِ: وَهُوَ المُتَعَلِّقُ بِأُصُولِ الدِّينِ وَالإِيمَانِ وَهَذَا يَكْفُرُ فَاقِدُهُ.

الثَّانِي: كَمَالُ القَبُولِ أَوِ القَبُولُ التَّامُّ وَالكَامِلُ:

---

(١) في «الإبانة الكبرى» (٢/ ٧٨٩).

وَهَذَا عَلَىٰ دَرَجَاتٍ: مِنْهُ الوَاجِبُ الذِي يَأْثَمُ مَنْ تَرَكَهُ مَعَ بَقَاءِ حُكْمِ الإِسْلَامِ عَلَىٰ فَاعِلِهِ وَالمُسْتَحَبُّ الذِي لَا يَأْثَمُ مَنْ أَخَلَّ بِهِ أَوْ تَرَكَهُ.

وَالنَّاسُ يَتَفَاوَتُونَ فِيهِ حَيْثُ مُقْتَضَيَاتُ القَبُولِ وَلَوَازِمُهُ مِنَ الانْقِيَادِ وَالرِّضَا وَالمَحَبَّةِ وَالتَّسْلِيمِ.

أَمَّا فِي نَفْسِهِ فَالقَبُولُ وَاجِبٌ لِلهِ فَيَجِبُ القَبُولُ بِكُلِّ شَيْءٍ جَاءَ عَنِ اللهِ وَعَنْ رَسُولِهِ -ﷺ- وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ السَّلَفُ وَتَرْكُ الاعْتِرَاضِ فَلَوْ رَدَّ شَيْئًا عَلَىٰ اللهِ أَوْ عَلَىٰ رَسُولِهِ -ﷺ- وَلَوْ أَمْرًا وَاحِدًا كَفَرَ بِذَلِكَ.

٢٤٩ - قَالَ الإِمَامُ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُويَهْ -رحمه الله-:

وَقَدْ أَجْمَعَ العُلَمَاءُ أَنَّ مَنْ سَبَّ اللهَ -وجل- أَوْ سَبَّ رَسُولَ اللهِ أَوْ دَفَعَ شَيْئًا أَنْزَلَهُ اللهُ أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُقِرٌّ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ أَنَّهُ كَافِرٌ فَكَذَلِكَ تَارِكُ الصَّلَاةِ حَتَّىٰ يَخْرُجَ وَقْتُهَا عَامِدًا قَالَ وَلَقَدْ أَجْمَعُوا فِي الصَّلَاةِ عَلَىٰ شَيْءٍ لَمْ يُجْمِعُوا عَلَيْهِ فِي سَائِرِ الشَّرَائِعِ لِأَنَّهُمْ بِأَجْمَعِهِمْ قَالُوا مَنْ عُرِفَ بِالكُفْرِ ثُمَّ رَأَوْهُ يُصَلِّي الصَّلَاةَ فِي وَقْتِهَا حَتَّىٰ صَلَّىٰ صَلَوَاتٍ كَثِيرَةً فِي وَقْتِهَا وَلَمْ يَعْلَمُوا مِنْهُ إِقْرَارًا بِاللِّسَانِ أَنَّهُ يُحْكَمُ لَهُ بِالإِيمَانِ وَلَمْ يَحْكُمُوا لَهُ فِي الصَّوْمِ وَالزَّكَاةِ وَالحَجِّ بِمِثْلِ ذَلِكَ.

قُلْتُ: إِسْحَاقُ يَنْقُلُ الإِجْمَاعَ عَلَىٰ تَكْفِيرِ مَنْ دَفَعَ أَوْ رَدَّ فَرِيضَةً مِنَ الفَرَائِضِ فِي الشَّرْعِ وَيَتَكَلَّمُ عَنْ ذَلِكَ وَهُوَ فِي سِيَاقِ الرَّدِّ عَلَىٰ المُرْجِئَةِ وَهُمْ زَعَمُوا أَنَّ تَارِكَ الفَرَائِضِ لَا يَكْفُرُ إِلَّا إِذَا جَحَدَ فَبَيَّنَ خَطَأَهُمْ فِي ذَلِكَ.

وَقَدْ فَرَّقَ -رحمه الله- تَعَالَىٰ بَيْنَ الجُحُودِ وَالرَّدِّ وَيَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ اللَّفْظُ الذِي عِنْدَ المَرْوَزِيِّ.

٢٥٠ - قَالَ إِسْحَاقُ: وَمِمَّا أَجْمَعُوا عَلَىٰ تَكْفِيرِهِ وَحَكَمُوا عَلَيْهِ كَمَا حَكَمُوا عَلَىٰ الْجَاحِدِ فَالْمُؤْمِنُ الَّذِي آمَنَ بِاللهِ تَعَالَىٰ وَمِمَّا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ ثُمَّ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ أَعَانَ عَلَىٰ قَتْلِهِ وَإِنْ كَانَ مُقِرًّا، وَيَقُولُ: قَتْلُ الْأَنْبِيَاءِ مُحَرَّمٌ فَهُوَ كَافِرٌ، وَكَذَلِكَ مَنْ شَتَمَ نَبِيًّا أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ قَوْلَهُ مِنْ غَيْرِ تَقِيَّةٍ وَلَا خَوْفٍ.[1]

وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ المَرْوَزِيُّ أَنَّ إِسْحَاقَ بْنَ رَاهُويَهْ كَانَ يَقُولُ: مَنْ بَلَغَهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ

---

(١) (تعظيم قدر الصلاة - محمد بن نصر المروزي) (٢/ ٩٣٠).

خَبَرٌ يُقِرُّ بِصِحَّتِهِ ثُمَّ رَدَّهُ بِغَيْرِ تَقِيَّةٍ فَهُوَ كَافِرٌ.[١]

٢٥١ - **وَقَالَ البَرْبَهَارِيُّ** -رحمه الله-: وَلَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ مِنَ الإِسْلَامِ حَتَّىٰ يَرُدَّ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ، أَوْ يَرُدَّ شَيْئًا مِنْ آثَارِ رَسُولِ اللهِ.

٢٥٢ - **عَنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ** -رحمه الله- **قَالَ:** مَنْ رَدَّ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ.[٢]

٢٥٣ - **وَقَالَ ابْنُ بَطَّةَ** -رحمه الله-: مَنْ كَذَّبَ بِآيَةٍ أَوْ بِحَرْفٍ مِنَ القُرْآنِ، أَوْ رَدَّ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ فَهُوَ كَافِرٌ.

مَسْأَلَةٌ: قَوَادِحُ القَبُولِ:

- البِدَعُ المُكَفِّرَةُ وَالمُفَسِّقَةُ عَلَىٰ دَرَجَاتِهَا وَالبِدَعُ كُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَىٰ عَدَمِ القَبُولِ التَّامِّ لِلشَّرْعِ.
- المَعَاصِي تُنَاقِضُ القَبُولَ التَّامَّ الكَامِلَ وَتَنْقُصُ كَمَالَهُ وَتَقْدَحُ فِيهِ.
- شِرْكُ التَّعْطِيلِ.
- مُعَارَضَةُ الوَحْيِ وَالشَّرْعِ بِالعَقْلِ كَمَا دَرَجَ عَلَىٰ ذَلِكَ المُتَكَلِّمُونَ.
- عَدَمُ الرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ بِشَرْعِ اللهِ.

وَهَذِهِ القَوَادِحُ مِنْهَا مَا يُبْطِلُ القَبُولَ وَيُزِيلُهُ مِنْ أَصْلِهِ فَيَصِيرُ صَاحِبُهُ كَافِرًا مُرْتَدًّا وَمِنْهَا مَا يَقْدَحُ فِي كَمَالِهِ وَيَنْقُصُهُ مَعَ بَقَاءِ أَصْلِهِ فَلَا يَزُولُ بَلْ وَيَبْقَىٰ الإِسْلَامُ مَعَ صَاحِبِهِ.

مَسْأَلَةٌ: مَوَانِعُ القَبُولِ:

- الجَهْلُ.
- العِنَادُ وَالحَسَدُ وَالكِبْرُ.
- الكُرْهُ وَالبُغْضُ.
- المَصَالِحُ الدُّنْيَوِيَّةُ مِنْ مَالٍ وَمُلْكٍ وَجَاهٍ.

❁❁❁

---

(١) وجاء في الإحكام (١/ ٨٩).

(٢) وروىٰ ابن بطة في الإبانة الكبرىٰ (٤٩٧).

الباعث من وراء هذه الرسالة

تَوْقِيفُ النَّاسِ عَلَىٰ الحَدِّ المُنْجِي عَلَىٰ الحَقِيقَةِ مِنْ قَبْلِ لُحُوقِ الخُسْرَانِ وَالمُكْثِ فِي دَارِ البَوَارِ.

جَلَاءُ قَضِيَّةِ التَّوْحِيدِ، وَبَيَانُ حُجَجِهَا، مَعَ التَّحْذِيرِ وَالتَّنْبِيهِ مِنْ خَطَرِ الوُقُوعِ فِي تَوْهِينِهَا، وَالطَّعْنِ فِي حُجَجِهَا مِنْ أَجْلِ البَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ عَنِ الْتِمَاسِ الأَعْذَارِ الوَاهِيَةِ لِتَبْرِيرِ أَسْلَمَةِ المُشْرِكِينَ، وَتَصْحِيحِ انْتِسَابٍ مُزَيَّفٍ لَهُمْ.

التَّرْكِيزُ عَلَىٰ رَصِيدِ الفِطْرَةِ لِحَثِّ الدُّعَاةِ لِإِكْمَالِ المَسِيرَةِ، وَاليَقِينُ بِأَنَّ الجَوْلَةَ الحَاسِمَةَ سَتَكُونُ لِهَذَا الدِّينِ المُنْبَثِقِ مِنَ الرَّصِيدِ الهَائِلِ لِفِطَرِ الخَلَائِقِ.

تَذْكِيرُ الدُّعَاةِ وَالمُرَبِّينَ بِحَقِيقَةٍ أَوَّلِيَّةٍ يَقُومُ عَلَيْهَا، وَيَنْبَثِقُ مِنْهَا: العَوْدُ المَنْشُودُ لِهَذَا الدِّينِ، أَلَا وَهِيَ: وُجُوبُ تَجْرِيدِ العُبُودِيَّةِ لِلهِ، وَتَحْرِيرُ الوَلَاءِ لَهُ، مَعَ حَتْمِيَّةِ الكُفْرِ وَالانْخِلَاعِ مِنْ: كُلِّ العَلَائِقِ وَالوَشَائِجِ لِكَافَّةِ الأَرْبَابِ وَالطَّوَاغِيتِ وَالأَنْدَادِ المَعْبُودَةِ مِنْ دُونِهِ.

وَيَكُونُ هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الوَحِيدُ لِإِعْدَادِ وَتَرْبِيَةِ الأُمَّةِ عَلَيْهِ، وَرُجُوعُ الثِّقَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ لِأَبْنَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ بِمَنْبَعِ عِزِّهِمْ، وَمَصْدَرُ وُجُودِهِمُ المُتَمَثِّلُ فِي: الاعْتِصَامِ بِرَبِّهِمْ وَكِتَابِهِمْ وَهَدْيِ نَبِيِّهِمْ -ﷺ- وَآثَارِ سَلَفِهِمْ -رضي الله عنهم- مِنَ الصَّحَابَةِ -رضي الله عنهم- وَالتَّابِعِينَ وَأَئِمَّةِ أَهْلِ الحَدِيثِ عَلَىٰ مَرِّ العُصُورِ الطَّائِفَةُ المَنْصُورَةُ وَالفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ التِي حَفِظَ اللهُ بِهَا الدِّينَ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِلْعِلْمِ النَّافِعِ، وَوَفَّقَنَا لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ، أَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، مَقْبُولًا عِنْدَهُ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ مَنْ قَرَأَهُ، وَيُبَارِكَ فِيمَنْ نَشَرَهُ، وَيُعِينَ مَنْ أَعَانَ عَلَىٰ طَبْعِهِ وَكِتَابَتِهِ وَتَصْمِيمِهِ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ.

تم بحمد الله

❁❁❁

الفهرست

مقدمة ١

كلمة افتتاحية مقتبسة في أهمية العقيدة: ٦

المَنَارَةُ الأُولَىٰ: الجَانِبُ العِلْمِيُّ: ١٩

المَنَارَةُ الثَّانِيَةُ: المِحْوَرُ الأَدَائِيُّ: ٢١

المَنَارَةُ الثَّالِثَةُ: المِحْوَرُ التَّحْضِيرِيُّ: ٢٢

فَصْلٌ فِي: **مسائل علم العقيدة وأصول الدين** ٢٧

أَنْوَاعُ المُصَنَّفَاتِ العَقَدِيَّةِ السَّلَفِيَّةِ: ٢٧

مُسَمَّيَاتُ عِلْمِ الْعَقِيدَةِ: ٢٨

فَصْلٌ فِي: **فضل التوحيد ومنزلته وأهميته** ٢٩

وَمِنْ تِلْكَ الحُجَجِ التِي أَسَّسَ اللهُ بِهَا هَذَا التَّوْحِيدَ: ٤٣

حُجِّيَّةُ المِيثَاقِ: ٤٣

الفِطْرَةُ: ٤٦

العَقْلُ: ٤٨

لَمَّةُ المَلَكِ: ٥٣

آيَاتُ الأَنْفُسِ وَالآفَاقِ: ٥٧

النُّذُرُ: ٦١

فَصْلٌ فِي: **حقيقة الشرك** ٦٦

قَوَاعِدُ الشِّرْكِ: ٦٧

مَسْأَلَةٌ: وُجُوبُ تَعَلُّمِ الشِّرْكِ وَمَسَائِلِهِ وَمَعَانِيهِ وَأَوْصَافِهِ وَأَسْبَابِهِ: ٧٣
أَسْبَابُ الوُقُوعِ فِي الشِّرْكِ: ٨٢
مَسْأَلَةٌ: لِمَاذَا الشِّرْكُ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ: ٩٠
مَسْأَلَةٌ: حُكْمُ المُشْرِكِ: ٩١
مَسْأَلَةٌ: أَقْسَامُ وَأَنْوَاعُ الشِّرْكِ: ٩١
وَالأَقْسَامُ الأَرْبَعَةُ الرَّئِيسِيَّةُ لِلشِّرْكِ: ٩٢
فَصْلٌ فِي: العواقب الحميدة للرسل وأتباعهم ٩٣
أَوَّلاً: إِكْرَامُ اللهِ لِلرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمُ الذِينَ قَامُوا بِالتَّوْحِيدِ: ٩٣
الأَمْرُ الثَّانِي: إِهْلَاكُ اللهِ المُشْرِكِينَ المُسْتَكْبِرِينَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ: ٩٦
فَصْلٌ فِي: أقسام التوحيد الثلاثة ١٠٤
أَسْمَاءُ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ: ١٠٥
أَفْعَالُ الرُّبُوبِيَّةِ وَالأَمْثِلَةُ لَهَا: ١٠٥
أَنْوَاعُ المُخَالَفَاتِ وَالقَوَادِحِ وَالشِّرْكِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ: ١٠٥
وُقُوعُ الشِّرْكِ الأَصْغَرِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ: ١٠٦
مَسْأَلَةٌ: لَوَازِمُ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ: ١١٣
أَسْمَاءُ تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ: ١١٤
مَسْأَلَةٌ: الفَرْقُ بَيْنَ تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ: ١٢٧
فَصْلٌ فِي: معنى لا إله إلا الله ١٢٩
المَسْأَلَةُ الأُولَىٰ: (أَرْكَانُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) ١٣١
مَسْأَلَةٌ: مَعْنَىٰ الإِلَهِ: ١٣٤
مَسْأَلَةٌ: أَنْوَاعُ الآلِهَةِ: ١٣٦
قَاعِدَةٌ: تَحْقِيقُ الأُلُوهِيَّةِ يَتَحَقَّقُ بِأَمْرَيْنِ: ١٣٦

مَسْأَلَةٌ: لِمَاذَا اسْتَحَقَّ اللهُ تَعَالَىٰ العِبَادَةَ دُونَ مَا سِوَاهُ؟ ١٣٦
مَسْأَلَةٌ: المَعْبُودُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا: ١٤٠
مَسْأَلَةٌ: حَاجَةُ العَبْدِ لِلْعِبَادَةِ: ١٤٢
مَسْأَلَةٌ: أَسْبَابُ العِبَادَةِ الشِّرْكِيَّةِ التِي نَفَاهَا اللهُ: ١٤٣
ضَابِطُ العِبَادَةِ مَا جَمَعَ هَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ: ١٤٤
أَقْسَامُ العِبَادَاتِ: ١٤٥
شُرُوطُ صِحَّةِ العِبَادَةِ: ١٤٥
مَفَاسِدُ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ تَعَالَىٰ: ١٤٦
صِفَةُ الكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ التِي لَا يَتَحَقَّقُ الرُّكْنُ الأَوَّلُ وَهُوَ الكُفْرُ بِالطَّاغُوتِ إِلَّا بِتَحْقِيقِهَا: ١٤٧
فَصْلٌ فِي: ذكر شروط شهادة أن لا إله إلا الله ١٥٩
المَسْأَلَةُ الأُولَىٰ: (أَهَمِّيَّةُ شُرُوطِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) ١٦٠
المَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: (أَدِلَّةُ شُرُوطِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ). ١٦٠
المَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: (قِيَامُ كُلِّ شَرْطٍ مِنْهَا عَلَىٰ أَصْلٍ وَكَمَالٍ) ١٦٣
المَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: (الكُفْرُ المُتَعَلِّقُ بِكُلِّ شَرْطٍ) ١٦٤
الشُّرُوطُ: ١٦٤
١) العِلْمُ المُنَافِي لِلْجَهْلِ: ١٦٤
٢) اليَقِينُ المُنَافِي لِلشَّكِّ: ١٦٨
٣) الإِخْلَاصُ المُنَافِي لِلشِّرْكِ: ١٧٦
٤) الصِّدْقُ المُنَافِي لِلْكَذِبِ: ١٧٩
٥) المَحَبَّةُ المُنَافِيَةُ لِلْبُغْضِ: ١٨٤
٦) الانْقِيَادُ المُنَافِي لِلتَّرْكِ: ١٨٦
٧) القَبُولُ المُنَافِي لِلرَّدِّ: ١٨٨

الباعث من وراء هذه الرسالة ١٩٥